عوارف المعارف

للسهروردي

مكتبة القاهرة
لصاحبها علي يوسف سليمان
ت/ ٥٩٠٥٩٠٩
ص ب ١٩٤٦ العتبة

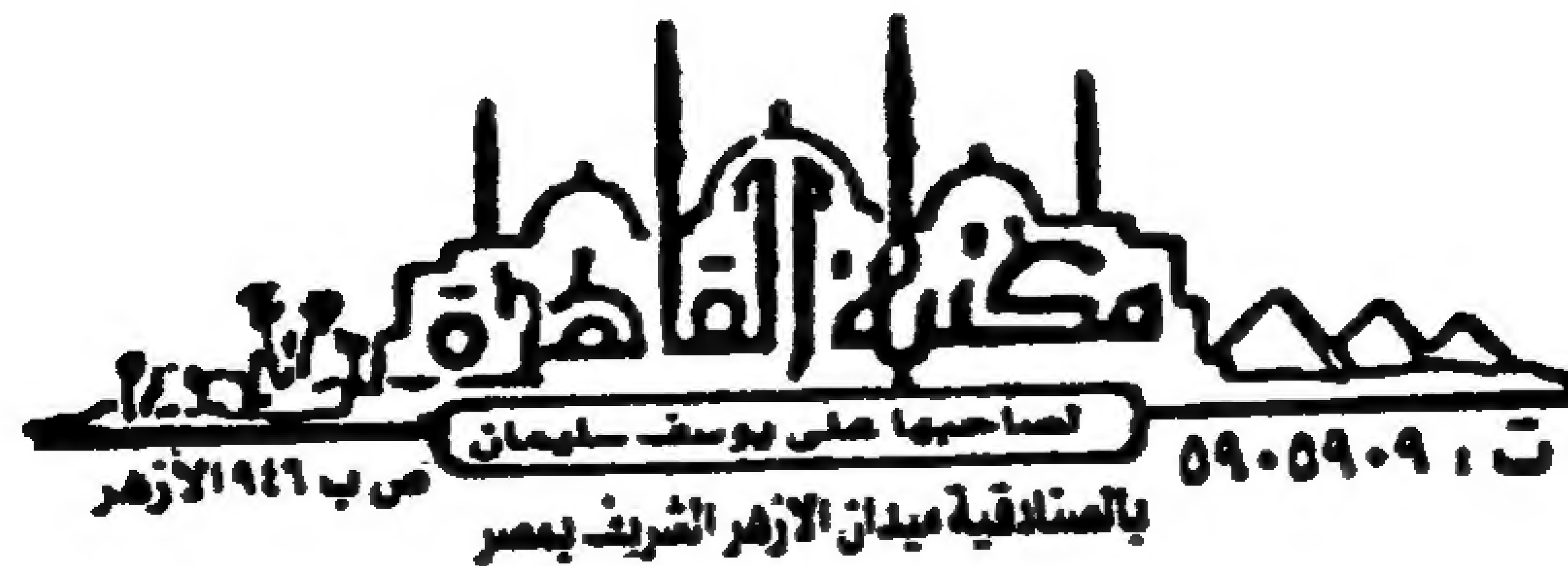
عوارف المعارف

للسُّهْرَوَرْدِي

٥٣٩ - ٦٣٢ هـ

الطبعة الخامسة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



الإمام الشُّهْرَوَرْدِي

أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عَمُّويَهْ بن سعيد ابن الحسين بن القاسم بن نصر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة ـ رضي الله عنه ـ

أبو عبد الله ، وقيل : أبو نصر ، وقيل : أبو القاسم ، المتصوف ، الحكيم الزاهد الفيلسوف ، الشاعر ـ ابن أخي الشيخ أبي النَّجِيب ـ شيخ الإسلام ، ومعدن الحقيقة ، وإمام الوقت ، وفريد العصر ، شهاب الدين الشُّهْرَوَرْدِي صاحب (عوارف المعارف) .

ولد في رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسُهْرَوَرْد[1] ، ونشأ بها إلى أن بلغ قريباً من ست عشرة سنة ، ثم توجه إلى بغداد . فصحب عمه الشيخ أبا النجيب عبد القاهر ، وأخذ عنه التصوف والوعظ ، وصحب أيضاً الشيخ عبد القادر الجيلي ، وصحب بالبصرة الشيخ أبا محمد بن عبد .

وسمع الحديث من عمه ، ومن أبي المظفر هبة الله بن الشِّبْلِيّ ، وأبي الفتح ابن البطِّيّ ، ومَعْمَر بن الفاخر ، وأبي زُرعة المقدسِيّ ، وأبي الفُتوح الطائي ، وغيرهم .

روى عنه ابن الدُّبَيْثِيّ ، وابن نقطة ، والضياء ، والزكيّ البرزاليّ ، وابن النجار ، والقوصيّ ، وأبو العزائم بن علان ، والشيخ العِزّ الفاروثِيّ ، وأبو العباس الأبَرْقوهِيّ ، وخلق .

وكان أرباب الطريق من أهل عصره ، يكتبون إليه صورة فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم .

---

(١) سهرورد ـ بضم السين ، وسكون الهاء ، وفتح الراء والواو ، وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة ، وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم .

وقد كتب إليه بعضهم : يا سيدى إن تركتُ العملَ أخلدتُ إلى البطالة ، وإن عملتُ داخلَني العُجْبُ ، فأيُّهما أولى ؟

فكتب جوابه : اعمل واستغفر الله من العُجْب .

وأخباره فى ذلك كثيرة ، وشعره كثير حسنٌ بالغٌ .

أخذ التصوف عمن ذكرناه ، والفقه عن عمه أبى النجيب أيضاً ، وعن أبى القاسم بن فضْلان .

وقرأ الفقه والخلاف والعربية ، وسمع الحديث ، ثم انقطع ، ولازم الخَلْوة ، وداوم الصوم ، والذكر ، والعبادة .

قال ابن النجار :

« كان شيخَ وقته فى علم الحقيقة ، وانتهت إليه الرياسة فى تربية المريدين ، ودعاء الخَلْق إلى الله ، وتسليك طريق العبادة والزهد ، صحب عمه ، وسلك طريق الرياضات والمجاهدات .

قال : ثم تكلم على الناس ، عند عُلُوّ سنه ، وعقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه على (دِجلة) .

قال : وقُصد من الأقطار ، وظهرت بركاتُ أنفاسه على خَلْقٍ من العُصاة فتابوا ، ووصل به خلق إلى الله ، وصار له أصحابٌ كالنجوم .

قال : ورأى من الجاه ، والحُرمة عند الملوك ، مالم يره أحد .

قال : ثم أضرّ فى آخر عمره ، وأُقعِد ، ومع هذا فما أخلّ بالأوراد ، ودوام الذكر ، وحضور الجُمَع فى مَحَفَّتِهِ ، والمُضِيّ إلى الحج ، إلى أن دخل فى عشر المائة .

قال : ومات ولم يُخلّف كفناً ، مع ما كان يدخُلُ له .

قال ابن نُقطة : كان شيخَ العراق فى وقتـه ، صاحب مجاهدة وإيثـار ، وطريقٍ حميدة ، ومروءةٍ تامة ، وأورادٍ على كِبَرِ سنّه .

وفى معجم الأدباء لياقوت :

« السهروردى كان فقيهاً شافعى المذهب ، أصولياً ، أديباً ، شاعراً ، حكيماً ، متفنناً ، نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه » .

من آثاره :

(١) حكمة الإشراق . (٢) التنقيحات فى أصول الفقه .
(٣) بستان القلوب . (٤) اعتقاد الحكماء .
(٥) هياكل النور . (٦) رسالة أصوات أجنحة جبرائيل .
(٧) رسالة مؤنس العشاق . (٨) مجموعة فى الحكمة الإلهية .
(٩) اللمحـــات . (١٠) الألواح العادية .
(١١) رسالة الغربة الغربية . (١٢) علم الهدى وأسرار الاهتداء .
(١٣) الرمز الموحى . (١٤) طوارق الأنوار .
(١٥) مقالات الصوفيين . (١٦) البارقات الإلهية .
(١٧) النفحات السماوية . (١٨) لوامع الأنوار .
(١٩) الرقم القدسى (٢٠) الصـــبر .
(٢١) كشف الغطاء لإخوان الصفا . (٢٢) عوارف المعارف .

إلى غير ذلك من آثاره العديدة .

وكان من دعائه رضوان الله عليه :

الله . . .

ياقيام الوجود ، وفائض الجود ، ومنزل البركات ، ومنتهى الرغبات ، منور النور ، ومدبر الأمور ، واهب حياة العالمين . . .

أمددنا بنورك ، ووفقنا لمرضاتك ، وألهمنا رشدك ، وطهرنا من رجس الظلمات ، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ، ومعاينة أضوائك ، ومجاورة مقربيك ، وموافقة سكان ملكوتك . . . .

واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة ، والصديقين ، والأنبياء والمرسلين .

ياقيوم : أيدنا بالنور وثبتنا على النور ، واحشرنا إلى النور ، واجعل منتهى مطالبنا رضاك ، وأقصى مقاصدنا مايعدنا لأن نلقاك ، ظلمنا أنفسنا ، لستَ على الفيض بضنين أسارى الظلمات بالباب قيام ينتظرون الرحمة ، ويرجون الخير ، وفك الأسير ، والخير رضاؤك ، والشر قضاؤك ، أنت بالمجد الأسنى تقتضى للمكارم ، وأبناء النواسيت ليسوا بمراتب الانتقام ، بارك فى الذكر ، وارفع السوء ، ووفق المحسنين .

وهكذا نرى أن السهروردى لزم باب الله ـ تعالى ـ ففتح الله ـ عز وجل ـ عليه حتى صار أوحد زمانه ، ودعا الخلق إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكان كلامه آخذاً بمجامع القلوب ، صادراً عن معاملة ورياضة .

وقد توفى ـ رضى الله عنه ـ ليلة الأربعاء مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ببغداد(١) .

---

(١) البداية والنهاية ١٣٨/١٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ - تذكرة الحفاظ ١٤٥٨/٤ . ذيل الروضتين ١٦٣ . شذرات الذهب ١٥٣/٥ ، ١٥٤ . العبر ١٣٩/٥ . مرآة الجنان ٧٩/٤ — ٨٢ . مرآة الزمان ٦٧٩/٨ ، ٦٨٠ . مفتاح السعادة ٣٥٥/٢ ، ٣٥٦ . النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦ — ٢٨٥ ، ٢٩٢ . وفيات الأعيان ١١٩/٣ ، ١٢٠ . طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٨/٨ — ٣٤٠ . السهروردى لسامى الكيالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم شانه ، القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه ، الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب بالجلال ، والمنفرد بالكمال ، والمتردى بالعظمة فى الآباد والآزال ، لايصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم السرمدى ، والملك القائم الديمومى ، والقدرة الممتنع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ، نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع ، ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع ، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحات الألسن وصف الحصر فى حلبة البيان ، وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم ، وسدت تعززاً وجلالا مسالك الوهم ، وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا ، ولم يجد من فرط الهيبة فى فضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر كليلا ، والعقل عليلا ، ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلا .

فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه ، وتعذر على العقول تحديده وتكييفه ، ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان ، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوة ، ومرائى قلوبهم بنور القدس مجلوة ، فتهيأت لقبول الإمداد القدسية ، واستعدت لورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جلاساً ، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراساً ، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراساً ، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها ، وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها ، وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت ، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت ، وامتدت إلى المعالى أعناقها ، وطمحت إلى اللامع العلوى أحداقها ، واتخذت من الملأ الأعلى مسامراً ومحاوراً ، ومن النور الأعز الأقصى مزاوراً ومجاوراً ، أجساد أرضية بقلوب سماوية ، وأشباح فرشية بأرواح

عرشية ، نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة ، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة ، مذاهبهم فى العبودية مشهورة ، وأعلامهم فى أقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم فقدوا وما فقدوا ، ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا ، وعلا مقامهم فلم يملكوا ، كائنين بالجثمان ، بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان ، لأرواحهم حول العرش تطواف ، ولقلوبهم من خزائن البر أسعاف ، يتنعمون بالخدمة فى الدياجر ، ويتلذذون من وهج الطلب بظما الهواجر .

تسلوا بالصلوات عن الشهوات ، وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات ، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان ، وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان ، لايزال فى كل عصر منهم علماء ، بالحق داعون للخلق ، منحوا بحسن المتابعة رتبة الدعوة ، وجعلوا للمتقين قدوة ، فلايزال تظهر فى الخلق آثارهم ، وتزهر فى الآفاق أنوارهم .

من اقتدى بهم اهتدى ، ومن أنكرهم ضل واعتدى .

فلله الحمد على ما هيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد ، وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد .

ثم إن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ، ومحبتى لهم علماً بشرف حالهم ، وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة ، المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة ، حدانى أن أذب عن هذه العصابة بهذه الصبابة ، وأؤلف أبواباً فى الحقائق والآداب ، معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه ، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم ، وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لايعرف أصول سلفهم سوء ظن ، وكاد لايسلم من وقيعة فيهم وطعن ، ظناً منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم ، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم .

ومما حضرنى فيه من النية ، أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم ، والإشارة إلى أحوالهم ، وقد ورد « من كثر سواد قوم فهو منهم » وأرجو من الله الكريم صحة النية فيه ، وتخليصها من شوائب النفس .

وكل ما فتح الله تعالى علىّ فيه ، منح من الله الكريم وعوارف ، وأجل المنح عوارف المعارف .

والكتاب يشتمل على نيف وستين باباً . والله المعين .

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى ، مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم ، وآدابهم وأخلاقهم ، وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيق إشاراتهم ، ولطيف اصطلاحاتهم .

فعلومهم كلهـا أنباء عن وجدان ، واعتزاء إلى عرفان ، وذوق تحقق بصدق الحال ، ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال ، لأنها مواهب ربانية ، ومنايح حقانية ، استنزلها صفاء السرائر ، وخلوص الضمائر ، فاستعصت بـكنهها على الإشارة ، وطفحت على العبارة ، وتهادتها الأرواح بدلالة التشام والائتلاف ، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم ، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم .

وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتـكلم فى حواشيه .

بدا هذا القول منه فى وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحى التابعين، فـكيف بنا مع بعد العهـــد وقلة العلماء الزاهدين ، والعارفين بحقائق علوم الدين .

والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول ، والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

فى ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردى إملاء من لفظه فى شوال سنة ستين وخمسمائة ، قال أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبى ، قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد ابن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى ، قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى ، قال أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، قال حدثنا أبو كريب ، قال حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل مابعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قومى إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم (١) ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ماجئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

قال الشيخ : أعد الله تعالى لقبول ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصفى القلوب وأزكى النفوس ، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع ، فمن القلوب ماهو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت

(١) اجتاحهم : أى استأصلهم ، ومن ذلك الجائحة التى تفسد الثمار .

الكلأ والعشب الكثير ، وهذا مثل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى ، ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ .

ومن القلوب ماهو بمثابة الأخاذات ، أى الغدران جمع أخاذة ، وهو المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء . فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت ، وقلوبهم صفت فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات .

قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كأخاذات ، لأن قلوبهم كانت واعية ، فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى ، قال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى ، قال أنبأنا أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعالبى ، قال أنبأنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبان ، قال حدثنا إسحاق بن محمد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا على بن على ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالى ، قال حدثنى عبد الله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية (وتعيها أذن واعية) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك ياعلى ، قال على : فما نسيت شيئاً بعد وما كان لى أن أنسى .

قال أبو بكر الواسطى : آذان وعت عن الله تعالى أسراره .

وقال أيضاً : واعية فى معادنها ، ليس فيها غير ماشهدته شىء ، فهى الخالية عما سواه ، فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل .

فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد ، انفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا . فعلماء التفسير ، وأئمة الحديث ، وفقهاء الإسلام ، أحاطوا علماً بالكتاب والسنة ، واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، وحمى الله بهم الدين .

وعرف علماء التفسير وجه التفسير ، وعلم التأويل ، ومذاهب العرب فى

اللغة ، وغرائب النحو والتصريف ، وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة ، وصنفوا فى ذلك الكتب ، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة.

وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان ، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ، ليتبين الصحيح من السقيم ، ويتميز المعوج من المستقيم ، فيتحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظاً للسنة .

وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام ، والتفريع فى المسائل ، ومعرفة التعليل ، ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص .

وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه ، وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل . وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم الفرائض ، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة ، إلى غير ذلك ، فتمهدت الشريعة ، وتأيدت ، واستقام الدين الحنيفى ، وتفرع وتأصل الهدى النبوى المصطفوى ، فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ والعشب ، بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم .

قال الله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدَرها) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأودية القلوب .

قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : خلق الله تعالى درة صافية ، فلاحظها بعين الجلال ، فذابت حياء منه ، فسالت ، فقال (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها .

وقال ابن عطاء : (أنزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد ، وذلك إذا سال السيل فى الأودية ، لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها ، كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه ، لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة (أنزل من السماء ماء) يعنى قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعنى فى القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها فى الأزل (فأما الزبد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة (وأما ماينفع

الناس فيمكث فى الأرض) تذهب البواطل وتبقى الحقائق .

وقال بعضهم : (أنزل من السماء ماء) أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا ، المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها . فمن كان فى باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه ، وطلب المناصب والرفعة ، سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفاً صالحاً ولم يحظ بحقائق العلوم ، ومن زهد فى الدنيا اتسع وادى قلبه ، فسالت فيه مياه العلوم ، واجتمعت وصارت أخاذات .

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ، إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا .

فالصوفية أخذوا حظاً من علم الدراسة ، فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة ، فهم مع سائر العلماء فى علومهم ، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة ، هى علوم الوراثة ، وعلم الوراثة هو الفقـــه فى الدين .

قال الله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفـة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) .

فصار الإنذار مستفاداً من الفقه ، والإنذار إحياء المنذر بماء العلم ، والإحياء بالعلم رتبة الفقه فى الدين ، فصار الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها ، وهو علم العالم الزاهد فى الدنيا ، المتقى ، الذى يبلغ رتبة الإنذار بعلمـــه .

فورد العلم والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى ، فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً ، فظهر من ارتوائه ظاهره الدين ، والدين هو الانقيـاد والخضوع ، مشتق من الدون ، فـكل شىء اتضع فهو دون . فالدين أن يضع الإنسان نفسه لربه .

قال الله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فبالتفرق فى الدين يستولى الذبول على الجوارح ، وتذهب عنها نضارة العلم ، والنضارة فى الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد فى النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب فى ارتوائه بالعلم بمثابة البحر ، فصار قلب رسول الله ﷺ بالعلم والهدى بحراً مواجاً ، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه ، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها ، ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة ، فلما استتمت نضارة وامتلأ رياً بعثه الله تعالى إلى الخلق ، فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم ، واستقبل جداول الفهوم ، وجرى من بحره فى كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه فى الدين.

روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال «ماعبد الله عز وجل بشىء أفضل من فقه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولـكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء ، قال حدثنا سعيد بن حفص ، قال حدثنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا ريمة بنت أحمد بن محمد المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم ، قال أخبرنا الفربرى ، قال أخبرنا البخارى ، قال حدثنا ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن حميد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت معاوية خطيباً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « من يُرِد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى » .

قال الشيخ : إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب ، فأبصر الحق والباطل ، وتبين له الرشد من الغى .

ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) قال الأعرابى : حسبى حسبى ، فقال رسول الله ﷺ « فقه الرجل ».

وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه فى الدين .

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب ، فقال (لهم قلوب لايفقهون بها) فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا

اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين .

فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك ، فالنبي ﷺ لما قال : « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوى العلم ، وكان هادياً مهدياً ، وعلمه صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبي البشر ﷺ حيث علم الأسماء كلها ، والأسماء سمة الأشياء ، فكرمه الله تعالى بالعلم .

وقال تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) .

فآدم لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة ، والرأفة واللطف ، والحب والبغض ، والفرح والغم ، والرضا والغضب ، والكياسة . ثم اقتضاه استعمال كل ذلك ، وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له .

فالنبي ﷺ بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة .

وقيل : لما خاطب الله السموات والأرض بقوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء مايحاذيها .

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة .

فقال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد ﷺ ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض ، فصار رسول الله ﷺ هو الأصل فى التكوين ، والكائنات تبع له . وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وفى رواية « بين الروح والجسد » وقيل لذلك سمى أمياً ، لأن مكة أم القرى ، وذرته أم الخليقة وتربة الشخص مدفنه ، فكان يقتضى أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحى فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى مايحاذى تربته بالمدينة ، وكان رسول الله ﷺ مكياً مدنياً ، حنينه إلى مكة ، وتربته بالمدينة .

والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله ﷺ هو ما قال الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ورد فى الحديث أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر ، استخرج الذر من مسام شعر آدم ، فخرج الذر كخروج العرق .

وقيل : كان المسح من بعض الملائكة ، فأضاف الفعل إلى المسبب .

وقيل : معنى القول بأنه مسح أى أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة ، وكان ذلك ببطن نعمان ، واد بجنب عرفة بين مكة والطائف . فلما خاطب الذر وأجابوا ببلى كتب العهد فى ورق أبيض ، وأشهد عليه الملائكة ، وألقم الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله ﷺ هى المجيبة من الأرض ، والعلم والهدى فيه ممجونان ، فبعث بالعلم والهدى موروثاً له وموهوباً .

وقيل : لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله تعالى عزرائيل ، فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه ، فصار بعض الأرض بين قدميه ، وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس ، فصارت مأوى الشر ، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس ، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء وكانت ذرة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل ، لم يمسها قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار منزوع الجهل ، موفراً حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة فى أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالتعارف الأول ، فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة ، كان أوفر حظاً من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة ، فأخذت من العلم حظاً وافراً وصارت بواطنهم أخاذات ، فعلموا وعملوا ، كالأخاذ الذى يسقى منه ويزرع منه ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكام أساس التقوى .

ولما تزكت النفوس ، انجلت مرايا قلوبهم ، بما صقلها من التقوى ، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت

الآخرة بحسنها فطلبوها . فلما زهدوا فى الدنيا ، انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصباباً ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة .

واعلم أن كل حال شريف تعزوه إلى الصوفية فى هذا الكتاب ، هو حال المقرب ، والصوفى هو المقرب ، وليس فى القرآن اسم الصوفى، واسم الصوفى ترك ووضع للمقرب على ماسنشرح ذلك فى بابه . ولا يعرف فى طرفى بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هـذا الاسم لأهل القرب ، وإنما يعرف للمترسمين . وكم من الرجال المقربين فى بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر ولا يسمون صوفية ، لأنهم لايتزيون بزى الصوفية ، ولامشاحة فى الألفاظ فيعلم أنا نعنى بالصوفية المقربين .

فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا فى طريق المقربين ، وعلومهم علوم أحوال المقربين . ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف مالم يتحقق بحالهم فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً ، ومن عداهما ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو متشبه ، وفوق كل ذى علم عليم .

الباب الثانى

فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال أنا أبو منصور المقرى ، قال أنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب ، قال أنا أبو عمرو الهاشمى ، قال أنا أبو على اللؤلؤى ، قال أنا أبو داود السجستانى ، قال حدثنا مسدد ، قال حدثنا يحيى ، عن شعبة ، قال حدثنى عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد بن ثابت ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورُبَّ حامل فقه وليس بفقيه » .

أساس كل خير حسن الاستماع .

قال الله تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) .

يقول بعضهم : علامة الخير فى السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافه ونعوته ويسمعه بحق من حق .

وقال بعضهم : لو علمهم أهلا للسماع لفتح آذانهم للاستماع . فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لايقدر على حسن الاستماع .

فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم ، رأوا كل آية من كلامه تعالى بحراً من أبحر العلم ، بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه ، وجليه وخفيه ، وباباً من أبواب الجنة ، باعتبار ماتنبه أو تدعو إليه من العمل ، ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لاينطق به عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، من عند الله تعالى ، يتعين الاستماع إليه ، فكان من أهم ماعندهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت ، واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت ، ورأوا أن الوساوس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء ، وقتام يتراكم من نفث الشيطان ، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التى

هى مناط الهوى ومثار الردى ، بمثابة الحطب الذى تزداد النار به تأججاً ، ويزداد القلب به تحرجاً ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها ، وفترت نيرانها ، وقل دخانها ، شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم ، فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم ، فلما شهدوا سمعوا . قال الله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

قال الشبلى رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لايغفل عنه طرفة عين .

قال يحيى بن معاذ الرازى : القلب قلبان : قلب قد احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه مايصنع من شغل قلبه بالدنيا، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة، حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه مايصنع لذهاب قلبه فى الآخرة . فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة ، وشؤم هذه الأشغال الفانية التى أقعدتك عن الطاعة .

وقال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض .

قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لايخطر فيه إلا شهود الرب ، وأنشد :

أنعى إليك قلوباً طالما هطلت   سحائب الوحى فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بعين التعظيم ، فذاب له وانقطع إليه عما سواه .

وقال الواسطى : أى لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس ، لمن كان له قلب أى فى الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم (أو من كان ميتاً فأحييناه) .

وقال أيضاً : للمشاهدة تذهل ، والحجبة تفهم ، لأن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له وخشع .

وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام . وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين ، وهم أرباب التمكين ، يجمع لهم بين المشاهدة والفهم . فوضع الفهم محل المحادثة والمكالمة ، وهو سمع القلب ، وموضع المشاهدة بصر القلب . وللسمع حكمة وفائدة ، وللبصر حكمة وفائدة . فمن هو فى سكر الحال.

يغيب سمعه فى بصره ، ومن هو فى حال الصحو والتمكين لايغيب سمعه فى بصره ، لتملكه ناصية الحال ، ويفهم بالوعاء الوجودى المستمد المقال ، لأن الفهم لفهم مورد الإلهام والسماع ، والإلهام والسماع يستدعيان وعاء وجودياً ، وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانياً للتمكن فى مقام الصحو ، وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقار البقاء .

وقال ابن سمعون : إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وآداب القلب ، وهى ثلاثة أشياء : فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة ، فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب ، ومن افتقر إلى مالم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثى الأدب . والثالث امتلاء القلب بالذى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلا ، فقد وجد كل الأدب .

وقال محمد بن على الباقر : موت القلب من شهوات النفس ، فكلما رفض شهوة نال من الحياة بقسطها ، فالسماع للأحياء لا للأموات . قال الله تعالى (إنك لاتسمع الموتى) .

قال سهل بن عبد الله : القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة ، وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) فالقلب عمال لايفتر ، والنفس يقظانة لاترقد ، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى ، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس . فكل شىء سد باب الاستماع فمن حركة النفس ، وفى حركتها يطرق الشيطان . وقد ورد : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات .

وقال الحسين : بصائر المبصرين ، ومعارف العارفين ، ونور العلماء الربانيين ، وطرق السابقين الناجين ، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة ، فيسمع به ، بل يسمع منه ، ويشهد به ، بل يشهده ، فإذا

لاحظ القلب الحق بعين الجلال ، فزع وارتعد ، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر .

وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى ، والتفريد له ، حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس ، فلا يشتغل بغيره ، ولا يركن إلى سواه ، فقلب الصوفى مجرد عن الأكوان ، ألقى سمعه ، وشهد بصره ، فسمع المسموعات ، وأبصر المبصرات ، وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى ، واجتماعه بين يدى الله . والأشياء كلها عند الله ، وهو عنده ، فسمع وشاهد ، فأبصر وسمع جملها ، ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها ، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود . والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس فى الاستماع وقال : إن الباذر خرج ببذرة فملأ منه كفه ، فوقع منه شىء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ، ووقع منه شىء على الصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يسير وندى قليل فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم تجد مساغاً تنفذ فيه فيبس ، ووقع منه شىء فى أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شىء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح . فمثل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كمثل صواب الكلام ، ، ومثل ماوقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه ، فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضى الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه ، ومثل الذى وقع فى أرض طيبة فيها شوك ، مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوى أن يعمل به ، فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل ، فيترك مانوى عمله لغلبة الشهوة ، كالزرع يختنق بالشوك ، ومثل الذى وقع فى أرض طيبة مثل المستمع الذى ينوى عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه .

وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهدى هو الصوفى ، لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه ، واستلذاذ الهوى هو الذى يخنق النبت كالشوك ، وقلب الصوفى نازله حلاوة الحب الصافى ، والحب الصافى تعلق الروح بالحضرة الإلهيــة ، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعيــة الحب تستتبع القلب والنفس ، وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى ، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، لكونها لا ترتقى عن حد النفس ، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، لأنها متأصلة فى الروح ، فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة فى أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ يتشربها بالروح والقلب والنفس ، ويفديها بكليته ويقول :

أشم منك نسيما لست أعرفه ⁂ أظن لمياء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله ، وتصير كل شعرة منه سمعاً ، وكل ذرة منه بصراً ، فيسمع الكل بالكل ، ويبصر الكل بالكل ، ويقولون :

إن تأملتكم فكلى عيون ⁂ أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى : (فبشر عبادِ . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

قال بعضهم: اللب والعقل مائة جزء ، تسعة وتسعون فى النبى ﷺ وجزء فى سائر المؤمنين ، والجزء الذى فى سائر المؤمنين أحد وعشرون سهماً ، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعشرون جزءاً يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم .

قيل: فى هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله ﷺ ، أى الأحسن ما يأتى به ، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين ، ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ، ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات . ألا تراه ﷺ يقول « نحن الآخرون السابقون » يعنى الآخرون وجوداً ، السابقون فى الخطاب الأول فى الفضل فى محل القدس .

وقال تعالى : (يا أيهـــا الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

قال الجنيد : تنسموا روح ما دهام إليه ، فأسرعوا إلى محو العلائق الشغلة ، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر ، وتجرعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله فى المعاملة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، وسجنوا هممهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليهم ، فحيوا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال الواسطى رحمه الله تعالى : حيا بهـــا تصفيتها عن كل معلول لفظاً وفعلا .

وقال بعضهم : استجيبوا لله بسرائركم ، وللرسول بظواهركم ، فحياة النفوس بمتابعة الرسول ﷺ ، وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه : أولها إجابة التوحيد ، والثانى إجابة التحقيق ، والثالث إجابة التسليم ، والرابع إجابة التقريب . فالاستجابة على قدر السماع ، والسماع من حيث التفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قـــدر المعرفة والعلم بالمتكلم ، ووجوه الفهم لا تنحصر ، لأن وجوه الكلام لا تنحصر . قال الله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) فالله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلمات التى ينفد البحر دون نفادها ، فكل الكلام كلمة نظراً إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات نظراً لسعة العلم الأزلى .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أنبأنا الرئيس أبو على بن نبهان ، قال أنا الحسن بن شاذان ، قال أنا دعلج بن أحمد ، قال أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوى ، قال أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام ، قال حدثنا حجاج ، عن حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن ، يرفعه إلى النبى ﷺ قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ،

ولكل حد مطلع» قال فقلت يا أبا سعيد ما المطلع ؟ قال : يطلع قوم يعملون به . قال أبو عبيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله ابن مسعود ، قال أبو عبيد ، حدثنى حجاج ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : مامن حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أولها قوم سيعملون بها . فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه ، فيكون المطلع الفهم يفتح الله تعالى على كل قلب بما يرزق من النور .

واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن .

قال قوم : الظهر لفظ القرآن ، والبطن تأويله .

وقيل : الظهر صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم ، فظاهر ذلك إخبار عنهم ، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة .

وقيل : ظاهره تنزيله الذى يجب الإيمان به ، وباطنه وجوب العمل به .

وقيل : ظهره تلاوته كما أنزل . قال الله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) وبطنه التدبر والتفكر فيه . قال الله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

وقيل : قوله لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لايجاوز المصحف الذى هو الإمام ، وفى التفسير لا يجاوز المسموع المنقول .

وفرق بين التفسير والتأويل . فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التى نزلت فيها ، وهذا محظورعلى الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والأثر . وأما التأويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة . فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ماذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى .

قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة .

فما أعجب قول عبد الله بن مسعود : مامن آية إلا ولها قوم سيعملون بها .

وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصغى موارد الكلام ،

ويفهم دقيـق معانيـه وغامض أسراره من قلبه .

فالصوفى بكمال الزهد فى الدنيا ، وتجريد القلب عمـا سوى الله تعالى ، مطلع من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيـد ، وله بكل فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب . فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آنفاً إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القالب ، وأعمال القلوب لطفها وصداقتها مشاكلة للعلوم ، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية ، وتأدبات قلبية ، ومسامرات سرية ، وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم ، واطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد . ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية ، ولـكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود للمتـكلم بها ، لأنها مستودع وصف من أوصافه ، ونعت من نعوته ، فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مراءة منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولـكن لا يبصرون ، فيـكون لـكل آية مطلع من هـذا الوجه ، فالحد حد الـكلام ، والمطلع الترقى عن حد الـكلام إلى شهود المتـكلم .

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشياً عليه وهو فى الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتـكلم بها .

فالصوفى لما لاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعـالى ، صار بين يدى الله حاضراً شهيداً يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأنى أنا الله . فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار سمعه بصره ، وبصره سمعه ، وعلمه عمله ، وعمله علمه ، وعاد آخره أوله ، وأوله آخره . ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الذر بقوله

(ألست بربكم) فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لم تزل الذرات تتقلب فى الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام. قال الله تعالى (الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين) يعنى تقلب ذرتك فى أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء ، ثما زالت تنتقل الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب ، وتراكم ظلمتها بالتقلب فى الأطوار .

فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاستماع بأن يصيره صوفياً صافياً لا يزال يرقيه فى رتب التزكيـة والتحلية ، حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى فضاء القدرة ، ويزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة ، فيصير سماعه (ألست بربكم) كشفاً وعياناً ، وتوحيده وعرفانه تبياناً وبرهاناً ، وتندرج له ظلم الأطوار فى لوامع الأنوار .

قال بعضهم : أنا أذكر خطاب (ألست بربكم) إشارة منه إلى هذا الحال .

فإذا تحقق الصوفى بهذا الوصف ، صار وقته سرمداً ، وشهوده مؤبداً ، وسماعه متوالياً متجدداً ، يسمع كلام الله تعالى ، وكلام رسوله حق السماع .

قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجوانب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم والوعى . قال الله تعالى لنبيه عليه السلام (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به) هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام .

حسن الاستماع ، قيل معناه : لا تمله على الصحابة حتى تتدبر معانيه ، حتى تكون أنت أول من يخلص بغرائبه وعجائبه .

وقيل : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه جبرائيل عليه السلام وأوحى إليه لا يفتر من قراءة القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، أى لا تعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك .

وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله ﷺ بمعنى السماع .

ويحتاج للطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التى فيها نجاة من عذاب الآخرة أن يكون فى ذلك كله متأدباً بآداب حسن الاستماع ، لأنه نوع من ذلك .

وكما أن القلب استعد بحسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه فيكون آخذاً بالمطالعة من كل شىء أحسنه .

ومن الأدب فى للطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل فتستروح بالمطالعة كما تتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم . فليتفقد للتفطن نفسه فى ذلك ، ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته ، ويراعى الإفراط فيه ، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شىء من العلم لا يبادر إليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله ، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسناً ، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله ، زيادة على ما يتبين من صورة العلم ، فالعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم ، والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم . قال الله تعالى (إن الله يسمع من يشاء) .

فإن كان للسمع هو الله تعالى يسمع تارة بواسطة اللسان ، وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان ، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع ، ليتفقد العبد حاله فى ذلك ، ويتعلم علمه وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمله صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شىء ينفع سلوك الآخرة .

الباب الثالث

فى بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله ، قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفى ، قال أنا عبد الرحمن بن محمد ، قال أنا أبو محمد عبد الله ابن أحمد السرخسى ، قال أنا أبو عمران السمرقندى ، قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، قال حدثنا نعيم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم ، عن أبيه قال : سأل رجل النبي عليه السلام عن الشر فقال « لا تسألونى عن الشر وسلونى عن الخير ، يقولها ثلاثاً ، ثم قال : إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خيار العلماء » .

فالعلماء أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى فى خلقه وأطباء العباد ، وجهابذة الملة الحنيفية ، وحملة عظيم الأمانة . فهم أحق الخلق . بحقائق التقوى ، وأحوج العباد إلى الزهد فى الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم ، ففسادهم فساد متعد ، وصلاحهم صلاح متعد .

قال سفيان بن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم ، وأعلم الناس من علم بما يعلم ، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى .

وهذا قول صحيح ، يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعمله فليس بعالم ، فلا يغرك تشدقه واستطالته ، وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ، فإن العلم فى الإسلام لا يضيع أهله ، ويرجى عود العالم ببركة العلم .

والعلم فريضة وفضيلة ، فالفريضة مالابد للإنسان من معرفته ، ليقوم بواجب حق الدين. والفضيلة مازاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة فى النفس موافقة للكتاب والسنة . وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة ، وما هو مستفاد منهما ، أو معين على فهمهما ، أو مستند إليهما ، كائناً ما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يزداد الإنسان به هواناً ورذيلة فى الدنيا والآخرة .

فالعلم الذى هو فريضة لايسع الإنسان جهله ، على ماحدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب ، قال أنا الحافظ أبو القاسم المستملى ، قال أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، قال أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهانى ، قال أنا أبو سعيد بن الأعرابى ، قال حدثنا جعفر بن عامر العسكرى ، قال حدثنا الحسن بن عطية ، قال حدثنا أبو عاتكة ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

واختلف العلماء فى العلم الذى هو فريضة .

قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ، ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأمور به ، كما أن العمل مأمور به . قال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين) فالإخلاص مأمور به . وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مبانى الإخلاص المأمور به ، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً ، وما لايصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً .

وقال بعضهم : معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة ، لأن الخواطر هى أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه ، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، فلا يصح الفعل إلا بصحتها ، فصار علم ذلك فرضاً حتى يصح الفعل من التعبد لله .

وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت .

وقال سهل بن عبد الله : هو طلب علم الحال ، يعنى حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته .

وقيل : هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة . وقد ورد طلب الحلال فريضة بعد الفريضة ، فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة .

وقيل : هو طلب علم الباطن ، وهو مايزداد به العبد يقيناً . وهذا العلم هو الذى يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين ، والزهاد المقربين ، الذين جعلهم الله تعالى من جنوده ، يسوق الطالبين إليهم ، ويقويهم

بطريقهم ، ويرشدهم بهم ، فهم وارث علم النبي عليه السلام ، ومنهم يتعلم علم اليقين .

وقال بعضهم: هو علم البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، إذا أراد الدخول فى شىء من ذلك يجب عليه طلب علمه .

وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملا يجهل ما لله عليه فى ذلك ، فلا يجوز له أن يعمل برأيه ، إذ هو جاهل فيما له وعليه فى ذلك ، فيراجع عالمًا يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهـذا علم يجب طلبه حيث جهل .

وقال بعضهم : طلب علم التوحيـد فرض ، فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول إن طريقه النقل .

وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد فى الإسلام ، ولا يحيك فى صدره شىء فهو سالم ، فإن حاك فى صدره شىء أو توسوس بشىء يقدح فى العقيدة ، أو ابتلى بشبهة لاتؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ، ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسـلام ، لأنها افترضت على المسلمين ، وإذا كان عملها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً . وذكر أن علم التوحيد داخل فى ذلك ، لأن أولها الشهادتان ، والإخلاص داخل فى ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام . وعلم الإخلاص داخل فى صحـة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله ﷺ أنه فريضة على كل مسلم يقتضى أن لايسع مسلماً جهله ، وكل ماتقدم من الأقاويل أكثرها مايسع للمسلم جهله لأنه قد لايعلم عـلم الخواطر ، وعلم الحال ، وعلم الحلال بجميع وجوهـه ، وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء . ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله .

وميلى فى هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبى طالب أكثر ، وإلى قول من

قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمرى فرض على المسلم علمه ، وهكذا الذى قاله الشيخ أبو طالب .

وعندى فى ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض ، والله أعلم ، فأقول :

العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم ، علم الأمر والنهى ، والمأمور مايثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمنهى مايعاقب على فعله ويثاب على تركه . وللأموريات والمنهيات منها ماهو مستمر لازم تعبد بحكم الإسلام ، ومنها مايتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة ، فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام ، وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى فيه فعلمه عند تجدده فرض ، لايسع مسلماً على الإطلاق أن يجهله . وهذا الحد أعم من الوجوه التى سبقت والله أعلم .

ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا شمروا عن ساق الجد فى طلب العلم المفترض حتى عرفوه ، وأقاموا الأمر والنهى ، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا فى ذلك متابعين لرسول الله ﷺ حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) فتح الله عليهم أبواب العلوم التى سبق ذكرها .

قال بعضهم : من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية ، والأنوار البينة ، والآثار الصادقة ، بالتثبيت ببرهان عظيم ، كما قال تعالى (ولولا أن ثبتناك) ثم حفظ فى وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب ، وهو المزين بمقام القرب ، والمخاطب على بساط الأنس محمد ﷺ ، وبعد ذلك خوطب بقوله (فاستقم كما أمرت) ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التى أمر بها .

قيل لأبى حفص : أى الأعمال أفضل ؟

قال : الاستقامة ، لأن النبى ﷺ يقول « استقيموا ولن تحصوا » .

وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) أى افتقر إلى الله بصحة العزم .

ورأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ فى المنام قال : قلت يارسول الله

روى عنك أنك قلت شيبتني سورة هود وأخواتها ، فقال نعم ، قال فقلت له : ما الذى شيبك منها ، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال لا ، ولكن قوله (فاستقم كما أمرت) .

فكما أن النبى ﷺ بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب ، وطولب بحقائق الاستقامة ، فكذلك علمـــاء الآخرة الزاهدون ، ومشايخ الصوفية المقربون ، منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ، ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة ، ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو على الجوزجانى : كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة .

وهذا الذى ذكره أصل كبير فى الباب ، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب ، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين ، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات ، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب ، متهماً لنفسه فى صحة عمله ، حيث لم يكشف بشىء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه ، فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً . والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً ، فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا ، والخروج من دواعى الهوى . وقـــد يكون بعض عباده يكاشف بصرف اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجاب . ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات ، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشىء من ذلك ما ازداد يقيناً ، فلا تقتضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته ، فكأن هذا الثانى يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة ، فإن فيه آفة

وهـو العجب ، فأغنى عن رؤية شىء من ذلك .

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهى كل الكرامة . ثم إذا وقع فى طريقه شىء من ذلك جاز وحسن ، وإن لم يقع فلايبالى ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة . فليعلم هذا لأنه أصل كبير للطالبين . فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة ، رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا ، وزعموا أنهـا فرض ، فمن ذلك علم الحـال ، وعلم القيام ، وعلم الخواطر ، وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها فى باب إن شاء الله تعالى ، وعلم اليقين ، وعلم الإخلاص ، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها .

وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم ، وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ، ووجود دقائق الهوى ، وخفايا شهوات النفس وشرهها وشرهـا ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولا وفعلا ، ولبساً وخلعاً ، وأكلا ونوماً ، ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفى الذنوب ، ومعرفة سيئات هى حسنات الأبرار ، ومطالبة النفس بترك ما لا يعنى ، ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية ، ثم بحصر خواطر الفضول ، ثم علم المراقبة ، وعلم مايقدح فى المراقبة ، وعلم المحاسبة والرعاية ، وعلم حقائق التوكل ، وذنوب المتوكل فى توكله ، ومايقدح فى التوكل ومالا يقدح ، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان ، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا ، وعلم الزهـد وتحديده بما يلزم من ضرورته وما لا يقدح فى حقيقته ، ومعرفة الزهد فى الزهد ، ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد ، وعلم الإنابة والالتجاء ، ومعرفة أوقات الدعاء ، ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء ، وعلم المحبة ، والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة .

وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة ، كما أنكروا الرضا وقالوا : ليس إلا الصبر وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة

الذات وإلى محبة الصفات ، والفرق بين محبة القلب ، ومحبة الروح ، ومحبة العقل ، ومحبة النفس ، والفرق بين مقام المحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، ثم علوم للشاهدات ، كعلم الهيبة والأنس ، والقبض والبسط ، والفرق بين القبض والهم والبسط والنشاط ، وعلم الفناء والبقاء ، وتفاوت أحوال الفناء ، والاستتار والتجلى ، والجمع والفرق ، واللوامع والطوالع ، والبوادى والصحو والسكر ، إلى غير ذلك ، لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها فى مجلدات ، ولكن العمر قصير ، والوقت عزيز ، ولولا سهم الغفلة ، لضاق الوقت عن هذا القدر أيضاً .

وهذا المختصر المؤلف يحتوى من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لاحجة علينا . وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون ، وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون ، وهى علوم ذوقية لايكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان ، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لايحصل بالوصف ، فمن ذاقه عرفه .

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لايتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى ، وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس ، لجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة ، حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف ، وسهر الليل ، والصبر على الغربة والأسفار ، وتعذر الملاذ والشهوات .

وعلوم هؤلاء القوم لاتحصل مع محبة الدنيا ، ولاتنكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولاتدرس إلا فى مدرسة التقوى . قال الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) جعل العلم ميراث التقوى .

وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلاشك . فعلم فضل علم علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب ، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون فى الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بمـــاله لأعقل الناس يصرف إلى الزهاد ، لأنهم أعقل الخلق .

قال سهل بن عبد الله التستري : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا .

حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد بن عبد الباقي ، قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد ، قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى، قال حدثنا محمد بن أحمد بن محمد ، قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشى ، قال حدثنا أبو عقيل الوصافى ، قال أنا عبد الله الخواص ، وكان من أصحاب حاتم ، قال: دخلت مع أبى عبد الرحمن حاتم الأصم الرى ومعه ثلثمائة وعشرون رجلا يريدون الحج ، وعليهم الصوف والزرمانقات ، ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الرى على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين ، فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد قال لحاتم : ياأبا عبد الرحمن ألك حاجة فإنى أريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل ؟ فقال حاتم : إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة ، فأنا أيضاً أجىء معك . وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى ، فقال: مر بنا يا أبا عبد الرحمن .

فجاؤا إلى الباب فإذا باب مشرف حسن ، فبقى حاتم متفكراً يقول باب عالم على هذا الحال ؟ ثم أذن لهم فدخلوا ، فإذا دار قوراء ، وإذ بزة ومنعة وستور وجمع ، فبقى حاتم متفكراً ، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه ، وإذا بفرش وطيئة ، وإذا هو راقد عليها ، وعند رأسه غلام وبيده مذبة ، فقعد الرازى يسائله وحاتم قائم ، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد ، فقال لا أقعد، فقال له ابن مقاتل :لعل لك حاجة ؟ قال: نعم ، قال:وماهى؟قال: مسألة أسألك عنها، قال : سلنى ، قال: فقم فاستو جالساً حتى أسألكها ، فأمر غلمانه فأسندوه ، فقال له حاتم : علمك هذا من أين جئت به ؟ قال : الثقات حدثونى به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ . قال : وأصحاب رسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن رسول الله ﷺ . قال: رسول الله من أين جاء به ؟ قال: عن جبرائيل.

قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عن الله ، وأداه إلى رسول الله ، وأداه

رسول الله إلى أصحابه ، وأداه أصحابه إلى الثقات ، وأداه الثقات إليك ؟ هل سمعت فى العلم من كان فى داره أميراً ومنعته أكثر ، كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال: من زهد فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، وأحب المساكين ، وقدم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر .

قال حاتم : فأنت بمن اقتديت ، بالنبى وأصحابه والصالحين ، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه . وخرج من عنده .

فازداد ابن مقاتل مرضاً . فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن بقزوين عالم أكبر شأناً من هذا ، وأشاروا به إلى الطنافسى . قال فسار إليه معتمداً فدخل عليه ، فقال : رحمك الله أنا رجل أعجمى ، أحب أن تعلمنى أول مبتدى دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة ، قال نعم وكرامة ، يا غلام هات إناء فيه ماء ، فأتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هكذا فتوضأ ، فقعد فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً ، حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً ، فقال له الطنافسى : يا هذا أسرفت ، فقال له حاتم فيماذا ؟ قال: غسلت ذراعيك أربعاً ، قال حاتم : يا سبحان الله أنا فى كف ماء أسرفت وأنت فى هذا الجمع كله لم تسرف ؟ فعلم الطنافسى أنه أراده بذلك ولم يرد منه التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً .

وكتب تجار الرى وقزوين ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسى ، فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى ليس يكلمك أحد إلا وقطعته ، قال: معى ثلاث خصال بهن أظهر على خصمى ، قالوا : أى شىء هى ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه .

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أعقله . فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا؟ قال حاتم : يا أباعبدالله

لا تسلم من الدنيـا حتى يكون معك أربع خصال ، قال : أى شيء هى يا أبا عبد الرحمن؟ قال : تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم،وتبذل لهم شيئك، وتـكون من شيئهم آيساً ، فإذا كان هذا سلمت . ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ذكر بكلمة إنما ، فينتفى العلم عمن لايخشى الله ، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ينتفى دخول غير البغدادى الدار . فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى .

قال أبو يزيد رحمه الله يوماً لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه . قيل ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى فجاءتنى وحشة تلك الـكلمة فمنعتنى عن ذلك ، وأعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته . فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً فى العلم .

قال الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ، فانـكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الـكلام من الفهم وعجائب الخطاب ، فنطقوا بالحـكم .

وقال بعضهم : الراسخ من اطلع على محل المراد من الخطاب .

وقال الخراز : هم الذين كملوا فى جميع العلوم وعرفوها ، واطلعوا على همم الخلائق كلهم أجمعين .

وهذا القول من أبى سعيد لايعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعـالى (وفاكهة وأباً) وقال ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تـكلف .

ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من أبى بكر رضى الله تعالى عنه وإنما عنى بذلك أبو سعيد مايفسر أول كلامه بآخره وهو قوله : اطلعوا على همم الخلائق كلهم ، لأن للتقى حق التقوى ، والزاهد حق الزهادة فى الدنيا ،

صفا باطنه ، وانجلت مرآة قلبه ، ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فيعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم ، وفائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعليم والممارسة ، فلا يغنيه علمه الكلى أن يراجع فى الجزئى أهله الذين هم أوعيته. فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئى ، واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئى عن الكلى . ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لابد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله ، وانقطعوا إليه ، وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم . وأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم ، بعكوفها على العالم الأزلى ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذى يلى النفوس صارت أوعية وجودية ، تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم، وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ. والمعنى بالانفصال انتقاشها فى اللوح لاغير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف ، فحصلت العلوم لذلك ، وصار العالم الربانى راسخاً فى العلم .

أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة : يابنى إسرائيل لاتقولوا العلم فى السماء من ينزل به ، ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به ، العلم مجعول فى قلوبكم ، تأدبوا بين يدىّ بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلىّ بأخلاق الصديقين . نهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم .

فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضى جبلاتها ، وقمعها بصريح العلم فى كل قول وفعل ، ولايصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدى الله تعالى فيحتفظ بالحق للحق .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردى إجازة ، قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة، قال أنا أبو عمر محمد بن العباس ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال أنا عبد الله بن المبارك ، قال أنا

الأوزاعى ، عن حسان بن عطية ، بلغنى أن شداد بن أوس رضى الله عنه نزل منزلا فقال : ائتونا بالسفرة نعبث بها ، فأنكر منه ذلك ، فقال ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين .

مكتوب فى الإنجيل : لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم .

وقد ورد فى خبر عن رسول الله ﷺ «إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم» قلنا يارسول الله كيف يسوقنا بالعلم؟ قال« يقول اطلب العلم ولاتعمل حتى تعلم فلا يزال العبد فى العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وماعمل » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشيـــة .

وقال الحسن : إن الله تعالى لايعبأ بذى علم ورواية ، إنما يعبأ بذى فهم ودراية .

فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة . ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ، ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن . والمائية فى اللبن جسم قام به روح الدهنية ، والمائية بها القوام . قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شىء حى) .

وقال تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه) أى كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإسلام . فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول .

وللإسلام علوم وهى علوم مبانى الإسلام ، والإسلام بعد الإيمان ، نظراً إلى مجرد التصديق ، ولكن للإيمان فروع بعد التحقق بالإسلام ، وهى مراتب كعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فقد تقال للتوحيد ، والمعرفة ، والمشاهدة .

وللإيمان فى كل فرع من فروعه علوم ، فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب . ثم علوم القلوب لها وصف خاص ، ووصف عام . فالوصف العام علم اليقين ، وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ، ويشترك

فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة ، وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .

فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ، ولا يشملها بوصفه العام . فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان . وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان ، والمشاهدة وصف خاص فى اليقين ، وهو عين اليقين . وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين . فحق اليقين إذن فوق المشاهدة ، وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة ، وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله ، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان .

فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال ، كنسبة ماذكرناه من علم الوراثة والدراسة علمهم بمثابة اللبن ، لأنه اليقين والإيمان الذى هو الأساس .

وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن . ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم ، ووزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم .

وقد ورد فى الخبر « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى » .

والإشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء ، والطلاق والعتاق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين .

وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ، ذا يقين كامل ، وليس عنده علم من فروض الكفايات . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم التقوى والأحكام من بعضهم .

روى أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شىء يقول : سلوا سعيد بن المسيب .

وكان عبد الله بن عباس يقول : سلوا جابر بن عبد الله ، لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم .

وكان أنس بن مالك يقول : سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسينا.

فكانوا يردون الناس إليهم فى علم الفتوى والأحكام ، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادفتهم طراوة الوحى المنزل ، وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة مجمله ومفصله ، وطائفة مفصله دون مجمله . والمجمل أصل العلم، ومفصله المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد ، وهو خاص بالخواص . قال الله تعالى لنبيه ﷺ (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) . وقال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) .

فلهذه السبل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة ، فمنها نفوس مستعصية جامدة ، باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة ، موافقة للقلوب ، قريبة منها ، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه دعاه بالحكمة . فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهى الدعوة بذكر الجنة والنار. والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون ، وهى الدعوة بتلويح منح القرب ، وصفو المعرفة ، وإشارة التوحيد . فلما وجدوا التلويحات الحقانية ، والتعريفات الربانية ، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم ، فصارت متابعة الأقوال إجابتهم نفساً ، ومتابعة الأعمال إجابتهم قلباً ، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحاً . فإجابة الصوفية بالكل ، وإجابة غيرهم بالبعض .

قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صهيباً لو لم يخف الله لم يعصه . يعنى لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف من حق العظمة .

فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر ، وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة ، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها فى القيام بحقائق الاستقامة والعبودية .

قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى).

قال بعضهم : أعطى الدارين ولم يرشيئاً ، واتقى اللغو والسيئات ، وصدق بالحسنى : أقام على طلب الزلفى .

والآية قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ويلوح فى الآية وجه آخر: (أعطى) بالمواظبة على الأعمال ، (واتقى) الوساوس والهواجس ، (وصدق بالحسنى) لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود (فسنيسره لليسرى) نفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والأنس (وأما من بخل) بالأعمال (واستغنى) امتلأ بالأحوال (وكذب بالحسنى) لم يكن فى الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال (فسنيسره للعسرى) نسد عليه باب اليسر فى الأعمال .

قال بعضهم : إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل ، وفتح عليه باب الكسل .

فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً ، كان حظهم من العلم أوفر ، ونصيبهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل .

جاء رجل إلى معاذ قال : أخبرنى عن رجلين أحدهما مجتهد فى العبادة ، كثير العمل ، قليل الذنوب ، إلا أنه ضعيف اليقين ، يعتوره الشك . قال معاذ : ليحبطن شكه عمله . قال : فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين ، وهو فى ذلك كثير الذنوب . فسكت معاذ . فقال الرجل والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ بيده وقال : مارأيت الذى هو أفقه من هذا .

وفى وصية لقمان لابنه : يا بنى لايستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه . فكان اليقين أفضل العلم ، لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية ، وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم.

ثم إنى أصور مسألة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد ، العارف بصفات نفسه على غيره :

عالم دخل مجلساً وقعد ، وميز لنفسه مجلساً يجلس فيه ، كما فى نفسه من

اعتقاده فى نفسه لمحله وعلمه ، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه ، فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ، ولو أمكنه لبطش بالداخل . فهذا عارض عرض له ، ومرض اعتراه وهو لايفطن أن هذه علة غامضة ، ومرض يحتاج إلى المداواة ، ولايتفكر فى منشأ هذا المرض. ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها ، وجهلها لوجود كبرها ، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها .

فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر ، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر . فحيث انعصر صار فعلا به تكبر الزاهد لايميز نفسه بشىء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه فى مقام تميز يميزها بمجلس .

فالصوفى العالم مخصوص مميز ، ولو قدر له أن يبتلى بمثل هذه الواقعة ، وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه ، يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله ، فيرفع فى الحال داءه إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ، ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس ، ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثاً من النفس ، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس فى طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه ، وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار ، تكفيراً للذنب الموجود ، وتداوياً لدائه الحاصل . فتبين بهذا الفرق بين الرجلين .

فإذا اعتبر المعتبر ، وتفقد حال نفسه فى هذا المقام ، يرى نفسه كنفوس عوام الخلق ، وطالبى المناصب الدنيوية . فأى فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له .

ولو أكثرنا تصوير المسائل لتبرهن فضيلة الزاهدين ، ونقصان الراغبين ، لأورث الملال . وهذا من أوائل علوم الصوفية ، فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم . والله الموفق للصواب .

الباب الرابع

فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبدالوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى ، قال أنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى ، قال أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحى ، قال أنا أبوالعباس محمد بن أحمد المحبوبى ، قال أنا أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذى ، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصارى ، قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك رضى الله عنه: قال لى رسول الله ﷺ « يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال « يابنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة » .

وهذا أتم شرف وأكمل فضل ، أخبر به الرسول ﷺ فى حق من أحيا سنته .

فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة ، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم ، وبذلك ظهر جوهرهم ، وبان فضلهم ، وإنما قدروا على إحياء هذه السنة ، ونهضوا بواجب حقها لزهدهم فى الدنيا ، وتركها لأربابها وطلابها ، لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا ، ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس. والصوفية زهدوا فى ذلك كله ، كما قال بعضهم : طريقنا هذا لايصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل ، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس فى قلوبهم غش لأحد .

فقول القائل : كنست بأرواحهم المزابل، إشارة منه إلى غاية التواضع، وأن لا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه، وعند هذا ينسد باب الغش والغل .

وجرت هذه الحكاية ، فقال بعض الفقراء من أصحابنا :

وقع لى أن معنى كنست بأرواحهم المزابل أن الإشارة بالمزابل إلى

النفوس ، لأنها مأوى كل وجس ونجس كالمزبلة ، وكنسها بنور الروح الواصل إليها ، لأن الصوفية أرواحهم فى محال القرب ، ونورها يسرى إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ، ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فكأنها تكنس بنور الروح . وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) .

قال أبو حفص : كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته ، وأنست بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق ، فصارت إخواناً ، فالخلق حجا بهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله ﷺ قولا وفعلا وحالا صفات نفوسهم ، فإذا تبدلت نعوت النفس ، ارتفع الحجاب ، وصحت المتابعة ، ووقعت الموافقة فى كل شىء مع رسول الله ﷺ ، ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك .

قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

جعل متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه ، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه . فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى .

والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقواله ، فقاموا بما أمرهم ، ووقفوا عما نهاهم .

قال الله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

ثم اتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد فى العبادة ، والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه ، من الحياء والحلم ، والصفح والعفو ، والرأفة والشفقة ، والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطاً من أحواله ، من الخشية والسكينة ، والهيبة والتعظيم ، والرضا والصبر ، والزهد والتوكل ، فاستوفوا

جميع أقسام للتابعات ، وأحيوا سنته بأقصى الغايات .

قيل لعبد الواحد بن زيد : مَن الصوفية عندك ؟ قال : القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية .

وهذا وصف تام وصفهم به .

فكان رسول الله ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، اكلأنى كلاءة الوليد » .

ومن أشرف ماظفر به الصوفى من متابعة رسول الله ﷺ هذا الوصف ، وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء . ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة ، وأشرق صدره بنور اليقين ، وخلص قلبه إلى بساط القرب ، وخلا سره بلذاذة المسامرة ، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر ، وهى بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالماً ، وهى وشيكة الرجوع ، سريعة الانفلات والانقلاب . فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفى ، وكشفها له على شىء من معنى ما كشفه لرسول الله ﷺ ، فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطاً للعبد ، تسوقه لمعرفته بشرها ، مع اللحظات إلى جناب الالتجاء ، وصدق الافتقار والدعاء ، فلا يخلو الصوفى عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة ، وربط معرفتها بمعرفة الله تعالى ، فيما ورد : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار .

ومن الذى يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله ﷺ غير الصوفى العالم بالله ، الزاهد فى الدنيا ، المتمسك من التقوى بأوثق العرى .

ومن الذى يهتدى إلى فائدة هذه الحال غير الصوفى ، فدوام افتقاره إلى ربه تمسك بجناب الحق ولياذ به ، وفى هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء ، وفى انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة ، ونزوعها إليها

فى مدارج العلم ، محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته . والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة الغائلة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات . فهذا حال الصوفى .

ويجمع جل حال الصوفى شيآن هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) .

فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف ، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط تقدمة الإنابة . فالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد ، وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه ، ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوف اجتهاده ، وفى هذا أخذ بطائفة الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم، وبادرهم سطوع نور اليقين ، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم ، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل بهم من صفو العرفان تحمل وعيد فرعون ، فقالوا (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات)

قال جعفر الصادق رضى الله عنه : وجدوا أرواح العناية القديمة بهم ، فالتجأوا إلى السجود شكراً وقالوا (آمنا برب العالمين) .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل إجازة ، قال أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال أنا عبد الرحمن السلمى ، قال سمعت منصوراً يقول ، سمعت أبا موسى الزقاق يقول ، سمعت أبا سعيد الخراز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون،اجتباهم مولاهم ، وأكمل لهم النعمة ، وهيأ لهم الكرامة، فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر ، والتنعم بمناجاته ، والانفراد بقربه .

وبهذا الإسناد إلى أبى عبد الرحمن السلمى قال ، سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصى يقول : سمعت فاطمة المعروفة بجويرية تلميذة أبى سعيد تقول : سمعت الخراز يقول : المراد محمول فى حاله ، معان على حركاته ، وسعيه فى الخدمة ، مكفى مصون عن الشواهد والنواظر .

وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ، ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد رأوا جمعاً من المشايخ قلّت نوافلهم ، فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض ، كانت بداياتهم بدايات المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال ، وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد ، امتلؤا بالحال ، فطرحوا نوافل الأعمال . فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم . وهذا أتم وأكمل من الأول .

فهذا الذى أوضحناه أحد طريقى الصوفية .

فأما الطريق الآخر ، طريق المريدين ، وهم الذين شرطوا لهم الإنابة فقال الله تعالى (ويهدى إليه من ينيب) فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف

قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) يدرجهم الله تعالى فى مدارج الكسب ، بأنواع الرياضات والمجاهدات ، وسهر الدياجر وظمأ الهواجر ، تتأجج فيهم نيران الطلب ، وتتحجب دونهم لوامع الإرب ، يتقلبون فى رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهى الإنابة التى شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم ، وجعل الهداية مقرونة بها . وهذه الهداية آنفاً هداية خاصة ، لأنها هداية إليه غير الهداية العامة ، التى هى الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة ، فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، تخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال ، فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى قال : أنا أبو الفضل أحمد ابن أحمد ، قال : أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال : حدثنا محمد بن الحسين ابن موسى ، قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل

والقال ، ولكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات .

فقال محمد بن خفيف : الإرادة سمو القلب لطلب المراد ، وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أبو عثمان : المريد الذى مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ويريد قربه ويشتاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه .

وقال أيضاً : عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها .

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية .

ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف :

أحدهما : مجذوب أبقى على جذبته مارد إلى الاجتهاد بعد الكشف .

والثانى : مجتهد متعبد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد .

وللصوفية فى طريقهما باب مزيدهم ، وصحة طريقهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال: أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار ، قال : أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف ، قال : أنا أبو عبد الرحمن ، قال : سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت قسيا غلام الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد السكرى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وكان يقول : الجنيد رحمه الله علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ .

وقال بعضهم : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة .

حكى أن أبا يزيد البسطامى رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ، وكان الرجل فى ناحيته مقصوداً ومشهوراً بالزهد والعبادة ، فمضينا إليه ، فلما خرج من

بيته يقصد المسجد رمى بزاقه نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا ، فانصرف ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .

وسأل خادم الشبلى رحمه الله ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال : لما أمسك لسانه ، وعرق جبينه أشار إلىّ أن وضئنى للصلاة ، فوضأته ، فنسيت تخليل لحيته ، فقبض على يدى وأدخل أصابعى فى لحيته يخللها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل .

هذا حال الصوفية وطريقهم . وكل من يدّعى حالا على غير هـذا الوجه فمدّع مفتون كذاب .

الباب الخامس

فى ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل فى كتابه قال : أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة ، قال : أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : أنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء ، قال : حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادى ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا عمر بن أسد ، عن مالك بن أنس ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ « لكل شىء مفتاح ، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصُّبَّر هم جلساء الله يوم القيامة » .

فالفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه ، وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد وقد سئل عن التصوف فقال : أن تكون مع الله بلاعلاقة .

وقال معروف الكرخى : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : أن لا يستغنى بشىء دون الحق .

وقال أبو الحسين النورى : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذر أن يدخل عليه الغنى فيفسد فقره ، كما أن الغنى يحترز من الفقير حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن ، قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازى يقول : سمعت مظفراً القرميسنى يقول : الفقير الذى لا يكون له إلى الله حاجة .

قال : وسمعته يقول : سألت أبا بكر المصرى عن الفقير ، فقال : الذى لا يَملك ولا يُملك .

قوله : لا يكون له إلى الله حاجة ، معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته ، تام الثقة بربه ، عالم بحسن كلاءته به ، لا يحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال فى البين زيادة .

وأقوال المشايخ تتنوع معانيها ، لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال فى أوقات دون أوقات ، ونحتاج فى تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء فى معنى التصوف ذكر مثلها فى معنى الفقر ، وتذكر أشياء فى معنى الفقر ذكر مثلها فى معنى التصوف

وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ، فقد تشابه الإشارات فى الفقر بمعانى الزهد تارة ، وبمعانى التصوف تارة ، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض ، فنقول :

التصوف غير الفقر ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد .

فالتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد ، مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب . فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول .

وقال أيضاً : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، لأن النبى ﷺ قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضى الدين أحمد بن إسماعيل إجازة ، قال : أنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم ، قال : أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال : الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج عن كل خلق دنى .

فإذا عرف هذا المعنى فى التصوف ، من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته ، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر .

وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف . وأهل الشام لايفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون قال الله تعالى (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) هذا وصف الصوفية ، والله تعالى سماهم فقراء .

وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر تقول : الفقير فى فقره متمسك به ، متحقق بفضله ، يؤثره على الغنى ، متطلع إلى ماتحقق من العوض عند الله ، حيث يقول رسول الله ﷺ « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام » .

فكلما لاحظ العوض الباقى ، أمسك عن الحاصل الفانى ، وعانق الفقر والقلة ، وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض ، وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك الإجهاد ، والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته .

وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ، ويدخله عليه ، ويعلم الإذن من الله تعالى ، فى الدخول فى الشىء ، وقد يدخل فى صورة سعة مباينة للفقر بإذن من الله تعالى ، ويرى الفضيلة حينئذ فى السعة لمكان الإذن من الله فيه ، ولا يفسح فى السعة والدخول فيها الصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفى هـــذا مزلة للأقدام ، وباب دعوى للمدعين . وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه ، على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر ، لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر .

قال الجنيد رحمة الله عليه : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائماً فى الأشياء بالله لا بنفسه . والفقير والزاهد مكونان فى الأشياء بنفسهما ، واقفان مع إرادتهما ، مجتهدان مبلغ علمهما . والصوفى متهم لنفسه ، مستقل لعلمه ، غير راكن إلى معلومه ، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه .

قال ذو النون المصرى رحمة الله عليه : الصوفى من لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سلب .

وقال أيضاً : الصوفية آثروا الله تعالى على كل شىء ، فآثرهم الله على كل شىء . فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : من أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجهاً من المعاذير ، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستعظم الترك ، ويستقبح الأخذ ، وهكذا الفقير ، وذلك لضيق علمهم ، ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفى من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين ، بل يختاران من الأخلاق أيضاً ماهو أدعى إلى الترك ، والخروج عن شواغل الدنيا ، حاكمان فى ذلك بعلمهما ، والصوفى هو المستبين الأحسن من عند الله ، بصدق التجائه ، وحسن إنابته ، وحظ قربه ، ولطيف الوجه ، وخروجه إلى الله تعالى ، لعلمه بربه ، وحظه من محادثته ومكالمته .

قال رويم : التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكى : التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى الوقت .

وقال بعضهم : التصوف أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة من الله تعالى .

وقيل : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

وقيل : التصوف ترك التكلف ، وبذل الروح .

وقال سهل بن عبد الله : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول فى الشريعة .

قال ذو النون المصرى : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فقلت : وأين تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقلت : صفيهم لى ، فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل فى بلد
إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية ... فى الشوامخ تلقاهم مع العدد

قال الجنيد : الصوفى كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح .

وقال أيضاً : هو كالأرض ، يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب ، يظل كل شىء ، وكالقطر يسقى كل شىء .

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول ، ويطول نقلها ،

ونذكر ضابطاً يجمع جمل معانيها ، فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى.
فنقول :

الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وفر منها إلى ربه. فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . قال الله تعالى (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف .

قال بعضهم : التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف .
والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها ، وانقلاب على عقبها ، ولا بد للصوفى من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار ، وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس . ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المتفرق فى الإشارات .

الباب السادس

فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، قال : أخبرنى والدى ، قال : أنا أبو على الشافعى بمكة حرسها الله تعالى ، قال : أنا أحمد بن إبراهيم قال : أنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أنا أبو عبد الله المخزومى ، قال : حدثنا سفيان ، عن مسلم ، عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف .

فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية ، نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام » .

وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف .

ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقال : كانوا يخرون من الجوع تحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف ، حتى إن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث .

وقال بعضهم : إنه ليؤذينى ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم ؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك .

فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسد الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم ، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة .

وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، لأنه يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص .

ولما كان حالهم بين سير وطير ، لتقلبهم فى الأحوال ، وارتقائهم من حال إلى أعلى منه ، لايقيدهم وصف ، ولا يحبسهم نعت ، وأبواب المزيد علماً وحالا عليهم مفتوحة ، بواطنهم معدن الحقائق ، ومجمع العلوم .

فلما تعذر تقلدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم ، وتجنس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين فى الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ، لأن لبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم .
وأيضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره .

ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب، يعز كشفه والإشارة إليه ، وقعت الإشارة إلى زيهم ستراً لحالهم ، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب إلى الأدب ، والأدب فى الظاهر والباطن ، والقول والفعل ، عماد أمر الصوفية .

وفيه معنى آخر ، وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبىء عن تقللهم من الدنيا ، وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم ، حتى إن المبتدى المريد الذى يؤثر طريقهم ، ويحب الدخول فى أمرهم ، يوطن نفسه على التقشف والتقلل ، ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس ، فيدخل فى طريقهم على بصيرة . وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدى ، والإشارة إلى شىء من حالهم فى تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات ، فكأن تسميتهم بهذا أنفع وأولى .

وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى .

وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم .

وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى . فالقول

بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع .

ويقرب أن يقال : لما آثروا الذبول والخمول ، والتواضع والانكسار ، والتخفي والتواري ، كانوا كالخرقة الملقاة ، والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها ، ولا يلتفت إليها ، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة ، كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة . وهذا ماذكره بعض أهل العلم . والمعنى المقصود به قريب ، ويلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد ، والمتقشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر ، عن أبيه قال : أنا عبد الرازق بن عبد الكريم ، قال : أنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال : حدثنا أبو على إسماعيل بن محمد ، قال : حدثنا الحسن بن عرفة ، قال : حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد بن الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف ، وسراويل صوف ، وكساء صوف ، وكمه من صوف ، ونعلاه من جلد حمار غير مذكى » .

وقيل : سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم ، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقيل : كان هذا الاسم فى الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفياً .

وقيل : سموا صوفية نسبة إلى الصفة التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ الذين قال تعالى فيهم (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض) الآية . وهذا إن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوى ، ولكن صحيح من حيث المعنى ، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك ، لكونهم مجتمعين متألفين ، متصاحبين لله وفى الله ، كأصحاب الصفة ، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل ، لم تكن لهم مساكن بالمدينة ، ولا عشائر ، جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً فى الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن

وتلاوته ، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم ، ويحث الناس على مواساتهم ، ويجلس معهم ، ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) وكان من أهل الصفة فعوتب النبي ﷺ لأجله . وكان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لاينزع يده من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة ، يبعث مع واحد ثلاثة ، ومع الآخر أربعة .

وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته .

وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يارسول الله أحرق بطوننا التمر ، فسمع بذلك رسول الله ﷺ ، فصعد المنبر ثم قال « مابال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة ، وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به ، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز ، وليس لهم إلا الأسودان : الماء والتمر » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال : أنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثي قال : أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا محمد بن سعيد الأنماطي قال : حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام قال حدثنا محمد بن علي الترمذي قال : حدثني سعيد بن حاتم البلخي قال : حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : وقف رسول الله ﷺ يوماً على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال :

« أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضياً بما هو فيه فإنه من رفقائى يوم القيامة » .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ، ولا يسكنون القرى والمدن ، يسمونهم فى خراسان شكفتية ، لأن شكفت اسم الغار ، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر .

وأهل الشام يسمونهم جوعية .

والله تعالى ذكر فى القرآن طوائف الخير والصلاح ، فسمى قوماً أبراراً ، وآخرين مقربين . ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون والمحبون ، واسم الصوفى مشتمل على جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة .

وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ . وقيل كان فى زمن التابعين .

ونقل عن الحسن البصرى رحمة الله عليه أنه قال : رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : معى أربع دوانيق ، يكفينى مامعى .

ويسند هذا ماروى عن سفيان أنه قال : لولا أبوهاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً .

وقيل : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية ، لأن فى زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابياً ، لشرف صحبة رسول الله ﷺ ، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة . وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمى تابعياً .

ثم لما تقادم زمان الرسالة ، وبعُد عهد النبوة ، وانقطع الوحى السماوى ، وتوارى النور المصطفوى ، واختلفت الآراء ، وتنوعت الأنحاء ، وتفرد كل ذى رأى رأيه ، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات ، وكثف حجابها ، وكثرت العادات ، وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا ، وكثر خطابها ، تفرد طائفة بأعمال صالحة ، وأحوال سنية ، وصدق فى العزيمة ، وقوة فى الدين ، وزهدوا فى الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون

فيها تارة ، وينفردون أخرى ، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب، متبتلين إلى رب الأرباب ، فأثمر لهم صالح الأعمـال سنى الأحوال ، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة : أصبحت مؤمناً حقاً ، حيث كوشف برتبة فى الإيمـان غير مايتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونهـا ، وإشارات يتعاهدونها ، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها ، وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسماً مستمراً ، وخبراً مستقراً فى كل عصر وزمان ، فظهر هـذا الاسم بينهم ،وتسموا به وسموا به . فالاسم سمتهم ، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليتهم ، والتقوى شعارهم ، وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل،وأصحاب الفضائل ، سكان قباب الغيرة ، وقطان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد . اللهم احشرنا فى زمرتهم ، وارزقنا حالاتهم . والله أعلم .

الباب السابع

فى ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجازة قال : أنا الشيخ أبو منصور بن خيرون قال : أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال : أنا محمد بن العباس بن زكريا قال : أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهانى قال : حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال : أنا عبد الله ابن المبارك قال : أنا المعتمر بن سليمان قال : أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يارسول الله متى قيام الساعة؟ فقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال «أين السائل عن الساعة ؟ فقال الرجل : أنا يارسول الله ، قال : « ما أعددت لها ؟ » قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، أو قال : ما أعددت لها كبير عمل ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : «للمرء مع من أحب ، أو أنت مع من أحببت » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بهذا .

فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته.

وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه فى المعنى .

روى عبادة بن الصامت عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يارسول الله : الرجل يحب القوم ولايستطيع أن يعمل كعملهم ، قال « أنت يا أبا ذر مع من أحببت . قال : قلت فإنى أحب الله ورسوله . قال : فإنك مع من أحببت » قال : فأعادها أبو ذر ، فأعادها رسول الله ﷺ .

فمحبة المتشبه إياهم لاتكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية ، لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه ، ومن يقرب منه تكون بجاذب الروح ، غير أن المتشبه تعوق بظلمة النفس ، والصوفى تخلص من ذلك . والمتصوف متطلع إلى حال الصوفى ، وهو مشارك ببقاء شىء من صفات نفسه عليه

للمتشبه ، وطريق الصوفية أوله إيمان ، ثم علم ، ثم ذوق . فالمتشبه صاحب إيمان ، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير .

قال الجنيد رحمة الله عليه : الإيمان بطريقتنا هذا ولاية .

ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة ، وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ، لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم ، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة .

وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ، ولهم علوم من هذا القبيل ، فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته . فالمتشبه صاحب إيمان ، والمتصوف صاحب علم ، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم ، وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها . والصوفى صاحب ذوق ، فالمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفى ، وللمتشبه نصيب من حال المتصوف ، وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لابد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون فى الحال الأول صاحب ذوق ، وفى الحال الذى كوشف به صاحب علم ، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان ، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون فى حال الذوق صاحب قدم ، وفى حال العلم صاحب نظر ، وفى حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال الله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون) وصف الأبرار ووصف شرابهم . ثم قال سبحانه وتعالى (ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقربون) فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفاً .

فللصوفى شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج فى شرابه ، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف . فالصوفى سبق إلى مقار الروح من بساط القرب ، والمتصوف بالنسبة إلى الصوفى كالمتزهد بالنسبة إلى الزاهد ، لأنه تفعل وتعمل وتسبب ، إشارة إلى ما بقى عليه من وصفه ، فهو مجتهد فى طريقه ، سائر إلى ربه .

قال رسول الله ﷺ « سيروا سبق المفردون . قيل : من المفردون يارسول الله ؟ قال : المستهترون بذكر الله ، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً » .

فالصوفى فى مقام المفردين، والمتصوف فى مقام السائرين، واصل فى سيره إلى مقار القلب من ذكر الله عز وجل ، ومراقبته بقلبه ، وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه .

فالصوفى فى مقار الروح صاحب مشاهدة ، والمتصوف فى مقار القلب صاحب مراقبة . والمتشبه فى مقاومة النفس ، صاحب مجاهدة ، وصاحب محاسبة . فتلوين الصوفى بوجود قلبه ، وتلوين المتصوف بوجود نفسه ، والمتشبه لاتلوين له ، لأن التلوين لأرباب الأحوال ، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال ، والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء . قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) .

قال بعضهم : الظالم الزاهد ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .

وقال بعضهم : الظالم الذى يجزع من البلاء ، والمقتصد الذى يصبر عند البلاء ، والسابق الذى يتلذذ بالبلاء .

وقال بعضهم : الظالم يعبد على الغفلة والعادة ، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة ، والسابق يعبد على الهيبة والمنة .

وقال بعضهم : الظالم يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لاينسى ربه .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى رحمه الله : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال .

وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفى والمتصوف والمتشبه ، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح ، تجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصيص بالمنح والعطاء .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال أنا أبو سعد محمد بن أبى العباس : قال أنا القاضى محمد بن سعيد قال : أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال : أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال : حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة قال : حدثنا يوسف بن عاصم الرازى قال : حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود قال : حدثنا حصين بن نمير ، عن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) « كلهم فى الجنة » .

قال ابن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق هو الذى أسقط مراده بمراد الله فيه .

وهذا هو حال الصوفى . فالمتشبه تعرض لشىء من أمر القوم ، ويوجب له ذلك القرب منهم . والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالى ونحن بإصبهان يريد منه الخرقة ، فقال له الشيخ : اذهب إلى فلان — يشير إلىّ — حتى يكلمك فى معنى الخرقة ، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة . قال فجاء إلىّ فذكرت له حقوق الخرقة ، وما يجب من رعاية حقها ، وآداب من يلبسها ، ومن يؤهل للبسها ، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولى له ، فاستحضرنى وعاتبنى على قولى له ذلك ، وقال : بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته فى الخرقة ، فكلمته بما فترت عزيمته . ثم الذى ذكرته كله صحيح وهو الذى يجب من حقوق الخرقة ، ولكن إذا ألزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به ، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم ، فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطته معهم ، ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم « يحب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شىء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالى ما أخبرنا شيخنا رحمه الله. قال : أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال : أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال : أنا الشيخ عبد الرحمن السلمى قال : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفراً يقول : سمعت أبا القاسم الجنيد يقول : إذ لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه .

ويرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدى الطالب ، وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علماً كان أكثر رفقاً بالمبتدى الطالب .

حكى عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ، ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدى إليه ، والتأدب بأدبه ، والاقتداء به فى عمله . وهذا هو الرفق الذى مادخل فى شىء إلا زانه .

فالمتشبه الحقيقى له إعاز بطريق القوم، وعمل بمقتضاه ، وسلوك واجتهاد على ماذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفاً صاحب مراقبة، ثم يصير صوفياً صاحب مشاهدة . فأما من لم يتطلع إلى حال المتصوف والصوفى بالتشبه ولايقصد أوائل مقاصدهم ، بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة فى الزى والصورة، دون السيرة والصفة، فليس بمتشبه بالصوفية ، لأنه غير محاك لهم بالدخول فى بداياتهم ، فإذن هو متشبه بالتشبه ، يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه ، ومع ذلك هم القوم لايشقى بهم جليسهم ، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان قال : أنا أبو الفضل حميد قال : أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى قال : أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال : حدثنا عمر بن أحمد بن أبى عاصم قال : حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعى قال : حدثنا على بن أحمد قال : حدثنا على بن على المقدسى قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن طاهر قال : حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال : حدثنا فضيل بن عياض ، عن سليمان الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق ويتتبعون مجالس الذكر فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا

هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله — وهو أعلم — مايقول عبادى ؟ قالوا : يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك، فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ قالوا : لو رأوك كانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، فيقول : مايسألونني؟ قالوا : يسألونك الجنة فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا: لو رأوها كانوا أشد لها طلباً وعليها أكثر حرصاً قالوا : ويتعوذون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول: كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد منها تعوذاً ، وأشد فراراً ، فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم : فيقول الملك : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى : هم الجلساء لايشقى جليسهم » .

فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم .

الباب الثامن

فى ذكر الملامتى وشرح حاله

قال بعضهم : الملامتى هو الذى لايظهر خيراً ولايضمر شراً . وشرح هذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل المقدسى إجازة قال : أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة قال : أنا الشيخ أبوعبدالرحمن السلمى قال : سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سمعت على بن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن على الجهمى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ماهو ؟ قال : « سألت جبرائيل عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ، يرون كتم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكتمها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته .

فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه ، وتمسك به معتداً به . والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه .

قال أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص ، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء الذم والمدح من

العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال : أنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص ما يجرى عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص .

وهذا الذى فصله الشيخ أبو عثمان المغربى يفرق بين الصوفى والملامتى ، لأن الملامتى أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولكن أثبت نفسه ، فهو مخلص ، والصوفى أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره ، فهو مخلص ، وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص .

قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلَصاً لا مخلِصاً .

قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

ومعنى قوله إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزه عن الرياء الذى يبطل العمل ، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله يطلع كامل عنده فيه لجذب مريد ، أو معاناة خلق من أخلاق النفس فى إظهاره الحال والعمل ، وللعارفين فى ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء ، إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رويم : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضاً فى الدارين ، ولا حظاً من الملكين .

وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق والملامتى يرى الخلق فيخفى عمله وحاله .

وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفى .

ولهذا قال الرقاق : لابد لكل مخلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتى به على التمام.

قال جعفر الخالدي: سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله قلت: أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال : بينهما فرق ، لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل ، ثم قال : إنما هو إخلاص ، ومخالصة الإخلاص ، وخالصة كائنة فى المخالصة .

فلعل هـــذا الإخلاص حال الملامتى ومخالصة الإخلاص حال الصوفى ، والخالصة الكائنة فى المخالصــة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه ، بل غيبته عن رؤية قيامه ، وهو الاستغراق فى العين عن الآثار ، والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفى . والملامتى مقيم فى أوطان إخلاصه ، غير متطلع إلى حقيقــة إخلاصه . وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفى .

ولم يزل فى خراسان منهم طائفة ، ولهم مشايخ يمهدون أساسهم ، ويعرفونهم شروط حالهم . وقد رأينا فى العراق من يسلك هذا المسلك ، ولــكن لم يشتهر بهذا الاسم ، وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملامتيــة استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأنى إن حضرت يظهر علىّ وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالى .

وقيل : إن أحمـد بن أبى الحوارى قال لأبى سليمان الدارانى : إنى إذا كنت فى الخلوة أجد لمعاملتى لذة لا أجـدها بين الناس ، فقال له : إنك إذاً لضعيف .

فالملامتى وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص ، مستفرشاً بساط الصدق ، ولــكن بقى عليه بقيــة رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق . والصوفى صفا من هذه البقيــة فى طرفى العمل والترك للخلق ، وعزلهم بالــكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيـد ، وعاين سر قوله (كل شىء هالك إلا وجهه) كما قال بعضهم فى بعض غلباته : ليس فى الدارين غير الله .

وقد يكون إخفاء الملامتي الحال على وجهين : أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره ، بنوع غيره ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ فى صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه . وهذا وإن علا ففى طريق الصوفى علة ونقص . فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى .

وقيل : إن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر ، وذكر بالروح ، فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبة . وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر ، أقبل اللسان على الذكر ، وذلك ذكر العادة . ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة . فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه ، أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات . وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك .

وسر هذا الأصل الذى بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات ، وذكر النفس متعرض للعلات .

فمعنى قولهم : اطلاع السر على الروح ، يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات . وذكر الهيبة فى ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة ، ووجود الهيبة يستدعى وجوداً وبقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب . وذكر القلب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم ، والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس نظراً إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل ، وذلك عين الاعتدال حقيقة .

وهذه أقسام هذه الطائفة ، وبعضها أعلى من بعض . والله أعلم

الباب التاسع

فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة ، وملامتية أخرى ، وقد ذكرنا حال الملامتي ، وأنه حال شريف ، ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء .

فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ، فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولايترسمون برسوم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ماهم عليه من طيبة القلوب .

والفرق بين الملامتى والقلندرى ، أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات. والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكن يخفى الأعمال والأحوال ، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه وحركاته وأموره ، ستراً للحال لئلا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد، باذل مجهوده فى كل مايتقرب به العبيد . والقلندرى لايتقيد بهيئة، ولايبالى بما يعرف من حاله وما لايعرف، ولاينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله . والصوفى يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ماينبغى أن يستر ، ويظهر ماينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص .

فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ، ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وماهم من الصوفية بشيء ، بل هم فى غرور وغلط ، يتسترون

بلبسة الصوفيـة توقيتاً تارة ، وينتهجون مناهـج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام برامم الشريعة رتبـة العوام ، والقاصرين الأفهام ، المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليداً ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد ، فكل حقيقة ردتها الشريعـة فهى زندقة ، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيـد بحقوق العبودية ، وحقيقة العبودية ، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ، ويخامر باطنه الزيغ والتحريف .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أنا أبو محمد الخطيب ، ثنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال : ثنا أبو بكر بن أبى دواد قال : ثنا أحمد بن صالح قال : ثنا عنبسة قال : ثنا يونس بن يزيد قال : قال محمد يعنى الزهرى : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن ، أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله ﷺ ، وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالـكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ، الله تعالى يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة . وعنه أيضاً رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن .

فإذا رأينا متهاوناً بحدود الشرع ، مهملا للصلوات المفروضات ، لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل فى المداخل المـكروهة المحرمة نرده ولا نقبله ، ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة ، عن عمر بن أحمد ، عن ابن خلف ، عن السلمى قال : سمعت أبا بكر الرازى ، سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها ، وإنها لآكد فى معرفتى وأقوى لحالى .

ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول ، ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل فى أجسام يصطفيها ، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى فى اللاهوت والناسوت .

ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات ، إشارة إلى هذا الوهم ، ويتخايل له أن من قال كلمات فى بعض غلباته كان مضمر الشىء مما زعموه ، مثل قول الحلاج : أنا الحق ، وما يحكى عن أبى يزيد من قوله : سبحانى . حاشا أن نعتقد فى أبى يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى . وهكذا ينبغى أن يعتقد فى قول الحلاج ذلك . ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمر الشىء من الحلول رددناه كما نردهم .

وقد أتانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية ، يستقيم بها كل معوج ، وقد دلتنا عقولنا على مايجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز . والله تعالى منزه أن يحل به شىء أو يحل بشىء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية ، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه ، فيتألف له فى فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى ، وأنها مكالمة الله تعالى إياه ، مثل أن يقول قال لى وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها ، جاهل بربه وبكيفية المكالمة والمحادثة ، وإما عالم ببطلان مايقول يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشىء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاماً

يسمعونه ، بل كحديث فى النفس يجدونه برؤية موافقاً للكتاب والسنة ، مفهوماً عند أهله ، موافقاً للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ، ولمولاهم الربوبية ، فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله ، وإنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم .

فطريق الأصحاء فى ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به ، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى ألهموا فى بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث ، لا نسبة الكلام إلى المتكلم ، لينصانوا عن الزيغ والتحريف .

ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون فى بحار التوحيد ولا يثبتون ويسقطون لنفوسهم حركة وفعلا ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء ، وأن لا فعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون فى المعاصى ، وكل ما تدعو النفس إليه ، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة ، والاغترار بالله ، والخروج من الملة ، وترك الحدود والأحكام ، والحلال والحرام .

وقد سئل سهل عن رجل يقول : أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما صديق أو زنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية . والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله ، وإسقاطاً للائمة عن نفسه ، وانخلاعاً عن الدين ورسمه . فأما من كان معتقداً للحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، معترفاً بالمعصية إذا صدرت منه ، معتقداً وجوب التوبة منها ، فهو سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ، ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد فى البلاد ، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات ، غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذبه ، ويبصره بعيب ما هو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر

فى شرح رتبة المشيخة

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » .

وهذا الذى ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة للشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد الله إلى الله . ورتبة للشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ، ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله .

فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ . ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى . قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد ، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ، ورؤية الكمال الأزلى ، فأحب العبد ربه لا محالة ، وذلك ميراث التزكية . قال الله تعالى (قد أفلح من زكاها) وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى .

وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين ، وحاصل المنزلين ، فيحب العبد الباقى ويزهد فى الفانى ، فتظهر فائدة التزكية ، وجدوى للشيخة والتربية . فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ، ويهدى به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أنا أبو الفضل عبد الواحد بن على بهمذان قال : أنا أبو بكر محمد بن على بن أحمد الطوسى قال :

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال : حدثنا أبو عتبة قال : حدثنا بقية قال : حدثنا صفوان بن عمرو قال : حدثنى الأزهر بن عبد الله قال سمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله ﷺ قال : كان يقال : إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب لله عز وجل فقد خطر الأمر .

فعلى المشايخ وقار الله ، وبهم يتأدب المريدون ظاهراً وباطناً . قال الله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة للمتقين . قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم » .

والسر فى وصول السالك إلى رتبة المشيخة ، أن السالك مأمور بسياسة النفس ، مبتلى بصفاتها ، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه ، وبطمأنينتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التى استصحبتها من أصل خلقتها ، وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ، ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها ، وهذا اللين هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) تعالى ، تجيب إلى العبادة ، وتلين للطاعة عند ذلك . وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ، ذو وجهين ، أحد وجهيه إلى النفس ، والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذى يليه ، ويمد النفس بوجهه الذى يليها حتى تطمئن النفس ، فإذا اطمأنت نفس السالك ، وفرغ من سياستها ، انتهى سلوكه ، وتمكن من سياسة النفس وانقادت نفسه وقامت إلى أمر الله .

ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجنسية فى عين النفسية من وجه ، ولوجود التألف بين الشيخ والمريد من وجه بالتألف

الإلهى . قال الله تعالى (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولـكن الله ألف بينهم) فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل ، ويـكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى .

ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى   وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا

وبما هيأ الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب ، يصير المريد جزء الشيخ ، كما أن الولد جزء الوالد فى الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة آنفاً ولادة معنوية كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه : لن يلج ملـكوت السماء من لم يولد مرتين .

فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم الملك ، وبهـذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت . قال الله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وصرف اليقين على الـكمال يحصل فى هذه الولادة ، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ، ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد ، وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء ، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابساً من نور الشرع لايدخل الملكوت ، ولا يزال متردداً فى الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية ؛ لأنه تصرف فى الملك ، ولم يرتق إلى الملـكوت . والملك ظاهر الـكون ، والملـكوت باطن الـكون ، والعقل لسان الروح . والبصيرة التى منها تنبعث أشعة الهداية قلب الروح ، واللسان ترجمان القلب ، وكل ماينطق به الترجمـان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ماعند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ، فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول العرية عن نور الهداية ، الذى هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم الصواب ، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان ، وحرمانهم غاية التبيان .

وكما أن فى الولادة الطبيعية ذرات الأولاد فى صلب الأب مودعة تنتقل إلى أصلاب الأولاد بعد كل ولد ذرة ، وهى الذرات التى خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بألست بربكم ، قالوا بلى ، حيث مسح ظهر آدم وهو ملق ببطن نعمان

بين مكة والطائف ، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة . ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم . فمن الآباء من تنفذ الذرات فى صلبه ، ومنهم من لم يودع فى صلبه شىء فينقطع نسله . وهكذا للمشايخ ، فمنهم من تكثر أولاده ، ويأخذون منه العلوم والأحوال ، ويودعونها غيرهم ، كما وصلت إليهم من النبي ﷺ بواسطة الصحبة . ومنهم من تقل أولاده . ومنهم من ينقطع نسله ، وهذا النسل هو الذى رد على الكفار حيث قالوا محمد أبتر لا نسل له . قال الله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) وإلا فنسل رسول الله ﷺ باق إلى أن تقوم الساعة . وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال : أنا أبو عبد الرحمن المالينى قال : أنا أبو الحسن الداودى قال : أنا أبو محمد الحموى قال : أنا أبو عمران السمرقندى قال : أنا أبو محمد الدارمى قال : أنا نصر بن على قال : حدثنا عبد الله بن داود ، عن عاصم ، عن رجاء بن حيوة ، عن داود بن جميل ، عن كثير بن قيس قال : كنت جالساً مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء إنى أتيتك من المدينة ، مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغنى عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ . قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا . قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة . وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما أورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر » .

فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعو إليه النفس والشيطان ، كما ورد أن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض ، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التى كونها من الجوهرة التى خلقها أولا ،

فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب ، حيث خاطب السموات والأرضين بقوله (ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين) فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية ، ثم انتزعت هذه الخاصية منها بأخذ أجزائها لتركيب صورة آدم ، فركبت جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصية ، فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الهوى ، حتى مد يده إلى شجرة الفناء ، وهى شجرة الحنطة فى أكثر الأقاويل ، فتطرق لقالبه الفناء وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذى أخبر عنه بقوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) نال العلم والحكمة .

فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة ، وبنفخ الروح صار ذا روح روحانى ، وشرح هذا يطول . فصار قلبه معدن الحكمة ، وقالبه معدن الهوى ، فانتقل منه العلم والهوى ، وصار ميراثه فى ولده ، فصار من طريق الولادة أباً بواسطة الطبائع التى هى محتد الهوى ، ومن طريق الولادة للمعنوية أباً بواسطة العلم . فالولادة الظاهرة تطرق إليها الفناء ، والولادة المعنوية محمية من الفناء ، لأنها وجدت من شجرة الخلد ، وهى شجرة العلم لاشجرة الحنطة التى سماها إبليس شجرة الخلد . فإبليس يرى الشىء بضده . فتبين أن الشيخ هو الأب .

وكثيراً كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله يقول : ولدى من سلك طريقى واهتدى بهديى .

فالشيخ الذى يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذاً فى ابتدائه فى طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذاً فى طريق المحبوبين ، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام : سالك مجرد ، ومجذوب مجرد ، وسالك متدارك بالجذبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك .

فالسالك المجرد لايؤهل للمشيخة ولايبلغها لبقاء صفاء نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى فى مقام المعاملة والرياضة ، ولايرتقى إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة .

والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ، ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب ، ولايؤخذ فى طريق المعاملة ، وللمعاملة أثر تام

سوف نشرحه فى موضعه إن شاء الله تعالى . وهذا أيضاً لا يؤهل للمشيخة، ويقف عند حظه من الله ، ومروحاً بحاله غير مأخوذ فى طريق أعماله ماعدا الفريضة .

والسالك الذى تدورك بالجذبة ، هو الذى كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال ، فوجد العسل بعد العلقم ، وتروح بنسمات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة ، فوجد دواءه ، وفاض وعاؤه ، وصدرت منه كلمات الحكمة ، ومالت إليه القلوب ، وتوالى عليه فتوح الغيب، وصار ظاهره مسدداً، وباطنه مشاهداً ، وصلح للجلوة ، وصار له فى الجلوة خلوة ، فيغلب ولا يغلب ، ويفترس ولا يُفترس ، يؤهل مثل هذا للمشيخة ، لأنه أخذ فى طريق المحبين، ومنح حالا من أحوال المقربين ، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوساً فى حاله ، محكماً حاله فيه ، لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال النوال ، يقف عند حظه وهو حظ وافر سنى ، والذين أوتوا العلم درجات .

ولكن للقال الأكمل فى المشيخة القسم الرابع وهو المجذوب المتدارك بالسلوك ، يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة،وينشرح وينفسح قلبه ، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود ، ويرتوى من بحر الحال ، ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ويقول معلناً لا أعبد رباً لم أره ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذاذة وهناء ، ويصير قالبه بصفة قلبه ، لامتلاء قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه . وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل ، كإجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين ، ينقطع فيواصل، ويعرض عنه فيراسل ، يذهب عنه جمود النفس ، ويصلى بحرارة الروح ،

وتنكمش عن قلبه عروق النفس . قال الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

أخبر أن الجلود تلين ، كما أن القلوب تلين ، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد . وقد ورد فى الخبر أن إبليس سأل السبيل إلى القلب ، فقيل له يحرم عليك ، ولكن السبيل لك فى مجارى العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب ، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها ، وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب فى مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جملته نبياً أو ولياً قلعت تلك العروق من باطن قلبه، فيصير القلب سليماً ، فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب ، فلا يصل إلى القلب سلطانك .

فالمحبوب المراد الذى أهل للمشيخة ، سلم قلبه ، وانشرح صدره ، ولان جلده ، فصار قلبه بطبع الروح ، ونفسه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت أمارة بالسوء مستعصية ، ولان الجلد للين النفس ، ورد إلى صورة الأعمال بمد وجدان الحال ، ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الإلهية ، فيستتبع الروح القلب ، ويستتبع القلب النفس ، ويستتبع النفس القالب ، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية ، وانخرق الظاهر إلى الباطن ، والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة ، والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة ، والآخرة إلى الدنيا ، ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ، ويكون مسيطراً على الحال لا الحال مسيطراً عليه ، ويصير حراً من كل وجه .

والشيخ الأول الذى أخذ فى طريق المحبين حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقياً فى رق القلب . وهذا الشيخ فى طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلمانى أرضى أعتق منه الأول ، والقلب حجاب نورانى سماوى أعتق منه الآخر ، فصار لربه لا لقلبه ، ولموقته لا لوقته ، فعبد الله حقاً ، وآمن به صدقاً ، ويسجد

لله سواده وخياله ، ويؤمن به فؤاده ، ويقر به لسانه، كما قال رسول الله ﷺ في بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة ، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) .

فالقوالب هى الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح المقربة فى عالم الشهادة . الأصل كثيف والظل لطيف ، وفى عالم الغيب الأصل لطيف والظل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ فى طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال ، ويمتلىء بما أنيل من وجدان الحال ، وذلك قصور فى العلم ، وقلة فى الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى فى عالم الشهادة عن القوالب ، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق ، ومن صح فى المقام الذى وصفناه هو الشيخ المطلق ، والعارف المحقق ، والمحبوب المعتق ، نظره دواء ، وكلامه شفاء ، بالله ينطق ، وبالله يسكت ، كما ورد « لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، بى ينطق ، وبى يبصر » الحديث .

فالشيخ يعطى بالله ، ويمنع بالله ، فلا رغبة له فى عطاء ومنع لعينه ، بل هو مع مراد الحق ، والحق يعرفه مراده ، فيكون فى الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول فى صورة محمودة دخل فيها المراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

الباب الحادى عشر

فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : « ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً » .

الخادم يدخل فى الخدمة راغباً فى الثواب ، وفيما أعد الله تعالى للعباد ، ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يفعله لله تعالى بنية صالحة .

فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته . فالخادم يفعل الشىء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشىء بالله . فالشيخ فى مقام المقربين ، والخادم فى مقام الأبرار . فيختار الخادم البذل والإيثار ، والارتفاق من الأغيار للأغيار ، ووظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله ، وفيه يعرف الفضل ويرجحه على نوافله وأعماله . وقد يقيم من لايعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضاً حال نفسه . فيحسب نفسه شيخاً لقلة العلم ، واندراس علوم القوم فى هذا الزمان ، وقناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال . فكل من كان أكثر إطعاماً هو عندهم أحق بالمشيخة ، ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ . والخادم فى مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى .

وقد ورد مايدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة ابن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه قال : أنا أبو الفضل محمد بن عبدالله المقرى قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى قال : حدثنا أبو حامد الحافظ قال : حدثنا العباس بن محمد الدورى وأبو الأزهر قالا : حدثنا أبو داود قال : حدثنا سفيان ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة : « أن النبى ﷺ أتى بطعام وهو بمر

الظهران ، فقال لأبي بكر وعمر : كلا ، فقالا : إنا صائمان ، فقال : ارحلا لصاحبيكما ، اعملا لصاحبيكما ، ادنوا فكلا ، يعني أنكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة ، فاحتجتما إلى من يخدمكما ، فكلا واخدما أنفسكما .

فالخادم يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالاسترقاق والدروزة تارة أخرى ، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة ، لعلمه أنه قيم بذلك ، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة . ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام ، ومعاناة في تخليص النية عن شوائب النفس والشهوة الخفية ، ولو خلصت نيته مارغب في ذلك لوجود مراده فيه وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة قال : أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السري يقول : أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة ، فقلت له ما هو ؟ قال : لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن معك شيء تعطى منه أحداً شيئاً .

والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار ، فيقدم الخدمة على النوافل ، ويرى فضلها ، وللخدمة فضل على النافلة التي يأتي بها العبد طالباً بها الثواب غير النافلة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد .

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال : أخبرني والدي الحافظ المقدسي قال : أنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان قال : أنا إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قال : حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي قال : حدثنا أبو السائب قال : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا عاصم عن مورق عن أنس قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلاً في يوم حار شديد الحر ، فمنا من يتقي الشمس

بيده ، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .

وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة . والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ، فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس ، ويتشبه بالخادم ، ويتصدى لخدمة الفقراء ، ويدخل فى مداخل الخدام بحسن الإرادة بطلب التأسى بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه ، وحسن إرادته فى خدمة القوم ، ومنها مالا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى ، فيضع الشىء فى غير موضعه ، وقد يخدم بهواه فى بعض تصاريفه ، ويخدم من لا يستحق الخدمة فى بعض أوقاته ، ويحب المحمدة والثناء من الخلق ، مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى ، وربما خدم الثناء ، وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخامره فى حق من يلقاه بمكروه ، ولا يراعى واجب الخدمة فى طرفى الرضا والغضب ، لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى . والخادم لا يتبع الهوى فى الخدمة فى الرضا والغضب ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويضع الشىء موضعه . فإذن الشخص الذى وصفناه آنفاً متخادم وليس بخادم ، ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات ، وتخليصها من شوائب الهوى . والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم فى كثير من تصاريفه ، ولا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزج هواه ، وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه ، أو توفير رفق عليه ، وهو يخدم لمنال يصيبه ، أو حظ عاجل يدركه ، فهو فى الخدمة لنفسه لا لغيره ، فلو انقطع رفقه ما خدم ، وربما استخدم من يخدم ، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه فى المحافل ، يتكثر به ، ويقيم به جاه نفسه بكثرة الاتباع والإشياع ، فهو خادم هواه ، وطالب دنياه ، يحرص نهاره وليله فى تحصيل ما يقيم به جاهه ، ويرضى نفسه وأهله وولده ، فيتسع فى الدنيا ويتزيا بغير زى

الخدام والفقراء ، وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ ، ويستولى عليه حب الرياسة . وكلما كثر رفقه كثرت مواد هواه، واستطال على الفقراء ، ويحوج الفقراء إلى التملق المفرط له تطلباً لرضاه ، وتوقياً لضيمه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف . فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدماً ، فليس بخادم ولا متخادم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم ، وبانتمائه إليهم . وقد أوردنا الخبر المسند الذى فى سياقه : هم القوم الذين لايشقى بهم جليسهم ، والله الموفق والمعين .

الباب الثانى عشر

فى شرح خرقة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه . والتحكيم سائغ فى الشرع لمصالح دنيوية ، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه ، يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة ، يحكمه فى نفسه لمصالح دينه ، يرشده ويهديه ، ويعرفه طريق المواجيد ، ويبصره بآفات النفوس ، وفساد الأعمال ، ومداخل العدو ، فيسلم نفسه إليه ، ويستسلم لرأيه ، واستصوابه فى جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة ، إظهاراً للتصرف فيه ، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ، ودخوله فى حكم الشيخ دخول فى حكم الله وحكم رسوله ، وإحيـاء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ .

أخبرنا أبو زرعة قال : أخبرنى والدى الحافظ المقدسى قال : أنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزاز قال : أنا أحمد بن محمد أخى ميمى قال : حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال : حدثنا عمرو بن على بن حفظة قال : سمعت عبد الوهاب الثقفى يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثنى عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال : أخبرنى أبى عن أبيه قال « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ، ولا نخاف فى الله لومة لائم » .

ففى الخرقة معنى المبايعة ، والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة . والمقصود الكلى هو الصحبة ، وبالصحبة يرجى للمريد كل خير .

روى عن أبى يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيرى عن شيخه أبى على الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر . وهو كما قال . ويجوز أنها تثمر كالأشجار التى فى الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة ، لدخول التصرف فيه .

وقد اعتبر الشرع وجود التعليم فى الكلب المعلّم ، وأحل مايقتله بخلاف غير المعلّم .

وسمعت كثيراً من المشايخ يقولون : من لم ير مفلحاً لايفلح .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة . وأصحاب رسول الله ﷺ تلقوا العلوم والآداب من رسول الله ﷺ ، كما روى عن بعض الصحابة « علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة » .

فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه ، وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد ، كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد ، ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ ، وانسلخ من إرادة نفسه ، وفنى فى الشيخ بترك اختيار نفسه ، فبالتألف الإلهى يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية ، والطهارة الفطرية ، ثم لايزال المريد مع الشيخ كذلك متأدباً بترك الاختيار ،حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ . ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ ، والخرقة مقدمة ذلك .

ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبى الفضل المقدسى قال: أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الأديب النيسابورى قال : أنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قال : أنا محمد بن إسحاق قال : أنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصرى قال : حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا إسحاق بن سعيد قال : حدثنا أبى قال : حدثتنى أم خالد بنت خالد قالت « أتى النبى عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال : من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله ﷺ ائتونى بأم خالد ، قالت فأتى بى فألبسنيها بيده فقال أبلى وأخلقى ، يقولها مرتين ، وجعل ينظر إلى علم فى الخميصة أصفر وأحمر ويقول ياأم خالد هذا سناه » والسناه هو الحسن بلسان الحبشة .

ولاخفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التى يعتمدها الشيوخ فى هذا الزمان لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ . وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ ، وأصله من الحديث ماورويناه . والشاهد لذلك أيضاً التحكيم الذى ذكرناه . وأى اقتداء برسول الله ﷺ أتم وآكد من الاقتداء به فى دعاء الخلق إلى الحق .

وقد ذكر الله تعالى فى كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله ﷺ . وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم . قال الله تعالى (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) .

وسبب نزول هذه الآية أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة ، والشراج مسيل الماء ، كانا يسقيان به النخل ، فقال النبى عليه السلام للزبير « اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فغضب الرجل وقال : قضى رسول الله لابن عمته فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله ﷺ ، وشرط عليهم فى الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً ، ونفى الحرج ، وهو الانقياد باطناً . وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم . فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه فى جميع تصاريفه ، ويحذر الاعتراض على الشيوخ ، فإنه السم القاتل للمريدين . وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفلح ، ويذكر المريد فى كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام ، كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى ، ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب فى ذلك ، فهكذا ينبغى للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ ، عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة .

ويد الشيخ فى لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ .

وتسليم للمريد له تسليم لله ورسوله . قال الله تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) .

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ، ويعرفه حقوق الخرقة . فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية ، والمراضى النبوية ، ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه ، منه يدخل ، وإليه يرجع ، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ما ينزل المريد به ، ويرجع فى ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه .

وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة فى النوم واليقظة ، فلا يتصرف الشيخ فى المريد بهواه ، فهو أمانة الله عنده ، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه . قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا) فإرسال الرسول يختص بالأنبياء ، والوحى كذلك ، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراسخين فى العلم .

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية . فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة ، والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه . قال الله تعالى تأديباً للأمة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلا يأذن الشيخ للمريد فى المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج ، فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الإعلال فى الطريق بالرجوع إلى الدنيا متابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه فى الولادة الطبيعية ، وهذا التلازم بصحبة المشايخ للمريد الحقيقى ، والمريد الحقيقى يلبس خرقة الإرادة .

واعلم أن الخرقة خرقتان: خرقة الإرادة، وخرقة التبرك. والأصل الذى قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة، وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة. فخرقة الإرادة للمريد الحقيقى، وخرقة التبرك للمتشبه، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ، وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن، فقد يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله فى تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن فى نفسه، ليرى بعين الزهادة، فأشد ما عليه لبس الناعم. وللنفس هوى واختيار فى هيئة مخصوصة من الملبوس فى قصر الكم والذيل وطوله، وخشونته ونعومته، على قدر حسبانها وهواها فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها. وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أو هيئة فى الملبوس، تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها. فتصرف الشيخ فى الملبوس كتصرفه فى المطعوم، وكتصرفه فى صوم المريد وإفطاره، وكتصرفه فى أمر دينه إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر، ودوام التنفل فى الصلاة، ودوام التلاوة، ودوام الخدمة، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك. فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له. ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة. قال الله تعالى: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن).

فالحكمة رتبة فى الدعوة، والموعظة كذلك، والمجادلة كذلك، فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة، ومن يدعى بالموعظة لا تصلح دعوته بالحكمة. فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار، ومن هو على وضع المقربين، ومن يصلح لدوام الصلاة، ومن له هوى فى التخشن أو فى التنعم، فيخلع المريد من عادته، ويخرجه من مضيق هوى نفسه، ويطعمه باختياره،

ويلبسه باختياره ثوباً يصلح له ، وهيئة تصلح له ، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة ، داء هواه ، ويتوخى بذلك تقربه إلى رضا مولاه .

فالمريد الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة فى بدء أمره وحدة إرادته ، كالملسوع الحريص على من يرقيه ويداويه ، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه ، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب وتشام الأرواح ، وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله وفى الله وبالله ، فيكون القميص الذى يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به ، فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام .

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار ، جرد من ثيابه ، وقذف فى النار عرياناً ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ، فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص فى تعويذ وجعله فى عنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، لما ألقى فى البئر عرياناً جاءه جبريل وكان عليه التعويذ ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال : أنا أبو سعد محمد بن أبى العباس قال : أنا القاضى محمد بن سعيد قال : أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال : أخبرنى ابن فنجويه الحسين بن محمد قال : حدثنا مخلد بن جعفر قال : حدثنا الحسن بن علوية قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشر عن ابن السدى عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لا يرد على يعقوب بصره ، ولكن ذلك كان قميص إبراهيم ، وذكر ما ذكرناه . قال : فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفى . فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله . فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزى القوم ، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشروع ومخالطة هذه الطائفة ليعود عليه بركتهم ، ويتأدب بآدابهم ، فسوف يرقيه ذلك إلى

الأهلية لخرقة الإرادة . فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب ، وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب . ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ فى الخرقة ، فإن رأى شيخ أن يلبس مريداً غير الأزرق فليس لأحد أن يعترض عليه ، لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت .

وكان شيخنا يقول : كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة .

ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقاً فى دفعات على قدر ما يتلمح من المصلحة للمريد فى ذلك ، على ما أسلفناه من تداوى هواه فى الملبوس والملون فيختار الأزرق لأنه أوفق للفقير ، لكونه يحمل الوسخ ، ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب ، وما عدا هذا من الوجوه التى يذكرها بعض المتصوفة فى ذلك كلام إقناعى من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشىء .

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الهمدانى رحمه الله قال : كنت ببغداد عند أبى بكر الشرونى ، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء : لم لا تغسل ثوبك ؟ فقال : يا أخى ما أتفرغ ، فقال الشيخ أبو الفخر : لا أزال أتذكر حلاوة قول الفقير ما أتفرغ ، لأنه كان صادقاً فى ذلك ، فأجد لذة لقوله وبركة بتذكارى ذلك ، فاختاروا الملون لهذا المعنى ، لأنهم من رعاية وقتهم فى شغل شاغل ، وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك ، فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه . وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة وينسلك بأقوام من غير لبس الخرقة ، ويؤخذ منه العلوم والآداب . وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع ، ومن لا يلبسها فله رأيه وله فى ذلك مقصد صحيح . وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب ، ولا تخلو عن نية صالحة فيه ، والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر

فى فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) .

قيل : إن هذه البيوت هى المساجد ، وقيل : بيوت المدينة ، وقيل : بيوت النبي عليه الصلاة والسلام .

وقيل : لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضى الله عنه وقال يارسول الله : هذه البيوت منها بيت على وفاطمة ؟ قال : نعم أفضلها .

وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لابصور البقاع . وأى بقعة حوت رجالا بهذا الوصف هى البيوت التى أذن الله أن ترفع .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : مامن صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضاً : هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة نعم ، ومن قائلة لا ، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلا . وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض ، أو صلى لله عليها ، إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت .

وقيل فى قوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض) تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته ، لأن الأرض تبكى عليهم ولا تبكى على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى . فسكان الرباط هم الرجال ، لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى ، وانقطعوا إلى الله ، فأقام لهم الدنيا خادمة .

روى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله ﷺ « من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنتــه ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكلــه الله إليها » .

وأصل الرباط ماربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط . فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال : أنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزاذى قال : أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال : أنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خرجة قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنى أبو حميد الحمصى قال : حدثنا يحيى بن سعيد[1] القطار قال : حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء » .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « لولا عباد لله ركع ، وصبية رضع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صبا ، ثم رض رضا » .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبى ﷺ : « إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ، ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم » .

وروى داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية (اصبروا وصابروا ورابطوا) قلت ، لا ، قال : يا ابن أخى لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فالرباط لجهاد النفس ، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . قال الله تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده) .

قال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى ، وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر على ماروى فى الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وقيل إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو ، فكتب إليه : يا أخى كل الثغور مجتمعة لى فى بيت واحد ، والباب على مردود . فكتب

(١) قوله بالهامش القطار هكذا بنسخة ، وفى أخرى العطار ، ولعله القطان بالنون وليحرر .

إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا مالزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار ، فلا بد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : ياأخي لو لزم الناس ماأنا عليه وقالوا فى زواياهم على سجاداتهم : الله أكبر انهدم سور قسطنطينية .

وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات فى بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات ، يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات . فاجتماع أهل الربط أصح على الوجه الموضوع له الربط ، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات ، وتوقى مايفسد الأعمال ، واعتماد ما يصحح الأحوال ، عادت البركة على البلاد والعباد .

قال سرى السقطى فى قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) : اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا أهواء النفس اللوامة ، واتقوا مايعقب لكم الندامة ، لعلكم تفلحون غداً على بساط الكرامة .

وقيل : اصبروا على بلائى ، وصابروا على نعمائى ، ورابطوا فى دار أعدائى ، واتقوا محبة من سوائى ، لعلكم تفلحون غداً بلقائى .

وهذه شرائط ساكن الرباط ، قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، وعانق ليله ونهاره العبادة ، متعوضاً بها عن كل عادة ، شغله حفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أنا ابن نبهان محمد الكاتب قال: أنا الحسن بن شاذان قال: أنا دعلج قال: أنا البغوى ، عن أبى عبيد القاسم ابن سلام قال: حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إسباغ الوضوء فى المكاره ، واعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، يغسل الخطايا غسلا »

وفى رواية « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا وترفع به الدرجات ؟ قالوا بلى يارسول الله ، قال : إسباغ الوضوء فى المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

الباب الرابع عشر

فى مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين) .

هذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم : ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء ؟ قالوا : كنا نتبع الماء الحجر .

وهذا وأشباه هذا من آداب وظيفة صوفية الربط ، يلازمونه ويتأهدونه . والرباط بيتهم ومضربهم ، ولكل قوم دار ، والرباط دارهم . وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أنا أحمد بن محمد البزازى قال : أنا عيسى بن على الوزير قال : حدثنا عبد الله البغوى قال : حدثنا وهبان بن بقية قال : حدثنا خالد بن عبد الله عن داود ابن أبى هند عن أبى الحارث حرب بن أبى الأسود ، عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، وكنت فيمن نزل الصفة . فالقوم فى الرباط مرابطون ، متفقون على قصد واحد ، وعزم واحد ، وأحوال متناسبة . ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) والمقابلة باستواء السر والعلانية ، ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه .

فأهل الصفة هكذا كانوا ، لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

فأهل الصفة رفضوا الدنيا ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ، فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم ، وهكذا أهل الربط ، متقابلون بظواهرهم وبواطنهم ، مجتمعون على الألفة والمودة ، يجتمعون للكلام ، ويجتمعون للطعام ، ويتعرفون بركة الاجتماع .

روى وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا يارسول الله إنا نأكل

ولا نشبع ، قال « لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه ».

وروى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة ولاخبز له مرقق ، فقيل : فعلى أى شىء كانوا يأكلون؟ قال : على السفر .

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون نفوسهم تفتلق للأهوية والخوض فيما لا يعنى ، فرأوا السلامة فى الوحدة .

والصوفية لقوة علمهم ، وصحة حالهم ، نزع عنهم ذلك ، فرأوا الاجتماع فى بيوت الجماعة على السجادة . فسجادة كل واحد زاويته ، وهم كل واحد مهمه ، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته ، ولهم فى اتخاذ السجادة وجه من السنة .

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً من الليف يصلى عليه من الليل .

وروت ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ تبسط له الخمرة فى المسجد حتى يصلى عليها .

والرباط يحتوى على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة . فالمشايخ بالزوايا أليق نظراً إلى ماتدعو إليه النفس من النوم والراحة ، والاستبداد بالحركات والسكنات ، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال فى وجود الرفق ، والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود فى بيت الجماعة ، والانكشاف لنظر الأغيار ، لتكثر العيون عليه ، فيتقيد ويتأدب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط فى بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات ، وضبط الأنفاس ، وحراسة الحواس ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض ، وهكذا ينبغى لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللغط ، فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ، ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع

خلوته ، ليحبس الشاب نفسه عن دواعى الهوى والخوض فيما لا يعنى ، ويكون الشيخ فى بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس ، وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع ، فينضبط به الغير ، ولا يتكدر هو .

وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئاً ، ولم يذق طعم المعاملة ، ولم يتنبه لنفائس الأحوال أن يؤمر بالخدمة ، لتكون عبادته خدمته ، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه ، فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة .

قال رسول الله ﷺ «المؤمنون إخوة ، يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج ، فيقضى بعضهم إلى بعض الحوائج ، يقضى الله لهم حاجاتهم يوم القيامة » .

فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التى تميت القلب . والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهى طريق من طرق المواجيد ، تكسبهم الأوصاف الجميلة ، والأحوال الحسنة ، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم ، ولا متطلعاً إلى الاهتداء بهديهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال : أنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال : أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا على بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن شريك ، عن أبى هلال الطائى ، عن وثيق بن الروهى قال : كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يقول لى : اسلم فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغى أن أستعين على أماناتهم بمن ليس منهم . قال فأبيت . فقال عمر : لا إكراه فى الدين . فلما حضرته الوفاة أعتقنى فقال : اذهب حيث شئت .

فالقوم يكرهون خدمة الأغيار ، ويأبون لمخالطتهم أيضاً ، فإن من لا يحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع ، فإنهم بشر وتبدو منهم أمور بمقتضى طبع البشر ويتكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم ، فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق لا من طريق التعزز والترفع على أحد من المسلمين .

والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته، يشاركهم فى الثواب، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية ، يخدم من أهّل لها ، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال : أنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال : حدثنا أبو بكر بن خلاد قال : حدثنا الحارث ابن أبى أسامة قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا أبو إسحاق عن حميد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قال حين دنا من المدينـة « إن بالمدينة أقواماً ماسرتم من مسير ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم فى المدينة ؟ قال : نعم حبسهم العذر » .

فالقائم بخدمة القوم ، تعوق عن بلوغ درجتهم بعذر القصور وعـدم الأهلية ، فحام حول الحمى باذلا مجهوده فى الخدمة ، يتعلل بالأثر حيث منع النظر ، فجزاه الله على ذلك أحسن الجزاء ، وأناله من جزيل العطاء ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ، ويجتمعون على المصالح الدينية، ومواساة الإخوان بالمال والبدن .

الباب الخامس عشر

فى خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتعاهدون ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية . ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم . قال الله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وما يرى من التقصير فى حق البعض من أهل زماننا ، والتخلف عن طريق سلفهم ، لا يقدح فى أصل أمرهم وصحة طريقهم . وهذا القدر الباقى من الأثر ، واجتماع المتصوفة فى الربط ، وما هيأ الله تعالى لهم من الرفق ، بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين وأثر من آثار منح الحق فى حقهم . وصورة الاجتماع فى الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب ، عكس نور الجمعية من بواطن الماضين ، وسلوك الخلف فى مناهج السلف ، فهم فى الربط كجسد واحد بقلوب متفقة ، وعزائم متحدة ، ولا يوجد هذا فى غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى فى وصف المؤمنين (كأنهم بنيان مرصوص) وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) .

روى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون » .

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن ، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا ، وبرابطة التأليف الإلهى اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطئوا ، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب فى الرباط رابطوا ، فلابد لهم من التألف والتودد والنصح .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسى عن أبيه قال : حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبى حرب قال : أنا أحمد بن الحسين الحيرى قال : أنا أبو سهل بن زياد القطان قال : حدثنا الحسين بن مكرم قال : حدثنا يزيد ابن هارون الواسطى قال : حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم ، وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم عين على البعض ، على ما ورد : « المؤمن مرآة المؤمن » فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة ناقروه ، لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من حق تضييع الوقت . فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه عن دائرة الجمعية ، وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيقاد بالمناقرة إلى دائرة الجمعية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردى إجازة قال : أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال : أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال : أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى قال : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت رويماً يقول : لا يزال الصوفية بخير ما تناقروا ، فإذا اصطلحوا هلكوا .

وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس . يقول إذا اصطلحوا أو رفعوا المناقرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساهلة المرآة ، ومسامحة البعض البعض فى إهمال دقيق آدابهم وبذلك تظهر النفوس وتستولى . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى .

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروى قال : أنا عبد الرحمن بن أبى شريح قال : أنا أبو القاسم البغوى قال : حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : حدثنى إبراهيم بن سعد

عن صالح عن بن شهاب أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر قال فى مجلس فيه المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح . فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفى بغضب وخصومة مع بعض الإخوان ، فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب ، فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر ، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة ، وذهبت العصمة . قال الله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا) .

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء ، فيقول للمتعدى لم تعديت ، وللمعتدى عليه ما الذى أذنبت حتى تعدى عليك ، وسلط عليك ، وهلا قابلت نفسه بالقلب رفقاً بأخيك ، وإعطاء للفتوة والصحبة حقها . فكل منهما جان وخارج عن دائرة الجمعية ، فيرد إلى الدائرة بالنقار ، فيعود إلى الاستغفار ، ولا يسلك طريق الإصرار .

روت عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقول « اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤا استغفروا » .

فيكون الاستغفار ظاهراً مع الإخوان ، وباطناً مع الله تعالى ، ويرون الله فى استغفارهم . فلهذا المعنى يقفون فى صف النعال على أقدامهم تواضعاً وانكساراً .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : قم واستغفر ، فيقول الفقير ما أرى باطنى صافياً ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهراً من غير صفاء الباطن ، فيقول : أنت قم فببركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء ، فكان يجد ذلك ، ويرى أثره عند الفقير ، وترق القلوب وترتفع الوحشة . وهذا من خاصية هذه الطائفة ، لا يبيتون والبواطن منطوية على وحشة ، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة ، ولا يرون الاجتماع

ظاهراً فى شىء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث ، فإذا قام الفقير للاستغفار لايجوز رد استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » .

وللصوفية فى تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة .

روى عبد الله بن عمر قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا لودخلنا المدينة فتبنا فيها ، ثم قلنا لوعرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من القوم ؟ قلنا : نحن الفرارون ، قال : لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم أنا فئة المسلمين » يقال عكر الرجل إذا تولى ثم كر راجعاً والعكار العطاف والرجاع . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قبل يد عمر عند قدومه .

وروى عن أبى مرثد الغنوى أنه قال : أتينا رسول الله ﷺ فنزلت إليه وقبلت يده . فهذا رخصة فى جواز تقبيل اليد . ولكن أدب الصوفى أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك ، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ، ومعانقتهم للإخوان عقيب الاستغفار لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة ، وقدومهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية ، فبظهور النفس تغربوا وبعدوا ، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا وراجعوا . ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ فى ذلك وعيد . روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس » .

وروى جابر أيضاً عن رسول الله ﷺ « من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد الحوض » .

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئاً بعد الاستغفار . روى أن كعب بن

مالك قال للنبي ﷺ : إن من توبتي أن أخلع من مالي كله، وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الذنب ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام « يجزيك من ذلك الثلث » .

فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمناقرة ، وكل قصدهم رعاية التآلف حتى تكون بواطنهم على الاجتماع ، كما أن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة ، أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب ، وإلا إذا كان للبطالة والخوض فيما لا يعني عنده مجال ، ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجد والاجتهاد ، فلا ينبغي له أن يأكل من مال الرباط ، بل يكتسب ويأكل من كسبه ، لأن طعام الرباط لأقوام كمل شغلهم بالله ، فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم ، إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ، ينتفع بصحبته ، ويهتدي بهديه ، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة . ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية أن يشغله بخدمة الفقراء ، فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته .

روى عن أبي عمرو الزجاجي قال : أقمت عند الجنيد مدة فما رآني قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة ، فما كلمني ، حتى كان يوم من الأيام خلا الموضع من الجماعة ، فقمت ونزعت ثيابي وكنست الموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار ، فدعا لي ورحب بي وقال : أحسنت ، عليك بها ثلاث مرات . ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة .

روى أبو محذورة قال : جعل رسول الله ﷺ لنا الأذان ، والسقاية لبني هاشم ، والحجابة لبني عبد الدار .

وبهذا يقتدي مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يعذر في

ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته ، ولا نعنى بكامل الشغل شغل الجوارح ، ولكن نعنى به دوام الرعاية والمحاسبة ، والشغل بالقلب والقالب وقتاً ، وبالقلب دون القالب وقتاً ، وتفقد الزيادة من النقصان ، فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام ، وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية ، وفى البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة قال : أنا عمر ابن أحمد بن منصور قال : أنا أحمد بن خلف قال : أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين قال : سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول : سمعت على بن عبد الحميد الغضائرى يقول : سمعت السرى يقول : من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم .

وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب فى تناول طعام الرباط ، ولا يعذر الشاب . هذا فى شرط طريق القوم على الإطلاق ، فأما من حيث فتوى الشرع فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزيا بزى المتصوفة وعلى خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى ، وفى ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التى هى شغل أهل الإرادة ، وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملا وحالا فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات ، وطرق أهل الإرادة عند مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال : أنا أبو الفضل حميد قال : أنا الحافظ أبو نعيم قال : حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف قال : حدثنا جعفر الفريابى قال : حدثنا محمد بن الحسين البلخى بسمرقند قال : حدثنا عبد الله بن المبارك قال : حدثنا سعيد بن أبى أيوب الخزاعى قال : حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبى سليمان الليثى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال « مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته ، يجول ويرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان ، فأطعموا طعامكم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » .

الباب السادس عشر

فى ذكر اختلاف أحوال مشايخهم فى السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية، فنهم من سافر فى بدايته وأقام فى نهايته، ومنهم من قام فى بدايته وسافر فى نهايته، ومنهم من أقام ولم يسافر، ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة.

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام.

فأما الذى سافر فى بدايته وأقام فى نهايته فقصده بالسفر لمعان: منها تعلم شىء من العلم. قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وقال بعضهم: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى ما كان سفره ضائعاً.

ونقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر فى شهر لحديث بلغه أن أنساً يحدث به عن رسول الله ﷺ.

وقد قال عليه السلام «من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع».

وقيل فى تفسير قوله تعالى (السائحون) إنهم طلاب العلم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال: أنا أبو الفتح عبد الملك الهروى قال: أنا أبو نصر الترياقى قال: أنا الجراحى قال: أنا أبو العباس المحبوبى قال: أنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبى هارون قال: كنا نأتى أبا سعيد فيقول مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن النبى عليه السلام قال: «إن الناس لكم تبع، وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

وقال عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وروت عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أوحى إلى أنه من سلك مسلكا فى طلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة»

ومن جملة مقاصدهم فى البداية لقـاء المشايخ والإخوان الصادقين . فللمريد بلقاء كل صادق مزيد ، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال .

وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه .

وهذا القول فيه وجهان : أحدهما أن الرجل الصديق يـكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلم بلسان قوله ، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه فى مورده ومصدره ، وخلوته وجلوته ، وكلامه وسكوته ، ينتفع بالنظر إليه ، فهو نفع اللحظ . ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتـكلم بهواه . ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . والوجه الثانى أن نظر العلماء الراسخين فى العلم والرجال البالغين ترياق نافع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستـكشف بنفوذ بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة ، فيقع فى قلبه محبة الصادق من المريدين ، وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى،فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ويهبون آثاراً مرضية . وماذا ينـكر المنـكر من قدرة الله أن الله سبحانه وتعالى كما جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلـكه بنظره ، أن يجعل فى نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالا وحياة . وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف فى مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لله عباد إذا نظروا إلى الشخص أكسبوه سعادة ، فأنا أتطلب ذلك .

ومن جملة المقاصد فى السفر ابتداء قطع المألوفات ، والانسلاخ من ركون النفس إلى معهود ومعلوم ، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الإلاف والخلان ، والأهل والأوطان ، فمن صبر على تلك المألوفات محتسباً عنـد الله أجراً فقد حاز فضلا عظيما .

أخبرنا أبو زرعة بن أبى الفضل الحافظ المقدسى عن أبيه قال : أنا القاضى أبو منصور محمد بن أحمد الفقيه الأصفهانى قال : أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قوله قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زيادة

النيسابوري قال : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال : حدثنا ابن وهب قال : حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة ممن ولد بهـا ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال « ليته مات بغير مولده » قالوا : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال « إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة » .

ومن جملة المقاصد فى السفر استكشاف دقائق النفوس ، واستخراج رعوناتها ودعاويها ، لأنها لاتكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر . وسمى السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على دائه يتشمر لدوائه . وقد يكون أثر السفر فى نفس المبتدى كأثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك ، وذلك أن للتنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان الغفلات إلى محل القربات ، والمسافر يقطع المسافات ، ويتقلب فى المفاوز والفلوات ، بحسن النية لله تعالى ، سائراً إلى الله تعالى ، بمراغمة الهوى ، ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة قال : أنا عمر بن أحمد قال : أنا أحمد بن محمد بن خلف قال : أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال : سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت على بن عبد الرحيم يقول : سمعت النورى يقول : التصوف ترك كل حظ النفس .

فإذا سافر المبتدى تاركا حظ النفس ، تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة ، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية ، والعفونة الطبيعية ، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد فى السفر رؤية الآثار والعبر ، وتسريح النظر فى مسارح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ، ومواطىء أقدام الرجال ، واستماع التسبيح من ذرات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات . قال الله تعالى (سنريهم

آياتنـــا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

وقد كان السرى يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل أذار وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر إيثار الخمول ، واطراح حظ القبول ، فصدق الصادق يتم على أحسن الحال ، ويرزق من الخلق حسن الإقبال ، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص ذو قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق حتى سمعت بعض المشايخ يحكى عن بعضهم أنه قال : أريد إقبال الخلق على لا أنى أبلغ نفسى حظها من الهوى فإنى لا أبالى أقبلوا أو أدبروا ، ولـكن لـكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال ، فإذا ابتلى المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق ، وربما يفتح عليه باب من الرفق ، وتدخل النفس عليه من طريق البر والدخول فى الأسباب المحمودة ، وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة فى خدمة عباد الله وبذل الموجود ، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب ، واستحلاء قبول الخلق ، وربما قويا عليه فجراه إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الراقع .

وسمعت أن بعض الصـالحين قال لمريد له : أنت الآن وصلت إلى مقام لايدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولـكن يدخل عليك من طريق الخير .

وهذا مزلة عظيمة للأقدام ، فالله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلى بشىء من ذلك ، ويزعجه بالعناية السابقة ، والمعونة اللاحقة إلى السفر ، فيفارق المعارف والموضع الذى فتح عليه هـذا الباب فيه ، ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد فى الأسفار للصادقين .

فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ فى بداياتهم ، ماعدا الحج ، والغزو ، وزيارة بيت المقدس .

وقد نقل أن ابن عمر خرج من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس ، وصلى فيه الصلوات الخمس ، ثم أسرع راجعاً إلى المدينة من الغد .

ثم إذا منّ الله على الصادق بأحـكام أمور بدايته ، قلبه فى الأسفار ،

ومنحه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتقش فى قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين ، وتعطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته ، وسير أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دقائق أخلاقها وشهواتها الخفية ، وسقط عن باطنه نظر الخلق ، وصار يغلب ولا يغلب كما قال الله تعالى إخباراً عن موسى (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) ، فعند ذلك يرده الحق إلى مقامه ، ويعده بجزيل إنعامه ، ويجعله إماماً للمتقين ، به يقتدى ، وعلماً للمؤمنين ، به يهتدى .

وأما الذى أقام فى بدايته ، وسافر فى نهايته ، يكون ذلك شخصاً يسر الله له فى بداية أمره صحبة صحيحة ، وقيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق ، ويدرجه إلى منازل التحقيق ، فيلازم موضع إرادته ، ويلتزم بصحبة من يرده عن عادته . وقد كان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فحرام عليك أن تحضرنى . فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر . فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها .

أخبرنا رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال : أنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى عن والده الأستاذ أبى القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت عياش بن أبى الصخر يقول : سمعت أبا بكر الزقاق يقول : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة .

فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية ، والعزائم القوية ، يحرم عليه المفارقة واختيار السفر .

ثم إذا أحكم أمره فى الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء ، وارتوى من الأحوال ، وبلغ مبلغ الرجال ، وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكسبة للسعادات ، يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان فى أقطار الأرض وشاسع البلدان ، يتشوف إلى التلاق ، وينبعث

إلى الشواف فى الآفاق ، يسيره الله تعالى فى البلاد لفائدة العباد ، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق ، وللتطلعين إلى من يخبر عن الحق ، ويبذر فى أراضى القلوب بذر الفلاح ، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح . وهذا مثل هذه الأمة الهادية فى الإنجيل (كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) تعود بركة البعض على البعض ، وتسرى الأحوال من البعض إلى البعض ، ويكون طريق الوراثة معموراً ، وعلم الإفادة منشوراً .

أخبرنا شيخنا قال : أنا الإمام عبد الجبار البيهقى فى كتابه ، أنا أبو بكر البيهقى قال : أنا أبو على الروذبارى قال : حدثنا أبو بكر بن داسته قال : حدثنا أبو داود قال : أنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر قال : أخبرنى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى ، وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته .

وقد ورد : جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين .

ثم لما علم منه الصدق ، ورأى حاجته إلى من ينتفع به ، ساق إليه بعض الصديقين حتى أيده بلطفه ولفظه ، وتداركه بلحظه ولقحه وبقوة حاله ، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية فى الصاحب والمصحوب ، وإجراء سنة الله تعالى فى إعطاء الأسباب حقها لإقامة رسم الحكمة ، يحوج إلى يسير الصحبة ، فيتنبه بالقليل للكثير ، ويغنيه اليسير من الصحبة عن الحظ الكثير ، ويكتفى بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة العبر والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون : افتحوا أعينكم وأبصروا ، ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم وأبصروا .

وسمعت بعض الصالحين يقول: لله عباد طورسيناهم ركبهم تكون رؤوسهم

على ركبهم ، وهم فى محال القرب ، فمن نبع له معين الحياة فى ظلمة خلوته ، فماذا يصنع بدخول الظلمات ، ومن اندرجت له أطباق السموات فى طى شهوده ماذا يصنع بتقلب طرفه فى السموات ، ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات ماذا يستفيد من طى الفلوات ، ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الأرواح ماذا تفيده زيارة الأشباح .

قيل : أرسل ذو النون المصرى إلى أبى يزيد رجلا وقال قل له : إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة ؟ فقال للرسول: قل لأخى: الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة ، فقال ذو النون : هنيئاً له ، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيحوا تطيبوا ، فإن الماء إذا كثر مكثه فى موضع تغير .

وقيل : قال بعضهم عند هذا الكلام : صر بحراً حتى لاتتغير ، فإذا أدام المريد سير الباطن بقطع مسافة النفس الأمارة بالسوء حتى قطع منازل آفاتها ، وبدل أخلاقها المذمومة بالمحمودة ، وطاق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص ، اجتمع له المتفرقات ، واستفاد فى حضره أكثر من سفره ، لكون السفر لايخلو من متاعب وكلف ومشوشات ، وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء ، ولايقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للذى زكى عنده رجلا : هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا. قال : ما أراك تعرفه .

فإذا حفظ الله عبده فى بداية أمره من تشويش السفر ، ومتعه بجمع الهم وحسن الإقبال فى الحضر ، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل فى تفسير قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لايحتسب) هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شىء من أمر الدين ، فيبعث الله إليه من يحل إشكاله . فإذا ثبت قدمه على شروط البداية ، رزق

وهو في المقام من غير سفر ثمرات النهاية ، فيستقر في الحضر انتهاء وابتداء ، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين .

وأما الذي أدام السفر ، فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك .

يقول بعضهم : اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، ولا تموت إلا بين منزلين .

وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ، ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً ، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله ، فسكان علم الناس ومعرفتهم إياه يراه سبباً ومعلوماً .

وحكى عنه أنه قال : مكثت في البادية أحد عشر يوماً لم آكل ، وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر ، فرأيت الخضر مقبلا نحوى ، فهربت منه ، ثم التفت فإذا هو رجع عنى ، فقيل : لم هربت منه ؟ قال : تشوفت نفسي أن يغيثني . فهؤلاء الفراورن بدينهم .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال : أنا أبو بكر أحمد بن علي قال : أنا أبو عبد الله بن يوسف بن تامويه قال : حدثنا أبو محمد الزهري القاضي قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن أسباط قال : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن عثمان بن عبد الله بن أوس ، عن سليمان بن هرمز ، عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال « أحب شيء إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفراورن بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة » .

وهذه كلها أحوال اختلفت ، واتبع أربابها الصحة وحسن النية مع الله ، وحسن النية يقتضي الصدق ، والصدق لعينه محمود ، كيف تقلبت الأحوال . فمن سافر ينبغي أن يتفقد حاله ، ويصحح نيته ، ولا يقدر على تخليص النية من شوائب النفس إلا كثير العلم ، تام التقوى ، وافر الحظ من الزهد في الدنيا . ومن انطوى على هوى ، ومن لم يستقص في الزهد لا يقدر على تصحيح النية فقد يدعوه إلى السفر نشاط جبلي نفساني ، وهو يظن أن ذلك داعية الحق ، ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس ، ويحتاج الشخص في علم صحة النية إلى

العلم بمعرفة الخواطر ، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه .
ونومىء الآن إلى ذلك ليدركه من نازله شيء من ذلك ، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته على بعد .

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير فى كثير من الأمور ، فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين ، ويكون ذلك الروح مضراً به فى ثانى الحال ، وإن كان يتراءى له طيبة القلب فى الوقت ، وسبب طيبة قلبه فى الوقت أن النفس تنفسح وتتسع ببلوغ غرضها ، وتيسير يسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزه ، وإذا اتسعت بعدت عن القلب ، وتنحت عنه ، متشوفة إلى متعلق هواها ، فيتروح القلب لا بالصحراء بل ببعد النفس منه ، كشخص تباعد عنه قرين يستثقله . ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته ، واستفتح ديوان معاملته ، وميز دستور حاله ، يجد النفس مقارنة القلب بمزيد ثقل موجب لتبرمه بها ، وكلما ازداد ثقلها تكدر القلب . وسبب زيادة ثقلها استرسالها فى تناول هواها ، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء ، ويظن الفقير أنه تروح ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباناً ، وخفت ولطفت وصارت قريناً صالحاً للقلب لايستثقلها . وعلى هذا يقاس التروح بالأسفار . فللنفس وثبات إلى توهم التروحات ، فمن فطن لهذه الدقيقة لا يغتر بالتروحات المستعارة التى لاتحمد عاقبتها ، ولا تؤمن غائلتها ، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر ، ولا يكترث بالخطر ، بل يطرحه بعدم الالتفات ، مسيئاً ظنه بالنفس وتسويلاتها . ومن هذا القبيل والله أعلم قول رسول الله ﷺ « إن الشمس تطلع من بين قرنى الشيطان » فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات ، تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع ، ويطول شرح ذلك ويعمق .

ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة بخلاف العشيات ، فيتشكل اهتزاز النفس بنهضات القلب ، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة ، يدخل فى مداخل باهتزاز نفسه ظناً منه أن ذلك حكم نهوض قلبه ، وربما يتراءى له أنه بالله يصول ، وبالله يقول ، وبالله يتحرك ، فقد ابتلى

بنهضة النفس ووثوبها . ولا يقع هـذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال ، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل . وهذه منزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام ، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه .

وأقل مراتب الفقراء فى مبادى الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة ، وصلاة الاستخارة لاتهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره ، أو تبين له وجه للصلحة فى السفر ببيان أوضح من الخاطر ، فللقوم مراتب فى التبيان من العلم بصحة الخاطر ومما فوق ذلك، ففى ذلك كله لاتهمل صلاة الاستخارة اتباعاً للسنة ففى ذلك البركة ، وهو من تعليم رسول الله ﷺ على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال : أنا أبو القاسم بن عبد الرحمن فى كتابه أن أبا سعيد الكنجرودى أخبرهم قال : أنا أبو عمرو بن حمدان قال : حدثنا أحمد بن الحسين الصوفى قال : حدثنا منصور بن أبى مزاحم قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبى للوالى عن محمد ابن للنكدر عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال : إذا هم أحدكم بالأمر أو أراد الأمر فليصل ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل:اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمر — يسميه بعينه — خير لى فى دينى ومعاشى ومعادى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله ، فاقدره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلمه شراً لى مثل ذلك فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان » .

الباب السابع عشر

فيما يحتاج إليه الصوفى فى سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه وإن كان هذا يذكر فى كتب الفقه ، وهذا الكتاب غير موضوع لذلك ، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمناً بذكر الأحكام الشرعية التى هى الأساس الذى يبنى عليه :

لابد للصوفى للمسافر من علم التيمم ، وللمسح على الخفين ، والقصر ، والجمع فى الصلاة .

أما التيمم فجائز للمريض والمسافر فى الجنابة والحدث عند عدم الماء ، أو الخوف من استعماله تلفاً فى النفس أو المال ، أو زيادة فى المرض على القول الصحيح من المذاهب ، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه ، أو عطش دابته أو رفيقه . ففى هـــذه الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه . والخائف من البرد يصلى بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح . ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء فى مواضع الطلب ، ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر فى منزله للاحتطاب والاحتشاش ، ويكون الطلب بعد دخول الوقت، والسفر القصير فى ذلك كالطويل . وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء فى آخر الوقت جاز على الأصح ، ولا يعيد مهما صلى بالتيمم ، وإن كان الوقت باقياً ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه ، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك ، وإن رأى الماء فى أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة ، ويستحب له الخروج منها واستئنافها بالوضوء على الأصح . ولا يتيمم للفرض قبل دخول الوقت ، ويتيمم لكل فريضة ، ويصلى مهما شاء من النوافل بتيمم واحد . ولا يجوز أداء الفرض بتيمم النافلة . ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصلى ويعيد عند وجود أحدهما ، ولكن إن كان محدثاً لا يمس المصحف ، وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن فى الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة . ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والجص ، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب، ويسمى الله تعالى عند التيمم ، وينوى استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ،

ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح جميع الوجه ، فلو بقى شىء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم ، ويضرب ضربة اليدين مبسوط الأصابع، ويعم بالتراب محل الفرض ، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعداً كيف أمكنه لابد أن يعم التراب محل الفرض ، ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين ، ويمر اليد على ما نزل من اللحية من غير إيصال التراب إلى للنابت .

وأما المسح فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن فى السفر ، وللمقيم يوماً وليلة ، وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف . لامن حين لبس الخف، ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف بل يحتاج إلى كمال الطهارة حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لايصح أن يمسح على الخف . ويشترط فى الخف إمكان متابعة المشى عليه ، وستر محل الفرض ، ويكفى مسح يسير من أعلى الخف ، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار . ومتى ارتفع حكم المسح بانقضاء المدة أو ظهور شىء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح . والماسح فى السفر إذا أقام يمسح كالمقيم ، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر . واللبد إذا ركب جورباً ونعل يجوز المسح عليه ، ويجوز على المشرج إذا ستر محل الفرض ، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذى يستر بعض القدم به والباقى باللفافة .

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر فى وقت إحداهما ، ويتيمم لكل واحدة ، ولا يفصل بينهما بكلام وغيره . وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء ، ولا قصر فى المغرب والصبح ، بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع . والسنن الرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين الظهر والعصر، وبعد الفراغ من الفريضتين يصلى ما يصلى بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً ، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدى السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما .

ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازى ،

ويجوز ذلك فى السنن الرواتب والنوافل ، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة ، وفى الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون فى عمارة وغير ذلك ، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا القبلة ، حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليـه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته .

والماشى يتنفل فى السفر ، ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام ، لا يجزئه فى الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود . وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً .

وإذا أصبح المسافر مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم فى الصوم ، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام . والصوم فى السفر أفضل من الفطر . وفى الصلاة القصر أفضل من الإتمام .

فهذا القدر كاف للصوفى أن يعلمه من حكم الشرع فى مهام سفره .

فأما المندوب والمستحب فينبغى أن يطلب لنفسه رفيقاً فى الطريق يعينه على أمر الدين . وقد قيل : الرفيق ثم الطريق . ونهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده ، إلا أن يكون صوفياً عالماً بآفة نفسه ، يختار الوحدة على بصيرة من أمره ، فلا بأس بالوحدة .

وإذا كانوا جماعة ينبغى أن يكون فيهم متقدم أمير . قال رسول الله ﷺ « إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمروا أحدكم » والذى يسميه الصوفية بيشر وهو الأمير ، وينبغى أن يكون الأمير أزهد الجماعة فى الدنيا ، وأوفرهم حظاً من التقوى ، وأتمهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة .

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه » .

نقل عن عبد الله المروزى أن أبا على الرباطى صحبه فقال : على أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبى على على ظهره ، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه

يغطيه بكسائه عن المطر ، وكلما قال لا تفعل يقول ألست الأمير وعليك الانقياد والطاعة .

فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز ليتسلط على الخدام فى الربط ، ويبلغ نفسه هواها ، فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المباينين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فيتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا ، يجتمعون لتحصيل أغراض النفس ، والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس ، ولا يخلو اجتماعهم هذا عن الخوض فى الغيبة ، والدخول فى المداخل المكروهة ، والتنقل فى الربط ، والاستمتاع والنزهة ، وكلما كثر المعلوم فى الرباط أطالوا المقام وإن تعذرت أسباب الدين ، وكلما قلّ المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ويدعو لهم بدعاء رسول الله ﷺ .

قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة فلما أردت مفارقته شيعنى وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال لقمان لابنه يابنى إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه ، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » .

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة » .

وروى عنه عليه السلام أيضاً أنه كان إذا ودع رجلا قال « زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك للخير حيثما توجهت » .

وينبغى أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه ، فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك ، فقال الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به ، فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما فى بطنك ،

فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت ، فجلسنا نتحدث ، فإذا نار تلوّح على قبرها ، فقلت للقوم : ماهذه النار؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت: والله إنها كانت صوامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج ، وإذا هـذا الغلام يدب ، فقيل : إن هذا وديعتك ، ولو كنت استودعتنا أمه لوجدتها . فقال عمر : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب .

وينبغى أن يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول : اللهم زودنى التقوى ، واغفرلى ذنوبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت .

وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لاينزل منزلا إلا ودعه بركعتين .

فينبغى أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين .

وإذا ركب الدابة فليقل: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، بسم الله والله أكبر توكلت على الله ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، اللهم أنت الحامل على الظهر ، وأنت المستعان على الأمور .

والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدىء بيوم الخميس .

روى كعب بن مالك قال : قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس . وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار .

ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول: اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وماذرين ، ورب البحار وما جرين ، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين .

ومما ينبغى للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة .

قيل : كان إبراهيم الخواص لا يفارقه أربعة أشياء فى الحضر والسفر : الركوة ، والحبل ، والإبرة وخيوطها ، والمقراض .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة ، والمكحلة ، والمدرى ، والسواك ، والمشط . وفى رواية : المقراض .

والصوفية لا تفارقهم العصا ، وهى أيضاً من السنة . روى معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ « أن اتخذ منبراً فقد اتخذ إبراهيم ، وأن اتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى » .

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء . كان لرسول الله ﷺ عصاً يتوكأ عليها ، ويأمر بالتوكؤ على العصا .

وأخذ الركوة أيضاً من السنة . روى جابر بن عبد الله قال : بينا رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه ، أى أسرعوا نحوه . والأصل فيه البكاء كالصبى يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء . قال فقال رسول الله ﷺ « مالكم ؟ » قالوا يارسول الله مانجد ماء نشرب ولا نتوضأ به إلا مابين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون . قال فتوضأ القوم منه . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة فى غزوة الحديبية .

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة . روى أبو سعيد قال : حج رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال « اربطوا على أوساطكم بأزركم » فربطنا ومشينا خلفه الهرولة .

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلى ركعتين فى أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا يودع البقعة بالركعتين ، ويقدم الخف وينفضه ، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى ، ثم يأخذ الميانبند الذى يشد به وسطه ، ويأخذ خريطة المداس وينفضها ، ويأتى الموضع الذى يريد أن يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين ، ويحك نعل أحد المداسين بالآخر ، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين ، ويضع المداس فى الخريطة أعقابه إلى أسفل ، ويشد رأس الخريطة ، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر ، ويضعه خلف ظهره ثم يقعد على السجادة ، ويقدم الخف بيساره وينفضه ، ويبتدىء باليمنى فيلبس ، ولا يدع شيئاً من الران أو المنطقة يقع على الأرض ، ثم يغسل يديه ويجمل وجهه إلى الموضع الذى يخرج منه ، ويودع الحاضرين ، فإن

أخذ بعض الإخوان راويته إلى خارج الرباط لا يمنعه ، وهكذا العصا والإبريق ، ويودع من شيعه ثم يشد الراوية برفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ، ويشد الراوية على الجانب الأيسر ، ويكون كتفه الأيمن خالياً ، وعقدة الراوية على الجانب الأيمن ، فإذا وصل فى طريقه إلى موضع شريف ، أو استقبله جمع من الإخوان ، أو شيخ من الطائفة ، يحل الراوية ويحطها ، ويستقبلهم ويسلم عليهم ، ثم إذا جاوزوه يشد الراوية ، وإذا دنا من منزل ورباطا كان أو غيره يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر ، وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره . وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل ، ولا يتعهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب ، ويجرى بين الفقراء مشاحنة فى رعايتها ، فمن لا يتعاهدها يقول هذه رسوم لا تلزم ، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق ، ومن يتعهدها يقول : هذه آداب وضعها المتقدمون ، وإذا رأوا من يخل بها أو بشىء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ، ويقال : هذا ليس بصوفى ، وكلا الطائفتين فى الإنكار يتعدون الواجب . والصحيح فى ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه ، فليس بمنكر فى الشرع ، وهو أدب حسن . ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه ، فليس بواجب فى الشرع ولا مندوب إليه . وكثير من فقراء خراسان والجبل يبالغ فى رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط . وكثيراً ما يخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط .

والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر ، وما لا ينكره لا ينكر ، ويجعل لتصاريف الإخوان أعذاراً ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه ، والله الموفق .

الباب الثامن عشر

فى القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغى للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام ، كما يستعيذ به من وعثاء السفر .

ومن الدعاء المأثور : اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد .

وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها يشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات ، ويقرأ من القرآن ما تيسر ، ويجعله هدية للأحياء والأموات ويكبر ، فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ويقول إذا رأى البلد « اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » .

ولو اغتسل كان حسناً اقتداء برسول الله ﷺ حيث اغتسل لدخول مكة .

وروى أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع لامته واغتسل واستحم . وإلا فليجدد الوضوء ، ويتنظف ويتطيب ، ويستعد للقاء الإخوان بذلك ، وينوى التبرك عن هنالك من الأحياء والأموات ويزورهم .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خرج رجل يزور أخاً له فى الله فأرصد الله بمدرجته ملكا وقال : أين تريد ؟ قال : أزور فلاناً ، قال: لقرابة ؟ قال: لا ، قال: لنعمة له عندك تشكرها ؟ قال : لا ، قال : فيم تزوره ؟ قال : إنى أحبه فى الله . قال : فإنى رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا عاد الرجل أخاه أو زاره فى الله ، قال الله له: طبت وطاب ممشاك ، وتبوأ من الجنة منزلا »

وروى أن رسول الله ﷺ قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة» .

فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك .

فإذا دخل البلد يبتدىء بمسجد من المساجد يصلى فيه ركعتين، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل . وقد كان رسول الله ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت . والرباط للفقير بمنزلة البيت . ثم يقصد الرباط ، فقصده الرباط من السنة على ما رويناه عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، وإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت ممن أنزل الصفة .

فإذا دخل الرباط يمضى إلى الموضع الذى يريد نزع الخف فيه ، فيحل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار ، ويحل رأس الخريطة باليمين ، ويخرج المداس باليسار ، ثم يضع المداس على الأرض ، ويأخذ المیانيد ويلقيها فى وسط الخريطة ، ثم ينزع خفه اليسار ، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق . وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما انطوى ، ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين ، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة .

وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسنها بعض الصوفية لا ينكر على من يتقيد بها ، لأنه من استحسان الشيوخ ، ونيتهم الظاهرة فى ذلك تقييد المريد فى كل شىء بهيئة مخصوصة ، ليكون أبداً مفتقداً لحركاته ، غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب . ومن أخل من الفقراء بشىء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة . وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية فى الأشياء غلط ، فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكمامه وقد كان فى السفر لم يشمر الأكمام ، فينبه أن لا يتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعاً . وكون الآخر يشمر الأكمام يقيس

ذلك على شد الوسط ، وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله ﷺ أوساطهم فى سفرهم بين المدينة ومكة . فتشمير الأكمام فى معناه من الخفة والارتفاق به فى المشى ، فمن كان مشدود الوسط مشمراً يدخل الرباط كذلك ، ومن لم يكن فى السفر مشدود الوسط أو كان راكباً لم يشد وسطه ، فمن الصدق أن يدخل كذلك ، ولا يتعمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق ، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق .

ومما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدئون بالسلام ويقول المنكر هذا خلاف المندوب . ولا ينبغى للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه . وتركهم السلام يحتمل وجوها أحدها أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وقد روى عبد الله بن عمر قال : مر رجل على النبي ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى ، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد على الرجل السلام وقال « إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام إلا أنى لم أكن على طهر » وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال « إنى كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر » .

وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين فى السفر ، وقد يتفق لأحدهم حدث ، فلو سلم المتوضىء وأمسك المحدث ظهر حاله فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ ، ويغسل قدمه من يغسل ستراً للحال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله ﷺ . وقد يكون بعض المقيمين أيضاً على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضاً بالطهارة ، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه فى ذلك .

ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان ، وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم ويعانقهم .

ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ، فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله

واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس ، وقد قال الله تعالى (حتى تستأنسوا) واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم .

ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم ، بل هم إخـوانه ، والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم فى طريق واحد ، والمنزل منزله ، والموضع موضعه ، فيرى البركة فى استفتاح المنزل بعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما عهد عذرهم فى ترك السلام ينبغى لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدىء بالسلام ، فـكما أن من ترك السلام له نية فالذى سلم له أيضاً نية .

وللقوم آداب ورد بها الشرع ، ومنها آداب استحسنها شيوخهم ، فما ورد به الشرع ماذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة والابتداء باليمين فى لبس الخف وفى نزعه باليسار .

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا انتعلتم فابدؤا باليمين ، وإذا خلعتم فابدؤا باليسار أو اخلعهما جميعاً أو انعلهما جميعاً » .

روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ، ويلبس اليمنى قبل اليسرى .

وبسط السجادة وردت به السنة ، وقد ذكرناه . وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون . وقد ورد فى حديث طويل « لا يؤم الرجل فى سلطانه ولا فى أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه » .

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبى صلى الله عليه وسلم . وإن قبلهم فلا بأس بذلك .

روى أن رسول الله ﷺ لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال: ما أنا بفتح خيبر أسر منى بقدوم جعفر .

ويصافح إخوانه ، فقد قال عليه السلام « قبلة المسلم أخاه المصافحة » .

وروى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأخاه ينحنى له ؟ قال : لا . قيل : يلزمه ويقبله ؟ قال : لا ، قيل : فيصافحه؟ قال: نعم»

ويستحب للفقراء المقيمين فى الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب .

روى عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ يوم جئته « مرحباً بالراكب المهاجر » مرتين .

وإن قاموا إليه فلا بأس ، وهو مسنون .

روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه .

ويستحب للخادم أن يقدم له الطعام .

روى لقيط بن صبرة قال : وفدنا على رسول الله ﷺ فلم نصادفه فى منزله ، وصادفنا عائشة رضى الله عنها ، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا ، وأتينا بقناع فيه تمر ، والقناع الطبق ، فأكلنا ، ثم جاء رسول الله ﷺ فقال « أصبتم شيئاً ؟ قلنا : نعم يارسول الله » .

ويستحب للقادم أن يقدم للفقراء شيئاً لحق القدوم .

ورد أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزوراً .

وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر ، وجهه من السنة منع النبى ﷺ عن طروق الليل .

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والانكباب على الأذكار والاستغفار .

روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن أهله ليلا » .

وروى كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً فى الضحى .

فيستحبون القدوم فى أول النهار فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم فى المشى أو غير ذلك فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق ، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدوم أول النهار ، فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم . فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملا بالسنة للقدوم ضحوة .

وأيضاً فيه معنى آخر ، وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة ، ومن

الأدب أن يصلى القادم ركعتين ، فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر .

وقد يكون من الفقراء القادمين من يكون قليل الدراية بدخول الرباط وينال دهشة ، فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة ، ففى ذلك فضل كثير .

روى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت يارسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه ، لا يدرى ما دينه ، قال: فأقبل النبى ﷺ علىّ وترك خطبته ، ثم أتى بكرسى قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلمنى مما علمه الله ثم أتى خطبته وأتم آخرها .

فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين ، واحتمال المكروه من المسموع والمرئى . وقد يدخل فقير بعض الربط ، ويخل بشىء من مراسم المتصوفة ، فينهر ويخرج ، وهذا خطأ كبير ، فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هـــذا الترسم الظاهر ، ويقصدون الرباط بنية صالحة ، فإذا استقبلوه بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى ، ويدخل على المنكر عليه ضرر فى دينه ودنياه ، فليحذر ذلك وينظر إلى أخــلاق النبى ﷺ ، وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق . وقد صح أن أعرابياً دخل المسجد وبال ، فأمر النبى عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم ينهر الأعرابى ، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين .

والفظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل ، من النفوس الخبيثة ، وهو ضد حال المتصوفة . ومن دخل الرباط ممن لايصلح للمقام به رأساً ، يصرف من الموضع على ألطف وجه بعد أن يقدم له طعام ، ويحسن له الكلام ، فهذا الذى يليق بسكان الرباط ، وما يعتمده الفقراء من تغميز القادم لخلق حسن ومعاملة صالحة ، وردت به السنة . روى عمر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وغـــلام له حبشى يغمز ظهره ، فقلت يارسول الله ماشأنك ؟ فقال : إن الناقة اقتحمت بى .

فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز فى وقت تعبه وقـدومه من السفر ، فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز ، ويستجلب به النوم ويساكنه حتى

لايفوته ، فلا يليق بحال الفقراء ، وإن كان فى الشرع جائزاً . وكان بعض الفقراء إذا استرسل فى الغمز واستلذه واستدعاه يحتلم فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله فى التغميز . ولأرباب العزائم أمور لا يسعهم فيها الركون إلى الرخص .

ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يبتدىء بالكلام دون أن يسئل . ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة ومشهداً أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة ، حتى يذهب عنه وعثاء السفر ، ويعود باطنه إلى هيئته ، فقد يكون بالسفر وعوارضه تغير باطنه وتكدر ، حتى تجتمع فى الثلاثة الأيام همته ، وينصلح باطنه ، ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير الباطن ، فإن باطنه إذا كان منوراً يستوفى حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره .

وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ويقول : لاتتكلموا أهل هذا الطريق إلا فى أصفى أوقاتكم . وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونور السمع على قدر نور القلب ، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغى أن يستأذنه إذا أراد الانصراف ، فقد روى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقومن حتى يستأذنه » وإن نوى أن يقيم أياماً وفى وقته سعة ، ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف بطلب خدمة يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه ، فكفى بالعبادة شغلا ، لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة . ولايخرج من الرباط إلا بإذن المتقدم فيه ، ولايفعل شيئاً دون أن يأخذ رأيه فيه . فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الربط ، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقاً وتأديباً .

الباب التاسع عشر

فى حال الصوفى المتسبب

اختلف أحوال الصوفية فى الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب . فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ، ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ، ومنهم من كان يكتسب ، ومنهم من كان يسأل فى وقت فاقته ، ولهم فى كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه . وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى فى الذى يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا ينبغى للفقير أن يسأل مهما أمكن ، فقد حث النبى عليه السلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب . فأما الترغيب فما روى ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « من يضمن لى واحدة أتكفل له الجنة . قال ثوبان : قلت : أنا . قال : لا تسأل الناس شيئاً » فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحداً يناوله ، وينزل هو ويأخذها .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه ، فإن اليد العليا خير من السفلى » .

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل الحافظ المقدسى قال : أخبرنى والدى قال : أنا أبو محمد الصيرفى ببغداد قال : أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدثنا على ابن الجعد قال : حدثنا شعبة عن أبى حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال : أتيت المدينة فنزلت دار أبى سعيد فضمنى وإياه المجلس ، فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام ، فأصبح وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع فقالت لى امرأتى : ائت رسول الله ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه . قال فأتيته وقلت ألتمس شيئاً ، فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ويقول « من يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن سألنا شيئاً فوجدناه أعطيناه وواسيناه ، ومن استعف عنه واستغنى

فهو أحب إلينا ممن سألنا » قال فرجعت وماسألته ، فرزقني الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا .

وأما من حيث الترهيب والتحذير ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذى ترده الأكلة والأكلتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لايسأل الناس ، ولايفطن بمكانه فيعطى » .

هذا هو حال الفقير الصادق وللتصوف المحقق لايسأل الناس شيئاً .

ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحيي من الله تعالى أن يسأله شيئاً من أمر الدنيا ، حتى إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة ، ويرى الإقدام على السؤال جراءة ، فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال ، كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه جاءه جبريل وهو فى الهواء قبل أن يصل إلى النار فقال : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فقال له : فسل ربك ، فقال : حسبي من سؤالى علمه بحالى : وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه من القسم من غير سؤال مخلوق .

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول : إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشىء ، لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه ، فتتنبه النفس له ، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ماسوف يحدث وكأنها تخبر عما يكون ، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنب وجد منه ، فإذا وجد الفقير ذلك ، وألحت النفس بالمطالبة ، فليقم وليسبغ الوضوء ، ويصلى ركعتين ويقول : يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فأستغفرك وأتوب إليك ، وإن كانت لرزق قدرته لى فعجل وصوله إلىّ ، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه ، وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه . فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق ، فإما أن يرزقه الشىء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه . فلله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة، وأبواب من طريق القدرة ، فإذفتح

باباً من طريق الحكمة وإلا فيفتح باباً من طريق القدرة ويأتيه الشيء بخرق العادة كما كان يأتي مريم عليها السلام (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله).

حكى عن بعض الفقراء قال : جعت ذات يوم وكان حالي أن لا أسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازاً متعرضاً لعل الله تعالى يفتح لي على يد بعض عباده شيئاً ، فلم يقدر ، فنمت جائعاً فأتى آت في منامي فقال لي : اذهب إلى موضع كذا وعين الموضع فثم خرقة زرقاء فيها قطيعات أخرجها في مصالحك .

فمن تجرد عن المخلوقين وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لا يعجزه شيء ، يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء . وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل ، فإن الصادق تجيبه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ، قال : فقلت له : ما تفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ثم قال : عن إذنك أذهب وأستقرض الحبة ، قال : قلت : نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إن شئت أن تستقرض المال منفقاً على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت فكل منوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفد الفقير الجهد من نفسه ، وأشرف على الضعف ، وتحققت الضرورة ، وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ، ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله ، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل ، فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم .

نقل عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شيء لله .

ونقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذاً للجنيد أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن أدهم أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة ، وكان يفطر فى كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب .

ونقل عن سفيان الثورى أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل فى الطريق، وقال : كنت أذكر لهم حديثاً فى الضيافة فيقدم إلى الطعام ، فأتناول حاجتى ، وأترك ما يبقى .

وقد ورد : من جاع ولم يسأل فمات دخل النار . ومن عنده علم وله مع الله حال لايبالى بمثل هذا ، بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم .

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصراً على المعاصى ثم انتبه وتاب وحسنت توبته ، وصار له حال مع الله تعالى ، قال : عزمت أن أحج مع القافلة، ونويت أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأكتفى بعلم الله بحالى . قال : فبقيت أياماً فى الطريق ففتح الله علىّ بالماء والزاد فى وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله علىّ بشىء ، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة ، فضعفت عن المشى. وبقيت أتأخر عن القافلة قليلا قليلا حتى مرت القافلة ، فقلت فى نفسى : هذا الآن منى إلقاء النفس إلى التهلكة وقد منع الله من ذلك ، وهذه مسألة الاضطرار أسأل ، فلما هممت بالسؤال انبعث من باطنى إنكار لهذه الحال ، وقلت عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها ، وهان علىّ الموت دون نقض عزيمتى ، فقصدت شجرة وقعدت فى ظلها ، وطرحت رأسى استطراحاً للموت، وذهبت القافلة . فبينا أنا كذلك إذ جاءنى شاب متقلد بسيف وحركنى ، فقمت وفى يده أداوة فيها ماء فقال لى اشرب ، فشربت ثم قدم لى طعاماً وقال كل ، فأكلت، ثم قال لى أتريد القافلة ؟ فقلت من لى بالقافلة وقد عبرت ؟ فقال لى قم ، وأخذ بيدى ومشى معى خطوات ثم قال لى: اجلس فالقافلة إليك تجىء ، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورائى متوجهة إلىّ . هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق .

وذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله أن بعض الصوفية أول قول رسول الله ﷺ « أحل ما أكل المؤمن من كسب يده » بأنه المسألة عند الفاقة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفى ، وذكر أن جعفراً الخلدى كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع

لى والله أعلم أن الشيخ الصوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة ، فهو من أحل ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله ، وساق إليه رزقه .

وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال .

وقال محمد الباقر رحمه الله : قالها وإنه محتاج إلى شق تمرة .

وروى عن مطرف أنه قال : أما والله لو كان عند نبى الله شىء ما اتبع المرأة ، ولكن حمله على ذلك الجهد .

وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى عن النصراباذى أنه قال فى قوله (إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) لم يسأل الكليم الخلق ، وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل غذاء النفس ، إنما أراد سكون القلب .

وقال أبو سعيد الخراز : الخلق مترددون بين مالهم وبين ما إليهم ، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والفخر . ألا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال : (أرنى أنظر إليك) ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : (إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) .

وقال ابن عطاء : نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع ، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار ، افتقار العبد إلى مولاه فى جميع أحواله ، لا افتقار سؤال وطلب .

وقال الحسين: فقير لما خصصتنى من علم اليقين أن ترقينى إلى عين اليقين وحقه.

ووقع والله أعلم فى قوله (لما أنزلت إلىّ من خير فقير) أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة القرب ، فيكون الإنزال عين الفقر ، فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل ، ومن صح فقره ، ففقره فى أمر آخرته كفقره فى أمر دنياه ، ورجوعه إليه فى الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين ، وتتساوى عنده الحاجتان ، فما له مع غير الله شغل فى الدارين .

الباب العشرون

فى ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفى بالله ، وكمل زهده لكمال تقواه ، يحكم الوقت عليه بترك التسبب ، وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ، ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه ، حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقاً مما هو منهى عنه فى الشرع ، يجد غب ذلك فى وقته أو يومه .

كان يقول بعضهم : إنى لأعرف ذنبى فى سوء خلق غلامى .

وقيل : إن بعض الصوفية قرض الفأر خفه فلما رآه تألم وقال :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شىء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية ، حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ، ومخالفة حكم الوقت ، ويتجرد له حكم فعل الله ، وتنمحى عنده أفعال غير الله ، فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقاً وحالا لا علماً وإيماناً ، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ، ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق ، فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة ، فوقف متعجباً منها ، متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجتان ، فى إحداهما سمسم نقى وفى الأخرى ماء صاف ، فأكلت من السمسم وشربت من الماء ، ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان . قال : فلما رأيت ذلك سقط عن قلبى الاهتمام بالرزق .

فإذا أوقف الحق عبده فى هذا المقام ، يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام ، ويرى الدخول فى التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام ، ويصير

مسلوب الاختيار ، غير متطلع إلى الأغيار ، ناظراً إلى فعل الله تعالى ، منتظراً لأمر الله فتساق إليه الأقسام ، ويفتح عليه باب الإنعام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله ، وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال ، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب ، ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات ، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة فى هذه التجليات إلى رتب فى اليقين ، ومقامات فى التوحيد شىء فوق شىء وشىء أصفى من شىء . فالتجلى بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم ، والتجلى بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس ، والتجلى بالذات يكسب الفناء والبقاء .

وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء ، يعنون به فناء الإرادة والهوى ، والإرادة ألطف أقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود ، يكون فى تجلى الذات ، وهو أكمل أقسام اليقين فى الدنيا ، فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا فى الآخرة ، وهو المقام الذى حظى به رسول الله ﷺ ليلة المعراج ، ومنع عنه موسى بلن ترانى .

فليعلم أن قولنا فى التجلى إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة ، فإذا وصل العبد إلى مبادى أقسام التجلى ، وهو مطالعة الفعل الإلهى مجرداً عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « من وجه إليه شىء من هذا الرزق من غير مسألة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به فى رزقه ، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه » .

وفى هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره . وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى . ثم إذا أخذ فنهم من يخرجه إلى المحتاج ، ومنهم من يقف فى الإخراج أيضاً حتى يرد عليه من الله علم خاص ، ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أنبأنا والدى الحافظ أبو الفضل

المقدسى قال: أنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال: أنا محمد بن عبد الرحمن ابن سعيد قال: أنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال: أنا يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويطب بن عبد العزى عن عبيد الله السعدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر منى، فقال رسول الله ﷺ: «خذه فتموله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشرف ولا سائل فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك» قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه.

درج رسول الله ﷺ الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى، والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى.

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن علم الحال قال: هو ترك التدبير، ولو كان هذا فى واحد لكان من أوتاد الأرض.

وروى زيد بن خالد قال: قال رسول الله ﷺ «من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شىء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه.

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى فى قبول ما ساق الحق آمن ما يخشى عليه إنما يخشى على من يرد، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد، فى أخذه إسقاط نظر الخلق تحققاً بالصدق والإخلاص، وفى إخراجه إلى الغير إثبات حقيقة فلا يزال فى كلا الحالين زاهداً يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله، وفى هذا المقام يتحقق الزهد فى الزهد.

ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه، فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه، ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل، ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم لتمام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته، وعلم حاله فى ترك الاختيار، ومنهم من يدخل الفتوح

عليه لا بتقدمة العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ، ولكن يرزق شرباً من المحبة بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شرب هذا بتغير معهود النعمة ، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين ، لأنه علة فى المحبة ووليجة فى الصدق عند الصديقين .

وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم فى الإخراج أيضاً ، كما ينتظر فى الأخذ ، لأن النفس تظهر فى الإخراج كما تظهر فى الأخذ . وأتم من هذا من يكون فى إخراجه مختاراً ، وفى أخذه مختاراً بعد تحققه بصحة التصرف ، فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس ، وهو ببقية هوى موجود ، فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج إلى علم متجدد ، ويخرج كذلك . وهذا حال من تحقق بقول رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه « فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى ينطق » الحديث .

فلما صح تعرفه صح تصرفه ، وهذا أعز فى الأحوال من الكبريت الأحمر .

وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول : أنا لا آكل إلا من طعام الفضل ، فكان يرى الشخص فى المنام أن يحمل اليه شيئاً وقد كان يعين للرائى فى المنام أن احمل إلى حماد كذا وكذا . وقيل إنه بقى زماناً يرى هو فى واقعته أو منامه أنك أحلت على فلان بكذا وكذا .

وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء ، ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق . ومن كانت هذه حالته فهو غنى بالله .

قال الواسطى : الافتقار إلى الله أعلى درجة المريدين ، والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين .

وقال أبو سعيد الخراز : العارف تدبيره فنى فى تدبير الحق . فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله .

وأحسن ما حكى فى هذا أن بعضهم رأى النورى يمد يده ويسأل الناس

قال : فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له ، فأتيت الجنيد فأخبرته فقال لى : لايعظم هـذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة ، فيؤجرون من حيث لايضره .

وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ ، لأنه يعطى الثواب .

قال : ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال احملها إليه ، فقلت فى نفسى : إنما يزن ليعرف مقدارها فكيف خلط المجهول بالموزون وهو رجل حكيم ، واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالبصرة إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال : ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك شيئاً ، وأخذ مازاد على المائة . قال فزاد تعجبى ، فسألته عن ذلك فقال : الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ، وزن المائة لنفسه طلباً للثواب ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله ، فأخذت ما كان لله ورددت ماجعله لنفسه . قال فرددتها على الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا .

ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون إلى شىء من المعلوم ، فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى ، وما يفتح الله تعالى لكم ائتونى به ، ففعلوا ، ثم جاءه من بينهم شخص يعرف باسماعيل البطائحى ، ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة ، وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى ، فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدى الشيخ ، ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحاً ، فترك كل صحيح على دائرة وقال هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلاماً هذا معناه .

وسمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقال لفلان عندك طعام وذهب ، ائتنى من ذلك بكذا ذهباً وكذا طعاماً ، فقال الرجل : كيف أتصرف فى وديعة عندى ولو استفتيتك ما أفتيتنى فى التصرف ؟ فألزمه الشيخ بذلك ، فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب فى بعض نواحى العراق أن احمل إلى

الشيخ عبد القادر كذا وكذا ، وهو القدر الذى عينه الشيخ عبد القادر ، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال : ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم .

فالعبد إذا صح مع الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ، ويجعل الغنى فى قلبه ، ويفتح عليه أبواب الرفق ، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء ، لسكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية . فعلى قدر ماخلت من الهم بالله ابتليت بهم الدنيا ، ولو امتلأت من هم الله ماعذبت بهموم الدنيا وقنعت وارتفقت .

روى أن عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقاً ، وكان يكون عند كل واحد يوماً ، وآخر كان له ثلاثون صديقاً ، يكون عند كل واحد يوماً ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد ، فكان إخوانهم معلومهم ، والمعلوم إذا أتاه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيده يكون نعمة هنيئة .

جاء رجل إلى الشيخ أبى السعود رحمه الله وكان من أرباب الأحوال السنية ، والواقفين فى الأشياء مع فعل الله تعالى ، متمكناً من حاله ، تاركا لاختياره ، ولعله سبق كثيراً من المتقدمين فى تحقيق ترك الاختيار ، رأينا منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين ، فقال له الرجل : أريد أن أعين لك شيئاً كل يوم من الخبز أحمله إليك ، ولكنى قلت : الصوفية يقولون للمعلوم شؤم ، قال الشيخ : نحن ما نقول للمعلوم شؤم ، فإن الحق يصفى لنا ، وفعله نرى ، فكل مايقسم لنا نراه مباركا ولا نراه شؤماً .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازى إجازة قال : أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال : سمعت أبا بكر بن شاذان قال : سمعت أبا بكر الكتانى قال : كنت أنا وعمرو المكى وعياش بن المهدى نصطحب ثلاثين سنة ، نصلى الغداة على طهر العصر ، وكنا قعوداً بمكة على التجريد ، مالنا على الأرض ما يساوى فلساً ، وربما كان يصحبنا الجوع يوماً ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل أحداً ، فإن ظهر لنا شىء وعد

وجهه من غير سؤال ولاتعريض قبلناه وأكلناه ، وإلا طوينا ، فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا النقصان فى الفرائض قصدنا أبا سعيد الخراز فيتخذ لنا ألواناً من الطعام ، ولا نقصد غيره ، ولا تنبسط إلا إليه ، لما نعرف من تقواه وورعه .

وقيل لأبى يزيد : ما نراك تشتغل بكسب ، فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاى يرزق الكلب والخنزير ، تراه لا يرزق أبا يزيد .

قال السلمى : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت مظفراً القرميسنى يقول : الفقير الذى لا يكون له عند الله حاجة .

وقيل لبعضهم : ما الفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ، ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يده ، ومن قبل من الوسائط فهو للترسم بالفقر مع دناءة همته .

أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى قال : أنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال : أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال : أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال : سمعت أحمد بن على ابن جعفر يقول سمعت أن أبا سليمان الدارانى كان يقول : آخر إقدام الزاهدين أول إقدام المتوكلين .

روى أن بعض العارفين زهد ، فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتينى رزق ، فأخذ يسيح ، فأقام فى سفح جبل سبعاً لم يأته شىء حتى كاد أن يتلف ، فقال يارب إن أحييتنى فأتنى برزقى الذى قسمت لى ، وإلا فاقبضنى إليك ، فألهمه الله تعالى فى قلبه : وعزتى وجلالى لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ، فدخل المدينة وأقام بين ظهرانى الناس ، فجاء هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فأكل وشرب ، فأوجس فى نفسه من ذلك ، فسمع هاتفاً : أردت أن تبطل حكمته بزهدك فى الدنيا ، أما علمت أن رزق العباد بأيدى العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدى القدرة .

فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدى الآدميين وأيدى الملائكة ، واستوى عنده القدرة والحكمة ، وطلب القفار ، والتوصل إلى قطع الأسباب ، من الارتهان برؤية الأسباب . وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب فى عين الإنسان .

أخبرنا شيخنا قال : أنا أبو حفص عمر قال : أنا أبو عبد الرحمن قال : أنا محمد بن أحمد بن حمدان المكبرى قال : سمعت أحمد بن محمود بن اليسرى يقول : سمعت محمداً الإسكاف يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول : من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين .

قال بعض المنقطعين : كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها ، فخالك فى صدرى من أين المعاش ، فهتف بى هاتف لا أراه : تنقطع إلىّ وتتهمنى فى رزقك ؟ علىّ أن أخدمك وليـاً من أوليائى ، أو أسخر لك منافقاً من أعدائى ، فلما صح حال الصوفى ، وانقطعت أطماعه ، وسكنت عن كل تشوف وتطلع ، خدمته الدنيا ، وصلحت له الدنيا خادمة ، وما رضيها مخدومة .

فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنباً .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن فى ذلك الموضع من يحمله ، فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته ، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف ، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر ، فقال أحمد لابنه صالح : ادفع إلى أيوب من الخبز ، فدفع له رغيفين ، فردهما ، قال أحمد : ضعهما ، ثم صبر قليلا ، ثم قال : خذهما فالحقه بهما ، فلحقه فأخذهما ، فرجع صالح متعجباً ، فقال له أحمد : عجبت من رده وأخذه ؟ قال: نعم ، قال : هذا رجل صالح ، فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ، ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل .

هـذا حال أرباب الصدق ، إن سألوا سألوا بعلم ، وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بعلم ، فمن لم يرزق حال الفتوح فله

حال السؤال والكسب بشرط العلم . فأما السائل مستكثراً فوق الحاجة لا فى وقت الضرورة فليس من الصوفية بشىء .

سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل ، فقال لمن عنده : ألم أقل لك عش السائل ؟ فقال : قد عشيته ، فنظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزاً ، فقال عمر : ألك عيال ؟ فقال : لا ، فقال عمر : لست بسائل ولكنك تاجر ، ثم نثر مخلاته بين يدى أهل الصدقة وضربه بالدرة .

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إن لله تعالى فى خلقه مثوبات فقر ، وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ، ويطيع ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ، ويعصى ربه ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء .

فحال الصوفية حسن الأدب فى السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب .

الباب الحادي والعشرون

في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفي يتزوج لله كما يتجرد لله ، فلتجرده مقصد وأوان ، ولتأهله مقصد وأوان . والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل ، لأن الطبع المجروح للصوفي ملجم بلجام العلم ، مهما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى التزوج ، ولا يقـــدم على التزوج إلا إذا اتصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها ، وذلك إذا صارت منقادة مطواعة مجيبة إلى ما يراد منها ، بمثابة الطفل الذي يتعاهد بما يروق له ، ويمنع عما يضره ، فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد تاقت إلى أمر الله ، وتنصلت عن مشاحة القلب ، فيصلح بينهما بالعدل ، وينظر في أمرها بالقسط . ومن صبر من الصوفية على العذوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله ، ينتخب له الزوجة انتخاباً ، ويهيىء الله له أعواناً وأسباباً ، وينعم برفيق يدخل عليه ، ورزق يساق إليـه . ومتى استعجل المريد ، واستفزه الطبع ، وخامره الجهـل ، بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم ، وانحط من أوج العزيمة الذي هو قضية حاله وموجب إرادته ، وشريطة صدق طلبه ، إلى حضيض الرخصة التي هي رحمة من الله تعالى لعامة خلقه ، يحكم عليه بالنقصان ، ويشهد له بالخسران . ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال .

قال سهل بن عبد الله التستري : إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة ، فدخل عليه الابتلاء ، فرجوعه في الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث . وسمعت بعض الفقراء وقد قيل له : لم لا تتزوج ؟ فقال : المرأة لا تصلح إلا للرجال ، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج ؟

فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون .

وقد تعارضت الأخبار ، وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج ، وتنوع كلام رسول الله ﷺ في ذلك لتنوع الأحوال ، فمنهم من فضيلته

فى التجريد ، ومنهم من فضيلته فى التأهل ، وكل هـذا التعارض فى حق من لم توقانه برد وسلام لـكمال تقواه ، وقهره هواه ، وإلا ففى غير هـذا الرجل الذى يخاف عليه الفتنة يجب النكاح فى حال التوقان المفرط ، ويكون الخلاف بين الأئمة فى غير التائق .

فالصوفى إذا صار متأهلا يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار ، ومسامحته فى الاستكثار ، إذا رؤى ضعيف الحال قاصراً عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الـكتاب أجله .

أخبرنا أبو زرعة عن والده أبى الفضل المقدسى الحافظ قال أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال أنا أبو الحسين محمـد بن عبد الله بن أخى ميمى قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا محمد بن هارون قال أنا أبو المغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ إذا جاءه فىء قسمه فى يومه ، فأعطى للتأهل حظين والعزب حظاً واحداً ، فدعينا وكنت أدعى قبل عمار بن ياسر ، فأعطانى حظين وأعطاه حظاً واحداً ، فسخط حتى عرف ذلك رسول الله ﷺ فى وجهه ومن حضره ، فبقيت معه سلسلة من ذهب، فجعل رسول الله ﷺ يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول « كيف أنتم يوم يـكثر لـكم من هذا ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال عمـار : وددنا يارسول الله لو قد أكثر لنا من هذا .

فالتجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوقت للفقير ، وأجمع لهمه ، والله نعيشه .

ويصلح للفقير فى ابتداء أمره قطع العلائق ، ومحو العوائق ، والتنقل فى الأسفار ، وركوب الأخطار ، والتجرد عن الأسباب ، والخروج عن كل ما يـكون حجاباً . والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ، ورجوع من التروح إلى التنفس ، وتقيد بالأولاد والأزواج ، ودوران حول مظان الاعوجاج ، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة ، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة .

قال أبو سليمان الداراني : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا : من طلب معاشاً ، أو تزوج امرأة ، أو كتب الحديث .

وقال : ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته .

أخبرنا الشيخ طاهر قال أنا والدى أبو الفضل قال أنا محمد بن إسماعيل المقرى قال أنا أحمد بن الحسن قال أنا حاجب الطوسى قال : حدثنا عبد الرحيم قال : حدثنا الفزارى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن ، وأتعبن الغنى ، وكلفن الفقير ما لا يجد » .

وقال بعض الحكماء : معالجة العزوبة خير من معالجة النساء .

وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (خلق الإنسان ضعيفا) لأنه لا يصبر على النساء .

وقيل فى قوله تعالى (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) الغلمة ، فإن قدر الفقير على مقاومة النفس ، ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة فى معالجة النفس وصبر عنهن ، فقد حاز الفضل ، واستعمل العقل ، واهتدى إلى الأمر السهل . قال رسول الله ﷺ « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يارسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد » .

وقال بعض الفقراء لما قيل له تزوج : أنا إلى أن أطلق نفسى أحوج منى إلى التزوج .

وقيل لبشر بن الحارث : إن الناس يتكلمون فيك ، فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك السنة ، يعنى النكاح ، فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة .

وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلاداً على الجسر.

والصوفى مبتلى بالنفس ومطالبتها ، وهو فى شغل شاغل عن نفسه ، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه ، وتكل إرادته ، وتفتر عزيمته . والنفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا أقنعت قنعت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم ، فإن للصوم أثراً ظاهراً فى قمع النفس وقهرها . وقد ورد أن رسول الله ﷺ مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة ، فقال « يا معشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فليصم ، فإن الصوم له وجاء » أصل الوجاء رض الخصيتين ، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن . ومنه الحديث « ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءين » .

وقد قيل : هى النفس إن لم تشغلها شغلتك .

فإذا أدام الشاب المريد العمل ، وأذاب نفسه فى العبادة ، تقل عليه خواطر النفس .

وأيضاً شغله بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة ، ومحبة الإكثار منه ، ويفتح عليه باب السهولة والعيش فى العمل ، فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة .

ومن حسن أدب المريد فى عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه ، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإنابة ، فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ، ويؤيده بمراغمة النفس ، بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثواباً لحسن إنابته ، فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول فى المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان ، وأخذ الشىء من غير وجهه ، ومايتوقع من القواطع بسبب التفات الخواطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التى لاتنحصر .

وقد سئل عبدالله بن عمر عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال ، وقلة المال

وقد قيل : كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلة العيال أحد اليسارين .

وكان إبراهيم بن أدهم يقول : من تعود أفخاذ النساء لايفلح .

ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة ، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ، ويتسلط عن الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار ، وكل هذا بعيد عن المتجرد .

وقد ورد : إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتى .

فإن توالت على الفقير خواطر النكاح ، وزاحمت باطنه سيما فى الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولا ، ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشرح الحال لهم ، ويسألهم مسألة الله له فى حسن الاختيار ، ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد ، ويستعظم الأمر ، ولا يدخل فيه بقلة الاكتراث ، فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم ، وقد قال الله تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ، ويكثر البكاء بين يديه فى الخلوات ، ويكرر الاستخارة . وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة فى ذلك فهو الكمال والتمام ، فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعاً أو إطلاقاً فى منامه أو يقظته أو على لسان من يثق إلى دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق ، فعند ذلك يكون تزوجه مدبراً معاناً فيه .

وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى قال لى رسول الله ﷺ تزوج ، فقال له ذلك الرجل : الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التزام بالعزيمة ، فلا أعلم ما قال الشيخ فى جوابه ، ولكنى أقول رسول الله ﷺ يأمره بالرخصة وأمره على لسان الشرع . فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه واستخاره فيكاشفه الله بتنبيهه إياه فى منامه ، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة ، لأنه من علم الحال لا من علم الحكم .

ويدل على صحة ما وقع لى ما نقل عنه أنه قال : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجترىء على التزوج خوفاً من تكدير الوقت ، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ، ساق الله لى أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة . فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل .

فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء، وورد عليه وارد من الله تعالى بإذن فيه ، فهو الغاية والنهاية ، وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن ، واستنفد جهده فى الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويعان عليه لحسن نيته ، وصدق مقصده ، وحسن رجائه ، واعتماده على ربه .

وقد نقل عن عبدالله بن عباس أنه قال : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج .

ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث ، فعوتب فى ذلك فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة ، أو وقف وقفة فى معاملته ، فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قد يصيبنا ذلك ، فقال : لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد ما تزوجت قط ، ولكن ما خطر على قلبى خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى . ثم قال : منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية .

فالصادقون ما دخلوا فى النكاح إلا على بصيرة ، وقصدوا حسم مواد النفس .

وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين فى العلم أحوال فى دخولهم فى النكاح تختص بهم ، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم ، وتقبل قلوبهم ، وللقلوب إقبال وإدبار . يقول بعضهم : إن القلوب إقبالا وإدباراً ، فإذا أدبرت روحت بالإرفاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق ، فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس ، وكفها عن المنازعة ، وترك التشبث فى القلوب .

فإذا اطمأنت النفوس واستقرت من طيشها ونفورها وشراستها ، توفرت عليها حقوقها ، وربما يصير من حقوقها حظوظها ، لأن فى أداء الحق إقناعاً ، وفى أخذ الحظ اتساعاً ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فإنهم يتسعون بالنكاح

المباح إيصالا إلى النفس حظوظها ، لأنها ما زالت تخالف هـواها حتى صار داؤها دواءها ، وصارت الشهوات المباحة واللذات المشروعة لا تضرها ولا تفتر عليها عزائمها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً ، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر ، ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة ، فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس ، وينشد :

إن السماء إذا اكتست كست الثرى حللا يدبجهـا الغرام الراهم

وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار للشفق براحة الجار .

سمعت بعض الفقراء يقول : النفس تقول للقلب : كن معى فى الطعـام أكن معك فى الصلاة . وهذا من الأحوال العزيزة لا تصلح إلا لعالم ربانى . وكم من مدّع يهلك بتوهمه هذا فى نفسه . ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص . والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه .

وقد كان الجنيد يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن فى الصوفية ، فقال : ياهذا ماالذى ينقصهم عندك ؟ فقال : يأكلون كثيراً ، فقال : وأنت أيضاً لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوجون كثيراً ، قال : وأنت أيضاً لو حفظت فرجك كما يحفظـون تزوجت كما يتزوجون . قال : وأى شىء أيضاً ؟ قال : يسمعون القول ، قال : وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن علياً رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : خير هـذه الأمة أكثرها نساء .

وقد ذكر فى أخبار الأنبياء أن عابداً تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه ، فذكر لنبى ذلك الزمان ، فقال : نعم الرجل لولا أنه تارك لشىء من السنة ،

فنمى ذلك إلى العابد ، فأهمه فقال : ما تنفعني عبادتي وأنا تارك السنة ؟ فجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال: نعم إنك تارك التزوج ، فقال: ما تركته لأني أحرمه ، وما منعني منه إلا أني فقير لاشيء لي وأنا عيال على الناس ، يطعمني هذا مرة وهذا مرة ، فأكره أن أتزوج بامرأة أعضلها أو أرهقها جهداً ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : وما يمنعك إلا هذا ؟ قال: نعم ، فقال: أنا أزوجك ابنتي ، فزوجه النبي عليه السلام ابنته .

وكان عبد الله بن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزبا .

وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين .

وقيل : إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن يقربها .

وقيل : إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له .

وقيل : إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب .

أخبرنا الشيخ الطاهر بن أبي الفضل قال أنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم المقومي القزويني قال أنا أبو طلحة القاسم بن أبي البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « النكاح سنتي ، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، فتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء » .

ومما ينبغي للمتأهل أن يحذر من الإفراط في المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته ، فإن الإفراط في ذلك يقوي النفس وجنودها ، ويفتر ناهض الهمة .

وللمتأهل بسبب الزوجة فتنتان : فتنة لعموم حاله ، وفتنة لخصوص حاله . ففتنة عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب المعيشة .

كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه فى النار .

وفى الخبر « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ، يعيرونه بالفقر ، ويكلفونه ما لا يطيق ، فيدخل فى المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » .

وروى أن قوماً دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم ، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فعجبوا من ذلك وهابوه أن يسألوه ، فقال : لا تعجبوا من هذا فإنى سألت الله فقلت يارب ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال : إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها ، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون .

فإذا أفرط الفقير فى المداراة ربما تعدى حد الاعتدال فى وجوه المعيشة متطلباً رضا الزوجة ، فهذا فتنة عموم حاله ، وفتنة خصوص حاله الإفراط فى المجالسة والمخالطة ، فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال ، وتسترق الغرض بطول الاسترسال ، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلب مقار المهلة ، فيقل الوارد لقلة الأوراد ، ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال .

وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور ، وذلك أن للنفوس امتزاجاً ورابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة ، وتلتهب نارها الخامدة . فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه ، وعينان ظاهران يستعملهما فى طريق هواه . وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظماً :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وألطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير الروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك الاسترواح موقوفاً على الروح ، ويصير ذلك وليجة فى حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية ، فتتبدد

الروح ، وينسد باب المزيد من الفتوح ، وهذه البلادة فى الروح يعز الشعور بها فلتحذر .

ومن هذا القبيل دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة . وإذا كان فى باب الحلال وليجة فى الحب يتولد منها بلادة الروح فى القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية ، فما ظنك فيمن يدعى ذلك فى باب غير مشروع ، يغره سكون النفس . فيظن أنه لو كان من قبيل الهوى ماسكنت النفس ، والنفس لا تسكن فى ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها . على أنى استبحثت عما يبتلى المفتونون بالمشاهدة ، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة ، إذ لو ذهبت علة الشراب مابقيت الرغوة. فليحذر ذلك جداً ، ولا يسمع ممن يدعى فيه حالا وصحة فإنه كذاب مدع . ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق ، وإن كان من غير المعشوق فليعلم أن مستنده الشهوة . ويكذب من يدعى فيه حالا . وهذه فتن المتأهل .

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره ، وتصورهن فى متخيله . ومن أعطى الطهارة فى باطنه لا يدنس باطنه بخواطر الشهوة ، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة والملاذ بالهرب . ومتى سامر الفكر كثف الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك يحذو إحساس العضو بالخاطر ، فيصير ذلك عملا خفياً . وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال . وقد قيل : مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين لها ، والله أعلم .

الباب الثانى والعشرون

فى القول فى السماع قبولاً وإيثاراً

قال الله تعالى (فبشر عبادِ . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

قيل : أحسنه أى أهداه وأرشده .

وقال عز وجل (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) هذا السماع هو السماع الحق الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان ، محكوم لصاحبه بالهداية واللب ، وهذا سماع ترد حرراته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لأنه تارة يثير حزناً والحزن حار ، وتارة يثير شوقاً والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب ممـلوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء ، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف إلمامه ، فيظهر أثره فى الجسد ، ويقشعر منه الجلد . قال الله تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ ، كالمخبر للعقل ، فيعظم وقع للتجدد الحادث ، فتندفق منه العين بالدمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجاً يكاد يضيق عنه نطاق القلب ، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب ، وهـذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحـال ، وقـد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المحال .

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية فى ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً .

فالسماع يستجاب الرحمة من الله الكريم

روى زيد بن أسلم قال : قرأ أبى بن كعب عند رسول الله ﷺ فرقوا ، فقال رسول الله ﷺ « اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى » .

وروت أم كلثوم قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا اقشعر جلد العبد

من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » .

وورد أيضاً « إذا اقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار » .

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف فى استماع الأشعار بالألحان ، وقد كثرت الأقوال فى ذلك وتباينت الأحوال ، فمن منكر يلحقه بالفسق ، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ، ويتجاذبان فى طرفى الإفراط والتفريط .

قيل لأبى الحسن بن سالم : كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون ؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ، فقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المنكر اللهو واللعب فى السماع ، وهذا قول صحيح .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافى قال أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب قال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال : « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا أسأم .

وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله مايدل على تجويزه .

ونقل عن كثير من السلف صحابى وتابعى وغيرهم .

وقول الشيخ أبى طالب المكى يعتبر لوفور علمه ، وكمال حاله ، وعلمه بأحوال السلف ، ومكان ورعه وتقواه ، وتحريه الأصوب والأولى وقال : فى السماع حرام وحلال وشبهة ، فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أوزوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه ، ومن سمعه بقلب يشاهد معانى تدله على الدليل ، ويشهده

طرقات الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبى طالب المكى وهو الصحيح فإذاً لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع ، كفعل القراء المتزهدين المبالغين فى الإنكار ، ولايفسح فيه على الإطلاق ، كفعل بعض المستهترين به المهملين شروطه وآدابه ، المقيمين على الإصرار .

ونفصل الأمر فيه تفصيلا ، ونوضح الماهية فيه تحريماً وتحليلا .

فأما الدف والشبابة وإن كان فيهما فى مذهب الشافعى فسحة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف ، وأما غير ذلك فإن كان من القصائد فى ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ، ووصف نعم الملك الجبار ، وذكر العبادات والترغيب فى الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار . ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج فى وصف الغزو والحج ، مما يثير كامن العزم من الغازى وساكن الشوق من الحاج . وأما ما كان فيه ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك . وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات ، أو تجدد عنده عزم لما هو آت فكيف ينكر سماعه ، وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع، ويتقوى به على الطى والوصال ، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع ، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه ، كأن يسمع الحادى يقول مثلا :

أتوب إليك يا رحمن إنى … أسأت وقد تضاعفت الذنوب

فأما من هوى ليلى وحبى … زيارتها فإنى لا أتوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات فى أمر الحق إلى الممات ، يكون فى سماعه هذا ذكر الله تعالى .

قال بعض أصحابنا : كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء : عند المسائل ، وعند الغضب ، وعند السماع .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع : عند

الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون فى مقامات الصديقين وأحوال النبيين، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً .

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يتنبهون للمعانى التى تعزب عن غيرهم ، فيشير إليهم إلىّ فيتنعمون بذلك من الفرح ، ويقع الحجاب للوقت ، فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يمزق ثيابه ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يصيح .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول : المستمع بين استتار وتجل ، فالاستتار يورث التلهب ، والتجلى يورث المزيد ، فالاستتار يتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلى يتولد منه السكون للواصلين ، وهو محل الاستقامة والتمكين ، وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة .

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت جدى يقول : المستمع ينبغى أن يستمع بقلب حى ونفس ميتة ، ومن كان قلبه ميتاً ونفسه حياً لا يحل له السماع .

وقيل فى قوله تعالى (يزيد فى الخلق ما يشاء) الصوت الحسن .

وقال عليه السلام « لله أشد أذناً بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته » .

نقل عن الجنيد قال : رأيت إبليس فى النوم فقلت : له هل تظفر من أصحابنا بشىء أو تنال منهم شيئاً ؟ فقال: إنه يعسر علىّ شأنهم ويعظم علىّ أن أصيب منهم شيئاً إلا فى وقتين ، قلت : أى وقت ؟ قال : وقت السماع ، وعند النظر ، فإنى أسترق منهم فيه وأدخل عليهم به . قال : فحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقالوا : لو رأيته . قلت له : يا أحمق من سمع منه إذا سمع ، ونظر إليه إذا نظر ، أترجح أنت عليه شيئاً أو تظفر بشىء منه . فقلت : صدقت .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : كانت عندى جارية تسمعنى ، فدخل رسول الله ﷺ وهى على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ، فضحك رسول الله

ﷺ ، فقال عمر : مايضحكك يارسول الله ؟ فحدثته حديث الجارية ، فقال : لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ، فأمرها رسول الله ﷺ فأسمعته .

وذكر الشيخ أبو طالب المكى قال : كان لعطاء جاريتان تلحنان ، وكان إخوانه يجتمعون إليهما ، وقال : أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعدهن للصوفية . وهـذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب ، فقال : وعندى اجتناب ذلك هـو الصواب ، وهو لايسلم إلا بشرط طهارة القلب ، وغض البصر ، والوفاء بشرط قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وما هذا القول من الشيخ أبى طالب المكى إلا مستغرب عجيب ، والتنزه عن مثل ذلك هو الصحيح .

وفى الحديث فى مدح داود عليه السلام إنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه ، وبتلاوة الزبور ، حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته ، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الجنائز .

وقال عليه السلام فى مدح أبى موسى الأشعرى « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل دواد » .

وروى عنه عليه السلام أنه قال « إن من الشعر لحكمة » .

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرأون القرآن وقوم ينشدون الشعر ، فقال : يارسول الله قرآن وشعر ؟ فقال « من هذا مرة ومن هذا مرة » .

وأنشد النابغة عند رسول الله ﷺ أبياته التى فيها :

ولاخير فى حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولاخير فى امرىء إذا لم يكن له ... حكيم إذا ماأورد الأمر أصدرا

فقال له رسول الله ﷺ « أحسنت ياأبا ليلى لا يفضض الله فاك » فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس ثغراً .

وكان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً فى المسجد فيقوم على المنبر قائماً يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ ، ويقول النبى ﷺ : إن روح القدس مع حسان مادام ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال : فقلت له ماتقول فى السماع الذى يختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفا الزلال لايثبت عليه إلا أقدام العلماء .

⁂

ونقل عن ممشاد الدينورى قال : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً ؟ فقال: ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن . فقلت يارسول الله إنهم يؤذونى وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا على هم أصحابك . فكان ممشاد يفتخر ويقول: كنانى رسول الله ﷺ .

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا فى مبادى الإرادة ونفوسهم ماتمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب ، حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ، ويعلمون ما لهم وعليهم مشتغلين به .

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال ، فاستأذنوه أن يقول شيئاً ، فأذن له ، فأنشد :

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبى هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولايقع على الأرض ، ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال : اتق الذى يراك حين تقوم ، فجلس الرجل وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجداً ، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم فى قيامه ، وذلك إذا سمع إيقاعاً موزوناً بسمع يؤدى ماسمعه إلى طبع موزون ، فيتحرك بالطبع الموزون الصوت الموزون والإيقاع الموزون ، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب ، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع ، فيقوم يرقص موزوناً بتصنع ، وهو محرم عند أهل الحق ، ويحسب ذلك طيبة القلب ، وما رأى وجه القلب وطيبته بالله تعالى .

ولعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بلون النفس ، ميال إلى الهوى ، موافق الردى ، لايهتدى إلى حسن النية فى الحركات ، ولايعرف شروط صحة الإرادات ، ولمثل هـذا الراقص قيل : الرقص نقص ، لأنه رقص مصدره الطبع ، غير مقترن بنية صالحة لاسيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نيـة ، بل دلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم ، وغير ذلك من الحركات التى لايعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة ، أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه ، وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء ، أو يكون للنساء إشراف على الجمع ، وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد ، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه . فأهل المواخير حينئذ أرجى حالا ممن يكون هذا ضميره وحركاته ، لأنهم يرون فسقهم ، وهذا لا يراه ويريه عبادة لمن لايعلم ذلك .

أفترى أحـداً من أهل الديانات يرضى بهذا ولاينكره ؟

فمن هذا الوجه توجه للمنكر الإنكار ، وكان حقيقاً بالاعتذار ، فكم من حركات موجبة للمقت ، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت ، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب يمنعه عن مثل هذه الحركات ، ويحذره من مثل هذه المجانس ، وهذا إنكار صحيح .

وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ، ووجه نيتـه فى ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء فى الحركة ، فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالا ووجداً ، يجعل حركته فى طرف الباطل لأنها وإن لم تكن محرمة فى حكم الشرع ولكنها غير محلاة بحكم الحال لما فيها من اللهو ، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التى تجرى عليه من الضحك والمداعبة ، وملاعبة الأهل والولد ، ويدخل ذلك فى باب الترويح القلب ، وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس ، كما نقل عن أبى الدرداء أنه قال : إنى لأستجم نفسى بشىء من الباطل ليكون

ذلك عوناً لى على الحق . ولموضع التروح كرهت الصلاة فى أوقات ليستريح عمال الله ، وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل ، وتستطيب أوطان المهل . والآدمى بتركيبه المختلف ، وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته — وقد سبق شرحه فى غير هذا الباب — لاتفى قواه بالصبر على الحق الصرف ، فيكون التفسح فى أمثال ماذكرناه من المباح الذى ينزع إلى لهو ما باطلا يستعان به على الحق ، فإن المباح وإن لم يكن باطلا فى حقيقة الشرع ، لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه ، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال .

ورأيت فى بعض كلام سهل بن عبد الله يقول فى وصفه للصادق : الصادق يكون جهله مزيداً لعلمه ، وباطله مزيداً لحقه ، ودنياه مزيداً لآخرته ، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ النساء ، ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة ، الموهوب لها حظوظها ، الموفر عليها حقوقها ، لموضع طهارتها وقدسها ، فيكون ماهو نصيب الباطل الصرف فى حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع ، المردودة بعزيمة الحال فى حقه ﷺ متسماً بسمة العبادات .

وقد ورد فى فضيلة النكاح مايدل على أنه عبادة ، ومن ذلك من طريق القياس اشتماله على المصالح الدينية والدنيوية ، على ما أطنب فى شرحه الفقهاء فى مسألة التخلى لنوافل العبادات .

فإذاً يخرج هذا الراقص بهذه النية ، المتبرىء من دعوى الحال فى ذلك من زمن إنكار المنكر ، فيكون رقصه لاعليه ولا له ، وربما كان بحسن النية فى التزويج يصير عبادة ، سيما إن أضمر فى نفسه فرحاً بربه ، ونظر إلى شمول رحمته وعطفه ، ولكن لايليق الرقص بالشيوخ ومن يقتدى به ، لما فيه من مشابهة اللهو ، واللهو لايليق بمنصبهم ، ويباين حال المتمكن مثل ذلك .

وأما وجه منع الإنكار فى السماع ، فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لايخلو من أحد أمور ثلاثة : إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لاذوق له فيصر على

الإنكار . وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل :

أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضي الله عنها ، وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك ، وفي حركة بعض المتحركين تعرف رخصة رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص ، ونظر عائشة رضي الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التي ذكرناها . وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه : « أنت مني وأنا منك » فحجل . وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقي » فحجل . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » فحجل . وكان حجل جعفر في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها عليّ وجعفر وزيد .

وأما المنكر المغرور بما أتيح له من أعمال الأخيار فيقال : تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها ، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى ، والنية لنظرك إلى ربك خوفاً أو رجاء . فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه ، إما فرحاً أو حزناً أو انكساراً أو افتقاراً ، كيف يقلب قلبه في أنواع ذلك ذاكراً لربه . ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت ، وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر ، وتسخيره حلقه ، ومنشأ الصوت ، وتأديته إلى الأسماع ، كان في جميع ذلك الفكر مسبحاً مقدساً . فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكراً وفكراً كيف ينكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفاً في جامع جده على البحر . فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه شيئاً فأنكرت ذلك بقلبي وقلت في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر ، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت في نفسي : ماكان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون ، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ، فالتفت

إلى رسول الله ﷺ وهو يقول هذا حق بحق ، أو حق من حق .

بلى إذا كان ذلك الصوت من أمرد يخشى بالنظر إليه الفتنة ، أو من امرأة غير محرم ، وإن وجد من الأذكار والأفكار ماذكرنا، يحرم سماعه لخوف الفتنة لا لمجرد الصوت ، ولكن يجعل سماع الصوت حريم الفتنة ، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة ، كالقبلة للشاب الصائم ، حيث جعلت حريم حرام الوقاع ، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك . فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع ومايؤديه إليه سماعه، فيجعل المنع حريم الحرام هكذا .

وقد ينكر السماع جامد الطبع، عديم الذوق ، فيقال له : العنين لا يعلم لذة الوقاع، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع، وغير المصاب لايتكلم بالاسترجاع ، فماذا ينكر من محب تربى باطنه بالشوق والمحبة ، ويرى انحباس روحه الطيارة فى مضيق قفص النفس الأمارة ، يمر بروحه نسيم أنس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان ، وهو بوجود النفس فى دار الغربة يتجرع كأس الهجران ، يئن تحت أعباء المجاهدة ، ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة ، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال،لايقرب من كعبة الوصال، ولا يكشف له المسبل من الحجاب ، فيتروح بنفس الصعداء ، ويرتاح باللائح من شدة البرحاء ، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المانعان :

أيا جبلى نعمان بالله خليا — نسيم الصبا يخلص إلىّ نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت — على قلب محزون تجلت همومها
أجد بردها أو تشف منى حرارة — على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أدوائى بليلى قديمة — وأقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول : هل المحبة إلا امتثال الأمر ، وهل يعرف غير هذا ، وهل هناك إلا الخوف من الله ، وينكر المحبة الخاصة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين ، ولما تقرر فى فهمه القاصر أن المحبة تستدعى مثالا وخيالا وأجناساً وأشكالا ، أنكر محبة القوم ، ولم يعلم أن

القوم بلغوا فى رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس ، وجادوا من فرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس .

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاماً كان فى بنى إسرائيل على جبل ، فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الأرض ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الجبال ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الغيم ؟ قالت : الله ، فقال : إنى أسمع لله شأناً ، ورمى بنفسه من الجبل فتقطع .

فالجمال الأزلى الإلهى منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم ، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلى فى طى الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب . وهذه الرتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة ، وأعم منها رتبة المحبة الخاصة دون العامة من مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال ، والاستقلال بالمنح والنوال ، والصفات المنقسمة إلى ماظهر منها فى الآباد ولازم الذات فى الآزال ، فللكمال جمال لا يدرك بالحواس ، ولا يستنبط بالقياس ، وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلى الصفات ، ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع ، والأولون منحوا قسطاً من تجلى الذات ، فكان وجدهم على قدر الوجود ، وسماعهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع ، ويجدون به ، ويتولهون عنده .

وقال بعضهم : كنا على الساحل ، فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمره ويجىء حتى رجع إلى مكانه .

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها .

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع ، فأخذ شمعة فجعلها فى عينه . قال الناقل : قربت من عينه أنظر فرأيت ناراً أو نوراً يخرج من عينه يرد نار الشمعة .

وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع عن الأرض فى الهواء أذرعاً يمر ويجىء فيه .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه : إن أنكرنا السماع مجملا مطلقاً غير مقيد مفصل يكون إنكاراً على سبعين صديقاً ، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين ، إلا أنا لا نفعل ذلك ، لأنا نعلم ما لا يعلمون ، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين من لا يسمعون .

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار ، مع اجتهاده وتحريه الصواب ، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر .

وسمع الشبلى قائلا يقول :

أسائل عن سلمى فهل من مخبر ... يكون له علم بها أين تنزل

فزعق الشبلى وقال : لا والله ما فى الدارين عنه مخبر .

وقيل : الوجد من صفات الباطن ، كما أن الطاعة من صفات الظاهر ، وصفات الظاهر الحركة والسكون ، وصفات الباطن الأحوال والأخلاق .

وقال أبو نصر السراج : أهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم ، فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون لله من ذلك ، وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع ، فهم يسمعون لطيبة قلوبهم ، ويليق بهم السماع ، فهم أقرب الناس إلى السلامة ، وأسلمهم من الفتنة ، وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكلف فى السماع فقال : هو على ضربين : تكلف فى المستمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية ، وذلك تلبيس وخيانة ، وتكلف فيه لطلب الحقيقة ، كمن يطلب الوجد بالتواجد ، وهو بمنزلة التباكى المندوب إليه.

وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة ، يقال له : إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعة تزاحم سنة مأموراً بها ، وما لم يكن هكذا فلا بأس به ، وهذا كالقيام للداخل لم يكن ، فكان فى عادة العرب ترك ذلك حتى نقل أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له .

وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به ، لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة ، ويكون بدعة لا بأس بها ، لأنها لم تزاحم سنة مأمورة .

الباب الثالث والعشرون

فى القول فى السماع رداً وإنكاراً

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق ، وحيث كثرت الفتنة بطريقه ، وزالت العصمة فيه ، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم ، وفسدت أحوالهم ، وأكثروا الاجتماع للسماع ، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك ، لا رغبة القلوب فى السماع ، كما كان من سير الصادقين ، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس طلباً للشهوات ، واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات ، ويقطع ذلك على المريد طلب المزيد ، ويكون بطريقه تضييع الأوقات ، وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبة فى الاجتماع طلباً لتناول الشهوة واسترواحاً لأولى الطرب واللهو والعشرة . ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق .

وكان يقال : لا يصح السماع إلا لعارف مكين ، ولا يباح لمريد مبتدى .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة .

وقيل : إن الجنيد ترك السماع ، فقيل له كنت تستمع ، فقال مع من ؟ قيل له تسمع لنفسك ، فقال ممن ، لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل ، فلما فقد الإخوان ترك . فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشروط وقيود وآداب يذكرون به الآخرة ، ويرغبون فى الجنة ، ويحذرون من النار ، ويزداد به طلبهم ، وتحسن به أحوالهم ، ويتفق لهم ذلك اتفاقاً فى بعض الأحايين ، لا أن يجعلوه دأباً وديدناً حتى يتركوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال فى كتاب القضاء : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل . وقال : من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

واتفق أصحاب الشافعى أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها ، سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب .

ونقل عن الشافعى رضى الله عنه أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن . وقال : لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان .

وعند مالك رضى الله عنه إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة .

وهكذا مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه .

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء ، ومن أباحه من الفقهاء أيضاً لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو الغناء والاستماع إليه .

وقيل فى قوله تعالى (وأنتم سامدون) أى مغنون . رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وهو الغناء بلغة حمير ، يقول أهل اليمن : سمد فلان إذا غنى .

وقوله تعالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال مجاهد : الغناء والمزامير .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى » .

وروى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إنما نهيت عن صوتين فاجرين : صوت عند نعمة ، وصوت عند مصيبة » .

وقد روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : ما غنيت ولا تمنيت ، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الغناء ينبت النفاق فى القلب .

وروى أن ابن عمر رضى الله عنه مر عليه قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى ، فقال : ألا لا سمع الله لكم ، ألا لا سمع الله لكم .

وروى أن إنساناً سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : أنهاك عنه وأكرهه

لك . قال : أحرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخى إذا ميز الله الحق والباطل فى أيهما يجعل الغناء .

وقال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا .

وعن الضحاك : الغناء مفسدة للقلب ، مسخطة للرب .

وقال بعضهم : إياك والغناء فإنه يزيد الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر .

وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح ، لأن الطبع الموزون يفيق بالغناء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه مع الفرقعة بالأصابع والتصفيق والرقص ، وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل .

وروى عن الحسن أنه قال : ليس الدف من سنة المسلمين .

والذى نقل عن رسول الله ﷺ أنه سمع الشعر لا يدل على إباحة الغناء ، فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ، وإنما يصير غناء بالألحان .

وإن أنصف المنصف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان ، وقعود المغنى بدفه والمشبب بشبابته ، وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه ، لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها . فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك ، وكثيراً ما يغلط الناس فى هذا . وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمتأخرين ، وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ وكثير من الفقراء يستمع عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة .

قال عبدالله بن عروة بن الزبير : قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر الصديق

رضى الله عنهما : كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قال قلت : إن ناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط ، قال: ما لهذا ؟ قالوا : إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : إنا لنخشى الله وما نسقط ، إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ، ما هكذا كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء القرآن ، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وليس هذا القول منهم إنكاراً على الإطلاق ، إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين ، ولكن للتصنع المتوهم فى حق الأكثرين ، وقد يكون ذلك من البعض تصنعاً ورياء ، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل ممزوج بهوى ، يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه ، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس ، ولكن النفس تسترق السمع استراقاً خفياً ، تخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه ، وهذا يباين الصدق .

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه ، فشق منهم رجل قميصه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه .

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد ، فقد توجهت الفتنة ، وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك .

قال بقية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل .

وقال عطاء : كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها .

وقال بعض التابعين : ما أنا أخوف على الشاب التائب من السبع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه .

وقال بعض التابعين أيضاً : الوطية على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل .

فقد تعين على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم ، فإن التصوف صدق كله ، وجد كله .

يقول بعضهم : التصوف كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل .

فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه . والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه ، وتنزيهه عن المكاره التي ذكرناها .

وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك .

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ، ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون

فى القول فى السماع ترفعاً واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد ، فمن لم يفتقد لم يجد ، وإنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه ، فلو تمحض عبداً لتمحض حراً ، ومن تمحض حراً أفلت من شرك الوجد . فشرك الوجد يصطاد البقايا ، ووجود البقايا لتخلف شيء من المطايا .

قال الحصرى رحمه الله : ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه .

فالوجد بالسماع فى حق المحق ، كالوجد بالسماع فى حق المبطل من حيث النظر إلى انزعاجه وتأثير الباطن به ، وظهور أثره على الظاهر ، وتغييره للعبد من حال إلى حال . وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل . إن المبطل يجد لوجود هوى النفس ، والمحق يجد لوجود إرادة القلب ، ولهذا قيل : السماع لا يحدث فى القلب شيئاً وإنما يحرك ما فى القلب ، فمن متعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد بالهوى ، ومن متعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب . فالمبطل محجوب بحجاب النفس ، والمحق محجوب بحجاب القلب ، وحجاب النفس حجاب أرضى ظلمانى ، وحجاب القلب حجـــاب سماوى نورانى . ومن لم يفتقد بدوام التحقق بالشهود ، ولا يتعثر بأذيال الوجود ، فلا يسمع ولا يجد .

ومن هذه المطالعة قال بعضهم : الوجد نار دم كلى لا ينفذ فى قول .

ومر ممشاد الدينورى رحمـه الله بقوم فيهم قوال ، فلما رأوه أمسكوا ، فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فوالله لو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى .

فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة فى حق المبطل ، وبالقلب تارة فى حق المحق ، فثار الوجد الروح الروحانى فى حق المحق والمبطـل ، ويكون الوجد تارة من فهم المعانى يظهر ، وتارة من مجرد النغمات والألحان . فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطـل ، ويشارك

القلب فى حق المحق ، وما كان من قبيل مجرد النغمات ، تتجرد الروح للسماع ، ولكن فى حق المبطل تسترق النفس السمع ، وفى حق المحق يسترق القلب السمع . ووجه استلذاذ الروح النغمات أن العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال ، ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا ، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية ، فتى سمع الروح النغمات اللذيذة ، والألحان المتناسبة ، تأثر به لوجود الجنسية ، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة ، ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلا وآجلا .

ووجه آخر : إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفى إشارة ورمزاً بين المتعاشقين ، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى ، ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح ، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع . قال الله تعالى (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) وفى قوله سبحانه (منها) إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتلاف . والتعاشق والنغمات يستلذها الروح ، لأنها مناغاة بين المتعاشقين ، وكما أن فى عالم الحكمة كونت حواء من آدم ، ففى عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحانى ، فهذا التألف من هذا الأصل ، وذلك أن النفس روح حيوانى تجنس بالقرب من الروح الروحانى . وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانى ، فصارت نفساً ، فإذاً تكون النفس من الروح الروحانى فى عالم القدرة ، كتكون حواء من آدم فى عالم الحكمة . فهذا التألف والتعاشق ، ونسبة الأنوثة والذكورة من ههنا ظهر ، وبهذا الطريق استطابت الروح النغمات لأنها مراسلات بين المتعاشقين ، ومكالمة بينهما . وقد قال القائل :

تكلم منا فى الوجود عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة ، وجدت النفس للمعلولة بالهوى ، وتحركت بما فيها لحدوث العارض ، ووجد القلب المعلول بالإرادة ، وتحرك بما فيه لوجود العارض فى الروح .

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه ، وقلب المحق أرض لسماء روحه . فالبالغ مبلغ الرجال ، والمتجوهر المتجرد من أعراض الأحوال ، خلع نعلى النفس والقلب بالوادى المقدس ، وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس ، وأحرق بنور العيان أجرام الألحان ، ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه ، لشغله بمطالعة آثار محبوبه . فالهائم المشتاق لايسمه كشف ظلامة العشاق . ومن هذا حاله لايحركه السماع رأساً . وإذا كانت الألحان لاتلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها ، وخفى لطف مناغاتها ، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعانى وهو أكثف ، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات .

وأقرب من هـذا عبارة تقرب إلى الأفهام ، الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يريد الله لايقنع بما من عند الله ، ومن صار فى محل القرب متحققاً به لايلهيه ولايحركه ماورد من عند الله . فالوارد من عند الله مشعر ببعد ، والقريب واجد فما يصنع بالوارد . والوجد نار والقلب للواجد ربه نور ، والنور ألطف من النار ، والكثيف غير مسيطر على اللطيف ، فما دام الرجل البالغ مستمراً على جادة استقامته ، غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لايدركه الوجد بالسماع ، فإن دخل عليه فتور أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبلى المحسن ، يتألف المحن من تعاريق صور الابتلاء ، أى يدخل عليه وجود يدركه الواجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب ، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب ، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس .

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع ، فقيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل علىّ داخل أوردنى هذا المورد .

قال بعض أصحاب سهل : صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند شىء كان يسمعه من الذكر والقرآن ، فلما كان فى آخر عمره قرىء عنده (فاليوم لايؤخذ منكم فدية) فارتعد وكاد يسقط ، فسألته عن ذلك ، قال : نعم لحقنى ضعف . وسمع مرة (الملك يومئذ الحق للرحمن) فاضطرب ، فسأله ابن سالم

وكان صاحبه ، قال : قد ضعفت ، فقيل له : إن كان هذا من الضعف فما القوة ؟ قال : القوة أن الكامل لا يرد عليه وارد إلا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد .

ومن هذا القبيل قول أبي بكر رضي الله عنه : هكذا كنا حتى قست القلوب ، لما رأى الباكي يبكي عند قراءة القرآن . وقوله : قست ، أي تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استغربته حتى تغير . والواجد كالمستغرب ، ولهذا قال بعضهم : حالي قبل الصلاة كحالي في الصلاة . إشارة منه إلى استمرار حال الشهود ، فهكذا في السماع كقبل السماع .

وقد قال الجنيد : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله أنه كان يقول : البكاء من بقية الوجود . وكل هذا يقرب البعض من البعض في المعنى لمن عرف الإشارة فيه وفهم ، وهو عزيز الفهم ، عزيز الوجود .

واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة . فمنهم من يبكي خوفاً ، ومنهم من يبكي شوقاً ، ومنهم من يبكي فرحاً ، كما قال القائل :

طفح السرور علىّ حتى أنني　　من عظم ماقد سرني أبكاني

قال الشيخ أبو بكر الكتاني رحمه الله : سماع العوام على متابعة الطبع ، وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة ، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام .

وقال أيضاً : الموارد ترد فتصادف شكلا أو موافقاً ، فأي وارد صادف شكلا مازجه ، وأي وارد صادف موافقاً ساكنه ، وهذه كلها مواجيد أهل السماع ، وماذكرناه حال من ارتفع عن السماع ، وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التي ذكرناها من الخوف والشوق والفرح ، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته ، فعند رؤية الأهل يبكي من قوة الفرح وكثرته .

وفى البكاء رتبة أخرى أعز من هذه ، يعز ذكرها ، ويكبر نشرها ، لقصور الأفهام عن إدراكها ، فربما يقابل ذكرها بالإنكار ، ويحمل بالاستكبار ، ولكن يعرفها من وجدها قدماً ووصولا ، أو فهمها نظراً كثيراً ومثولا ، وهو بكاء الوجدان ، غير بكاء الفرح ، وحدوث ذلك فى بعض مواطن حق اليقين . ومن حق اليقين فى الدنيا إلمامات يسيرة ، فيوجد البكاء فى بعض مواطنه ، لوجود تغاير وتباين بين المحدث والقديم ، فيكون البكاء رشحاً هو من وصف الحدثان لوهج سطوة عظمة الرحمن . ويقرب من ذلك مثلا فى الشاهد قطر الغمام يتلاقى مختلف الأجرام . وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح فى صرف الفناء .

نعم قد يتحقق العبد فى الفناء متجرداً عن الآثار ، منغمساً فى الأنوار ، ثم يرتقى منه إلى مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مطهراً ، فتعود إليه أقسام البكاء خوفاً وشوقاً وفرحاً ووجداناً ، بمثا كلةصورها ، ومباينةحقائقها ، بفرق لطيف يدركه أربابه ، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضاً قسم، وذلك القسم مقدور له ، مقهور معه ، يأخذه إذا أراد ، ويرده إذا أراد ، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت واستنارت ، وباينت طبيعتها ، واكتسبت طمأنينتها ، وأكسبها الروح معنى منه ، فيكون سماعه نوع تمتع للنفس ، كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات ، لا أن يأخذ السماع منه أو يزيد به ، أو يظهر عليه منه أثر ، فتكون النفس فى ذلك بمثابة الطفل فى حجر الوالد ، يفرحه فى بعض الأوقات ببعض مآربه .

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشى كان يشغل أصحابه بالسماع ، وينعزل عنهم ناحية يصلى ، فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا المصلى فتتدلى إليها النفس متنعمة بذلك ، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك، لبعد النفس عن الروح فى تمتعها، فإنها مع طمأنينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجبلتها ، وفى بعدها توفر قسام الروح من الفتوح، ويكون طروق الألحان سمعه فى الصلاة ، غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم تنزيل الكلمات ،

وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ولا مزاحمة ، وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان ، والله المحسن المنان .

ولهذا قيل : السماع لقوم كالدواء ، ولقوم كالغذاء ، ولقوم كالمروحة .

ومن عود أقسام البكاء ماروى أن رسول الله ﷺ قال لأبى « اقرأ » ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال « أحب أن أسمعه من غيرى » فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فإذا عيناه تهملان .

وروى أن رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكى وقال « ياعمر ههنا تسكب العبرات » .

والمتمكن تعود إليه أقسام البكاء ، وفى ذلك فضيلة سألها النبى ﷺ فقال « اللهم ارزقنى عينين هطالتين » .

ويكون البكاء فى الله ، فيكون لله ، ويكون بالله وهو الأتم ، لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم المنان فى مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون

فى القول فى السماع تأدباً واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع ، وحكم التخريق وإشارات المشايخ فى ذلك ، وما فى ذلك من المأثور والمحظور .

مبنى التصوف على الصدق فى سائر الأحوال ، وهو جد كله لاينبغى لصادق أن يتعمد الحضور فى مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى ، ويتوقع به مزيداً فى إرادته وطلبه ، ويحذر من ميل النفس لشىء من هواها ، ثم يقدم الاستخارة للحضور ، ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه ، وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف .

قال أبو بكر الكتانى رحمه الله : المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح إليه ، يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو وارداً ، والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون ، فيتقى الصادق استدعاء الوجد ، ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ .

حكى أن شاباً كان يصحب الجنيد رحمه الله ، وكلما سمع شيئاً زعق وتغير فقال له يوماً : إن ظهر منك شىء بعد هذا فلا تصحبنى ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق ، فلما كان يوماً من الأيام زعق زعقة فخرج روحه .

فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل ، أوادعاء الحال من غير حال حاصل ، وذلك عين النفاق .

قيل : كان النصراباذى رحمه الله كثير الولع بالسماع ، فعوتب فى ذلك ، فقال : نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب ، فقال له أبو عمرو بن نجيد وغيره من إخوانه : هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس ، وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى ، وترويح الحال بصريح المحال ، وفى ذلك ذنوب متعددة .

منها : أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئاً وما وهب له ، والكذب على الله من أقبح الزلات .

ومنها : أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن ، والغرور خيانة . قال عليه السلام « من غشنا فليس منا » .

ومنها : أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح، فسوف يظهر منه بعد ذلك مايفسد عقيدة المعتقد فيه ، فيفسد عقيدته فى غيره ممن يظن به الخير من أمثاله ، فيكون سبباً إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته ، فينقطع عنه مدد الصالحين ، ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها .

ومنها : أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده ، فيكون متكلفاً مكلفاً للناس بباطله ، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل ، ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مدارياً ، ويكثر شرح الذنوب فى ذلك . فليتق الله ربه ولايتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذى لايجد سبيلا إلى الإمساك ، وكالعاطس الذى لايقدر أن يرد العطسة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذى يدعوه إليه داعية الطبع قهراً .

قال السرى : شرط الواجد فى زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع . وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادراً ، وقد لايبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة ، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار ، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات ، وهو فى تمزيق الثياب آكد ، فإن ذلك يكون إتلاف المال ، وإنفاق المحال.

وهكذا رمى الخرقة إلى الحادى ، لاينبغى أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة ، وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادى ، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله ﷺ المسجد وأنشده أبياته التى أولها :

* بانت سعاد فقلبى اليوم متبول *

حتى انتهى إلى قوله فيها :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ﷺ « من أنت » ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أنا كعب بن زهير ، فرمى رسول الله ﷺ إليه بردة كانت عليه . فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف ، فوجه إليه : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة ، وهى البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم ، عادت بركتها على أيامه الزاهرة .

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها ، ورعايتها حسن الأدب فى الصحبة والمعاشرة . وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك ، ولكن كل شىء استحسنوه وتواطئوا عليه ولا ينكره الشرع لاوجه للإنكار فيه .

فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك فى السماع فوقعت منه خرقة أو نازله وجد ورمى عمامته إلى الحادى ، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له فى كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ . وإن كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك ، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشبان ، فإذا سكتوا عن السماع يرد الواجد إلى خرقته ، ويوافقه الحاضرون برفع العمائم ، ثم ردها على الرؤوس فى الحال للموافقة .

والخرقة إذا رميت إلى الحادى هى للحادى إذا قصد إعطاءه إياها ، وإن لم يقصد إعطاءها للحادى فقيل هى للحادى ، لأن المحرك هو ، ومنه صدر الموجب لرمى الخرقة . وقال بعضهم : هى للجمع والحادى واحد منهم ، لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فى إحداث الوجد ، وإحداث الوجد لايتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحداً منهم فى ذلك .

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : من وقف بمكان كذا فله كذا ، ومن قتل فله كذا ، ومن أسر فله كذا ، فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك

لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهراً لكم ورداً فلا تذهبوا بالغنائم دوننا ، فأنزل الله تعالى (يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) فقسم النبي ﷺ بينهم بالسوية .

وقيل : إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم ، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به ، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم .

وقيل : إذا كان القوال أجيراً فليس له منها شيء ، وإن كان متبرعاً يؤثر بذلك . وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى ، فقد تختلف الأحوال فى ذلك . وللشيخ اجتهاد فيفعل ما يرى ، فلا اعتراض لأحد عليه . وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به ، وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك . وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له فى ذلك يؤثر بخرقته الحادى .

وأما تمزيق الخرقة المجروحة التى مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره ، كغلبة النفس ، فمن يعتمد إمساكه فنيتهم فى تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة ، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق ، وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد ، فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك على الرؤوس إكراماً وإعزازاً ، تضوع أرواح نجد من ثيابهم يوم القدوم لقرب العهد بالدار . كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول « حديث عهد بربه » .

فالخرقة الممزقة حديثة العهد ، فحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين ، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ إن خصص بشيء منها بعض الفقراء فله ذلك ، وإن خرقه خرقاً فله ذلك ، ولا يقال هذا تفريط وسرف ، فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها فى موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير فأرسل بها إلىّ ، فخرجت فيها فقال لى « ما كنت لأكره لنفسى شيئاً أرضاه لك ، فشققها بين النساء خمراً » وفى رواية : أتيته

فقلت ما أصنع بها ألبسها ؟ قال : « لا ولكن اجعلها خمراً بين الفواطم » أراد فاطمة بنت أسد ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وفاطمة بنت حمزة . وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير . وهذا وجه فى السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقاً .

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقة ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيرى ، فقسمت الخرقة على عادتهم ، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سراً : هذا سرف وإضاعة للمال ، فسمع أبو القاسم القشيرى ولم يقل شيئاً حتى فرغت القسمة ثم استدعى الخادم وقال انظر فى الجمع من معه سجادة خرق ائتنى بها ، فجاءه بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة فقال : هذه السجادة بكم تشترى فى المزاد ؟ قال : بدينار ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى ؟ قال : نصف دينار ، ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال : هذا لا يسمى إضاعة للمال ، والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين ، من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقداً للتبرك بالخرقة .

روى طارق بن شهاب أن أهــل البصرة غزوا نهاوند ، وأمدهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر ، فظهروا ، وأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئاً ، فقال رجل من بنى تميم لعمار : أيها الأجدع تريد أن تشاركنا فى غنائمنا ؟ فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه : أن الغنيمة لمن شهد الوقعة .

وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسم على الجمع ، وما كان من ذلك صحيحاً يعطى للقوال ، واستدل بما روى عن أبى قتادة قال : لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين ، وفرغنا من القوم ، قال رسول الله ﷺ « من قتل قتيلا فله سلبه » وهذا له وجــه فى الخرقة الصحيحة . فأما المجروحة فحكمها أسهام الحاضرين والقسمة لهم . ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضراً قسم له .

روى أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال : لما قدمنا على رسول الله

ﷺ بعد خيبر بثلاث فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا .

ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السماع ، كمتزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر ، أو صاحب دنيا يحوج إلى المداراة والتكلف ، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبى الفضل الحافظ المقدسى قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفرى بسرجس قال: أخبرنا أبو على الفضل بن منصور بن نصر الكاغدى السمرقندى إجازة قال : حدثنا الهيثم بن كليب قال : أخبرنا أبو بكر عمار بن إسحاق قال : حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال : كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، ففرح رسول الله ﷺ فقال : هل فيكم من ينشدنا ؟ فقال بدوى : نعم يارسول الله ، فقال هات ، فأنشأ الأعرابى:

لقد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه . قال معاوية بن أبى سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله ، فقال : مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب . ثم قسم رداءه رسول الله ﷺ على من حاضرهم بأربعمائة قطعة . فهذا الحديث أوردناه مسنداً كما سمعناه ووجدناه . وقد تكلم فى صحته أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئاً نقل عن رسول الله ﷺ يشا كل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا . وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم . ويخالج سرى أنه غير صحيح ، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا فى هذا الحديث ويأبى القلب قبوله والله أعلم بذلك .

الباب السادس والعشرون

فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئاً مخصوصاً لا يطلبونه فى غيرها ، ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بالأربعين ، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين ، على أن الأربعين خصت بالذكر فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه السلام ، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل . قال الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى،فيه تبيان الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، فلما فعل الله ذلك ، وأهلك فرعون ، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً ، وهو ذو القعدة ، فلما تمت الثلاثون ليلة ، أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب ، فقالت له الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة ، وقال له : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل ، فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعداً لمكالمة الله تعالى .

والعلوم اللدنية فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المكالمة ، ومن انقطع إلى الله أربعين يوماً مخلصاً متعاهداً نفسه بخفة المعدة ، يفتح

الله عليه العلوم اللدنية ، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك ، غير أن تعيين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك ، والتحديد والتقييد بالأربعين لحكمة فيه ، ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك ، أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء .

ويلوح فى سر ذلك معنى والله أعلم ، وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدّر التخمير بهذا القدر من العدد كما ورد : خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً ، فكان آدم لما كان مستصلحاً لعمارة الدارين ، وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا ، كما أراد منه عمارة الجنة ، كونه من التراب تركيباً يناسب عالم الحكمة والشهادة وهذه الدار الدنيا ، وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه ، وأربعين صباحاً خمر طينته ليبعد بالتخمير أربعين صباحاً بأربعين حجاباً من الحضرة الإلهية ، كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا ، ويتعوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب ، إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا ، فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى فى الأرض .

فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه ، والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع ، وعلى قدر زوال كل حجاب ينجذب ويتخذ منزلا فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها ، فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصباباً .

ثم العلوم والمعارف هى أعيان انقلبت أنواراً باتصال إكسير نور العظمة الإلهية بها ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوماً إلهامية ، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية ، لأن حديث النفس وعاء وجودى لقبول الأنوار ، وما للقلب

فى ذاته لقبول العلم شىء . وقول رسول الله ﷺ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، أشار إلى القلب باعتبار أن القلب وجهاً إلى النفس ، باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكونة فى النفس ، ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجمانه . فظهور العلوم من القلب لأنها متأصلة فيه .

فالقلب والروح مراتب من قرب الملهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام . فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده ، ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم . وقد ورد فى الخبر « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »

ففى كل يوم بإخلاصه فى العمل لله ينكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية المبعدة عن الله تعالى ، إلى أن ينكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة فى كل يوم طبقة من أطباق حجابه . وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد بعد الأربعين فى الدنيا ، ويتجافى عن دار الغرور ، وينيب إلى دار الخلود ، لأن الزهد فى الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يزهد فى الدنيا ماظفر بالحكمة ، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد أخل بالشروط ، ولم يخلص لله تعالى ، ومن لم يخلص لله ماعبد الله ، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل ، فقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال أنا أبو منصور الضبعى قال حدثنا محمد ابن أشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زر عن صفوان بن عسال رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة يجىء الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الرب عز وجل ، فيقول الرب للإخلاص : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » .

وبهذا الإسناد قال السلمى : سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص

ما هو ؟ قال : سمعت إبراهيم الشقيقى وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن على الهجيمى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت عبد الواحد ابن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت النبى ﷺ عن الإخلاص ماهو ؟ قال : « سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادى » .

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس ، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة ، ميالة إلى مخالطة الخلق ، فإذا أزعجها عن مقار عادتها ، وحبسها على طاعة الله تعالى ، يعقب كل مرارة تدخل عليها حلاوة فى القلب .

قال ذو النون رحمه الله : لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص ، وظفر بركن من أركان الصدق .

وقال الشبلى رحمه الله لرجل استوصاه : الزم الوحدة ، وامح اسمك عن القوم ، واستقبل الجدار حتى تموت .

قال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة منية الصديقين .

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة ، وتنجذب النفس إلى ذلك ، وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد .

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أخبرنا الحافظ إسماعيل بن أحمد المقرى قال أنا جعفر بن الحكاك المكى قال أنا أبو عبد الله الصنعانى قال أنا أبو عبد الله البغوى قال أنا إسحاق الديرى قال أنا عبد الرزاق عن معمر قال أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول مابدىء به

رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق) حتى بلغ (مالم يعلم) فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة : مالي وأخبرها الخبر ، فقال : قد خشيت على عقلي ، فقالت : كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : ياعم اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الخبر رسول الله ﷺ ، فقال لرسول الله ﷺ : هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى ، ياليتني جذعاً ، ليتني فيها أكون حياً حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم ؟ قال ورقة : نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودي وأوذي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

وحدث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه « فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فدثروني فأنزل الله تعالى (ياأيها المدثر . قم فأنذر) إلى (والرجز فاهجر) .

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مراراً كى يردى نفسه من شواهق الجبال ، فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال : يامحمد إنك لرسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك ، فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك .

فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين ، فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضاً من الله إياهم عما تركوا لأجله .

ثم خلوة القوم مستمرة وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادى بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهبه السنية .

الباب السابع والعشرون

فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط فى طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان ، وفتح عليهم باباً من الغرور ، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص ، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات ، وظهرت لهم وقائع ، وكوشفوا بغرائب وعجائب ، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهــذا عين الاعتلال ومحض الضلال . وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين ، وتفقد أحوال النفس ، وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبى عمرو الأنماطى أنه قال : لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحـال الأول والمواطن التى ينبغى أن يعرف منها أمزداد هو أم منتقص ، فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لـكى لايعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريده .

أنبأنا طاهر بن أبى الفضل إجازة عن أبى بـكر بن خلف إجازة قال أنبانا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربى يقول : من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يـكون خالياً من جميع الأفـكار إلا ذكر ربه عز وجل ، وخالياً من جميع المرادات إلا مراد ربه ، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، فإن لم يـكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بـكر إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصوراً يقول سمعت محمـد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الوراق وقال له : أوصنى ، فقال : وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة ، ووجدت شرهما فى الـكثرة والاختلاط ، فمن دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان ، وسول له أنواع الطغيان ، وامتلأ من الغرور والمحال ، فظن أنه على حسن الحال ، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة

بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجموا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة .
والوحدة فى جمع الهم لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقاً ، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب ، والزهد فى الدنيا ، وحلاوة الذكر ، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون خذلهم الله تعالى ، وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله ، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية ، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك ، حتى يركن إليه الركون التام ، ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة ، وليس هو المقصود من الخلوة بقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة .

وقد يفتح على الصادقين شىء من خوارق العادات وصدق الفراسة ، ويتبين ما سيحدث فى المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك ، ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح فى حالهم الانحراف عن حد الاستقامة ، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبباً لمزيد إيقانهم ، والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة ، ومايفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سبباً لمزيد بعده وغروره وحماقته ، واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه ، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ، ويترك متابعة الرسول ﷺ ، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق ، نعوذ بالله من الضلال .

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقعد فى الخلوة أربعين يوماً أو أكثر ، فمنهم من يباشر باطنه

صفو اليقين ، ويرفع الحجاب عن قلبه ، ويصير كما قال قائلهم رأى قلبى ربى.
وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات ، وكف الجوارح ،
وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات ، وتارة يبادئه
الحق لموضع صدقه ،وقوة استعداده ومبادئه، من غير عمل وجد منه ،وتارة
يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار ، لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقوله،
وتكون عبادته الصلوات الخمس بسننها الراتبة فحسب، وسائر أوقاته مشغولة
بالذكر الواحد ، لا يتخللها فتور ، ولا يوجد منه قصور ، ولا يزال يردد ذلك
الذكر ملتزماً به ، حتى فى طريق الوضوء وساعة الأكل لا يفتر عنه .

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة لا إله إلا الله ، وهذه الكلمة لها
خاصية فى تنوير الباطن وجمع الهم إذا داوم عليها صادق مخلص ، وهى من
مواهب الحق لهذه الأمة ، وفيها خاصية لهذه الأمة فيما حدثنا شيخنا ضياء
الدين إملاء قال أنا أبو القاسم الدمشقى الحافظ قال أنا عبد الكريم بن الحسين
قال أنا عبد الوهاب الدمشقى قال أنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال
حدثنا الوليد بن مسلم قال أنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : أن عيسى بن مريم
عليه السلام قال : رب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ، قال: أمة محمد عليه الصلاة
والسلام ، علماء أخفياء أتقياء حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء ، يرضون منى
بالقليل من العطاء ، وأرضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله
إلا الله ، ياعيسى هم أكثر سكان الجنة ، لأنها لم تذل ألسن قوم قط بلا إله
إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : إن هذه الآية
مكتوبة فى التوراة (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)
وحرزاً للمؤمنين وكنزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ،
ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة
ولكن يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا
لا إله إلا الله ، ويفتحوا أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه ، مع مواطأة

القلب ، حتى تصير الكلمة متأصلة فى القلب ، مزيلة لحديث النفس ، ينوب معناها فى القلب عن حديث النفس ، فإذا استولت الكلمة ، وسهلت على اللسان يتشربها القلب ، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب ، ثم تتجوهر فى القلب ، وبتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهراً ، ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات ، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة ، أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر ، وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة . وقد يحصل هذا من الخلوة لا بذكر الكلمة ، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة ، واجتهد فى مواطأة القلب مع اللسان ، حتى تجرى التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة ، ويتنور الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة ، ويتجوهر نور الكلام فى القلب ، ويكون منه أيضاً ذكر الذات ، ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى ، ودون هذه الموهبة ماينفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللدنية ، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه ، قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره ، حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم ، وقد تتجلى له الحقائق فى لبسه الخيال أولا ، كما تنكشف الحقائق للنائم فى لبسه الخيال ، كمن رأى فى المنام أنه قتل حية ، فيقول له المعبر تظفر بالعدو ، فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح مجرد صاغ ملك الرؤيا له جسداً لهذا الروح من خيال الحية ، فالروح الذى هو كشف الظفر أخبار الحق ، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة ، فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية ، فافتقر إلى التعبير ، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر .

وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة ، فيكون المنام أضغاث أحلام لايعبر ، وقد يتجرد لصاحب الخلوة المنبعث من ذاته ، من غير أن يكون وراء لحقيقة ، فلايبنى على ذلك ولايلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فى ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس ، بحيث لودخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته فى الذكر ، فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف، فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى ، وإما يفسره له شيخه كما يعبر المعبر المنام ، ويكون ذلك واقعة ، لأنه كشف حقيقة فى لبسة مثال ، وشرط صحة الواقعة الإخلاص فى الذكر أولا ، ثم الاستغراق فى الذكر ثانياً ، وعلامة ذلك الزهد فى الدنيا وملازمة التقوى ، لأن الله جعله بما يكاشف به فى واقعة مورد الحكمة ، والحكمة تحكم بالزهد والتقوى . وقد يتجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال ، فيكون ذلك كشفاً وإخباراً من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع ، وقد يسمع من باطنه ، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهواتف ، يعلم ذلك أمراً يريد الله إحداثه له أو لغيره ، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيداً ليقينه ، أو يرى فى المنام حقيقة الشىء .

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب فى قدح ، فوضعه من يده وقال : قد حدث فى العالم حدث ولا أشرب هذا دون أن أعلم ماهو ، فانكشف له أن قوماً دخلوا مكة وقتلوا فيها .

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال : كنت راكباً حماراً لى يوماً ، وكان يؤذيه الذباب فيطأطىء رأسه ، فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى ، فرفع الحمار رأسه إلىّ وقال اضرب فإنك على رأسك تضرب . قيل له : يا أبا سليمان وقع لك ذلك أوسمعته ؟ فقال : سمعته يقول كما سمعتنى .

وحكى عن أحمد بن عطاء الروزبارى قال : كان لى مذهب فى أمر الطهارة ، فكنت ليلة من الليالى أستنجى إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى ، فتضجرت فبكيت وقلت : يارب العفو ، فسمعت صوتاً ولم أر أحداً

يقول : يا أبا عبد الله العفو فى العلم . وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه .

قيل : كان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص له قيمة ، وكان يوماً من الأيام راكباً فى السمارية فى دجلة ، فهم أن يعطى الملاح قطعة ، وحل الخرقة فوقع الفص فى الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب ، وكان يدعو به ، فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها . والدعاء هو أن يقول : ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع علىّ ضالتى .

وسمعت شيخنا بهمذان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى جيحون ، كاد يسقط فى الماء من السفينة ، قال فزجرته فلم يسقط ، وكان هذا الشخص بنواحى همذان وولده بجيحون ، فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط .

وقال عمر رضى الله عنه : ياسارية الجبل ، على المنبر بالمدينة ، وسارية بنهاوند ، فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو ، فقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقال : سمعت صوت عمر وهو يقول ياسارية الجبل .

سئل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان ، ركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه الإيمان بالحكمة ، وركن منه التبرى من الحول والقوة ، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء . قيل له : مامعنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال : هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق قائماً على يمينه ، ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب ، تؤمن بجواز ذلك وكونه .

وحكى لى فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص ببغداد أنه قد مات ، فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد ، فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت ، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص راكباً ، قال رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد .

وكل هذه مواهب الله تعالى ، وقد يكاشف بها قوم وتعطى ، وقد

يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا ، لأن هذه كلها تقوية اليقين ، ومن منح صرف اليقين لاحاجة له إلى شيء من هذا ، فكل هذه الكرامات دون ماذكرناه من تجوهر الذكر فى القلب ووجود ذكر الذات ، فإن تلك الحكمة فيها تقوية المريدين ، وتربية للسالكين ، ليزدادوا بها يقيناً يجذبون به إلى مراغمة النفوس ، والسلو عن ملاذ الدنيا ، ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارة الأوقات بالقربات ، فيتروحون بذلك ، ويرقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك ، لمكان أن نفسه أسرع إجابة ، وأسهل انقياداً ، وأتم استمداداً . والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر ، واستكشف منهم ما استتر ، وقد لا يمتنع صور ذلك الرهابين والبراهمة ، ممن هو غير منتهج سبل الهدى ، وراكب طريق الردى ، ليكون ذلك فى حقهم سكراً واستدراجاً ، ليستحسنوا حالهم ، ويستقروا فى مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال ، والردى والوبال ، حتى لا يغتر السالك بيسير شيء يفتح له ، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدى حق التقوى والزهد . فأما من تعوق بخيال ، أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ، ويخرج بالغرور ، فيرفض العبادات ويستحقرها ، ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة ، وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة ، ويفتضح فى الدنيا والآخرة .

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات ، وكف الجوارح عن المكروهات ، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد ، وتوزيعها على الأوقات ، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ، ويصلح لقوم دوام المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر ، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحوب الشيخ ، المطلع على اختلاف الأوضاع وتنويعها ، مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة ، يريد المريد لله لا لنفسه ، غير مبتلى بهوى نفسه ، محباً للاستتباع . ومن كان محباً للاستتباع فما يفسده مثل هـذا أكثر مما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون

فى كيفية الدخول فى الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجداً أربعين يوماً وليلة حتى أتاه الغفران من ربه . وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانياً ، فليجعل لنفسه من ذلك نصيباً .

نقل عن سفيان الثورى فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه كان يقال : ما أخلص عبد لله أربعين صباحاً إلا أنبت الله سبحانه الحكمة فى قلبه ، وزهده الله فى الدنيا ، ورغبه فى الآخرة ، وبصره داء الدنيا ودواءها ، فيتعاهد العبد نفسه فى كل سنة مرة .

وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة ، فأكمل الأمر فى ذلك أن يتجرد من الدنيا ، ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة ، ويصلى ركعتين ، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه ، ببكاء وتضرع ، واستكانة وتخشع ، ويسوى بين السريرة والعلانية ، ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ، ثم يقعد فى موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد تفرقة فى خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة فى خلوته ، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفرداً البتة ، فبترك الجماعة يخشى عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عقله فى خلوته ، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه ينبغى أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكر لا يفتر عن الذكر ، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصغى إلى ما يسمع ، لأن القوة الحافظة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع ، فيكثر ذلك الوسواس وحديث النفس والخيال ،

ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته ، ويتقى فى خروجه استجلاء نظر الخلق إليه ، وعلمهم بجلوسه فى خلوته ، فقد قيل: لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس .

وهذا أصل يتفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل ، وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر . ويكون فى خلوته جاعلا وقته شيئاً واحداً موهوباً لله بإدامة فعل الرضا ، إما تلاوة أو ذكراً أو صلاة أو مراقبة . وأى وقت فتر عن هذه الأقسام ينام ، فإن أراد تعين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر ، أتى بذلك شيئاً فشيئاً ، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هـذه الأقسام ، فإذا فتر عن ذلك ينام ، وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل.

ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء ، ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات ، فيكون هذا شغله ليله ونهاره . وإذا كان ذكراً لكلمة لا إله إلا الله وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان . وقد قال سهل بن عبد الله : إذا قلت لا إله إلا الله مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأثبته وأبطل ما سواه وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة ، فليكن دائم التلزم بفعل الرضا .

وأما قوت من فى الأربعينية والخلوة ، فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح ، ويتناول كل ليلة رطلا واحداً بالبغدادى ، يتناوله بعد العشاء الآخرة ، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل ، فيكون ذلك أخف للمعدة ، وأعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيئاً يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك ، وإن أراد التقلل من هذا القدر أيضاً ينقص كل ليلة دون اللقمة ، بحيث ينتهى تقلله فى العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل ، وإن قوى فتم النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيراً كل ليلة بالتدريج ،

حتى يعود فطوره إلى ربع رطـل فى العشر الأخـير .

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الـكلام ، والاعتزال عن الناس . وقد جعل للجوع وقتان : أحدهما آخـر الأربع والعشرين ساعة ، فيكون من الرطل لـكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة ، يجعلها بعد العشاء الآخرة ، أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا . والوقت الآخر على رأس اثنتين وسبعين ساعة ، فيكون الطى ليلتين والإفطار فى الليلة الثالثة ، ويكون لـكل يوم وليلة ثلث رطل ، وبين هـذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة ، ويكون لـكل يوم وليلة نصف رطل ، وهـذا ينبغى أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سآمة وضجراً ، وقلة انشراح فى الذكر والمعاملة ، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل فى الوقتين أو الوقت الواحد ، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع ، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات . وقس على هذا ، فهى إن أطمعت طمعت ، وإن أقنعت قنعت .

وقـد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها . ومن الصالحين من كان يعبر القوت بنوى التمر ، وينقص كل ليلة نواة .

ومنهم من كان يعبر بعود رطب ، وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود .

ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف ، حتى يفنى الرغيف فى شهر .

ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل فى تقليل القوت ، ولـكن يعمل فى تأخيره بالتدريج ، حتى تندرج ليلة فى ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيهم إلى سبعة أيام ، وعشرة أيام ، وخمسة عشر يوماً ، إلى الأربعين .

وقد قيل لسهل بن عبد الله : هـذا الذى يأكل فى كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه ؟ قال : يطفئه النور . وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلاماً بعبارة دلت على أنه يجد فرحاً بربه ينطفىء معه لهب الجوع ، وهذا فى الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعاً فيذهب عنه الجوع . وهكذا فى طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودرج نفسه

فى شىء من هذه الأقسام التى ذكرناها لا يؤثر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه ، إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص ، وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى .

وقد قيل : حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل . ومتى عينت النفس الخبز فليس بجائع ، وهذا المعنى قد يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة أيام وهذا جوع الصديقين ، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية ، ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدريج . فأما من درج نفسه فى ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين كما ذكرنا . وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يبزق ، فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسومة ، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب .

روى أن سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم رضى الله عنهما كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستاً . وكان عبد الله ابن الزبير رضى الله عنه يطوى سبعة أيام .

واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمويه رحمه الله ، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى أنه كان يطوى أربعين يوماً . وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى الطى رجل أدركنا زمانه ، وما رأيته كان فى أبهر يقال له الزاهد خليفة ، كان يأكل فى كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمة أحد بالطى والتدريج إلى هذا الحد ، وكان فى أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود ، ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين .

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين ، وقد يسلك غير الصادق هذا لوجود هوى مستكن فى باطنه ، يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استجلاء لنظر الخلق ، وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك . والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد ، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى ، فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى ، فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك ، وهذا علامة الصادق ، فهما

أحس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه ، فإن فيه شائبة النفاق ، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحاً فى باطنه ينسيه الطعام ، وقد لاينسى الطعام ولـكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى ، فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى ، وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية . وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها ، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير ، فأجلى من جذب المغناطيس الحديد ، إذ للمغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس ، فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة ، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح ، وأداها إلى النفس ، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها ، فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

ولايقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعمـاله وأقواله وسائر أحواله ضرورة ، فيتناول من الطعام أيضاً ضرورة ، ولو تـكلم مثلا بـكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار ، لأن النفس الراقدة تستيقظ بـكل ما يوقظها ، وإذا استيقظت نزعت إلى هواها . فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ، ورزق العلم ، سهل عليه الطى ، وتداركته المعونة من الله تعالى ، لاسيما إن كوشف بشىء من المنح الإلهية .

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع ، وكان لا يطلب ولا يتسبب . قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله علىّ بتفاحة ، قال فتناولت التفاحة وقصدت أكلها ، فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها ، فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياماً . وذكر لى أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة ، والإيمـان بالقدرة ركن من أركان الإيمان ، فسلم ولا تنكر .

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوماً ظهرت له القدرة من الملـكوت .

وكان يقال : لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من الملكوت .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوماً برياضة النفس فى تأخير القوت . وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة فى نصف شهر ، فيطوى الأربعين فى سنة وأربعة أشهر ، فتندرج الأيام والليالى حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد .

وذكر لى أن الذى فعل ذلك ظهرت له آيات من الملكوت ، وكوشف بمعانى قدرة من الجبروت ، تجلى الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من الطى والتقلل ، لو أنه عين الفضيلة مافات أحداً من الأنبياء ، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته ، ولاشك أن لذلك فضيلة لاتنكر ، ولكن لاينحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوماً ، وقد يكون من لايكاشف بشىء من معانى القدرة أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله بصرف المعرفة . فالقدرة أثر من القادر ، ومن أهل لقرب القادر لايستغرب ولايستنكر شيئاً من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء علم الحكمة ، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوماً واجتهد فى ضبط أحواله بشىء من الأنواع التى ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته ، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين . وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة ، وهى أربعون موسى عليه السلام .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ « من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

الباب التاسع والعشرون

فى أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظاً فى الاقتداء برسول الله ﷺ ، وأحقهم بإحياء سنته ، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتداء وإحياء سنته على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال أنا أبو نصر عبد العزيز ابن محمد الترياقى قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال لى رسول الله ﷺ « يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال : يابنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة » .

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ ، لأنهم وفقوا فى بدايتهم لرعاية أقواله ، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله ، فأثمر لهم ذلك أن تحققوا فى نهاياتهم بأخلاقه ، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس ، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع . وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ (وإنك لعلى خلق عظيم) لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفساً كان أحسنهم خلقاً . قال مجاهد : على خلق عظيم أى على دين عظيم . والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن .

قال قتادة : هو ما كان يأمر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه .

وفى قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير ، وعلم غامض ، ما نطقت بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى ، وصحبة رسول الله ﷺ ، وتخصيصه إياها بكلمة « خــذوا شطر دينــكم من هذه الحميراء » وذلك أن

النفوس مجبولة على غرائز وضبائع هى من لوازمها وضرورتها ، خلقت من تراب، ولها بحسب ذلك سبع ، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادى تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية . وإلى صفة الشيطنة فى الإنسان إشارة بقوله تعالى (من صلصال كالفخار) لدخول النار فى الفخار . وقد قال الله تعالى (وخلق الجان من مارج من نار) .

والله تعالى بخفى لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله ﷺ على ماورد فى حديث حليمة ابنة الحارث أنها قالت فى حديث طويل : فبينا نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعاه فشقا بطنه ، فخرجت انا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً ممتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى ماشأنك ؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا ، فقال أبوه : ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب ، انطلقى بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت فاحتملناه ،فلم ترع أمه إلاوقد قدمنا به عليها. قالت : ماردكما ، قد كنتما عليه حريصين ؟ قلنا : لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذى كان علينا وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله . فقالت : ماذاك بكما فاصدقانى شأنكما ، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره . فقالت : خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإنه لكائن لابنى هذا شأن ، ألا أخبركما بخبره ؟ قلنا : بلى، قالت : حملت به فاحملت حملا قط أخف منه . قالت : فأريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور قد أضاءت به قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعاً لم يقعه المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما .

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر لها ظهور بصفات وأخلاق مبقاة على رسول الله ﷺ

رحمة للخلق ، لوجود أمهات تلك الصفات فى نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة ، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها تأديباً من الله لنبيه ، رحمـــة خاصة له ، وعامة للأمة ، موزعة لنزول الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات . قال الله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات ، لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطراب ، آية متضمنة لخلق صالح سنى ، إما تصريحاً أو تعريضاً ، كما تحركت النفس الشريفـة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه ، ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » فأنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) فاكتسى القلب النبوى لباس الاصطبار ، وجاء بعد الاضطراب إلى القرار . فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون فى إبقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه السلام «إنما أنسى لأسن» فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم، حتى تتزكى نفوسهم ، وتشرف أخلاقهم . قال رسول الله ﷺ « الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً منحه منها خلقاً » .

وقال ﷺ « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وروى عنه ﷺ «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقاً ، من آتاه واحداً منها دخل الجنة » .

فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى، المرسل ونبى، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماءه منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها ، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهـذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء . ولا يبعد والله أعلم أن قول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن ، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى

الأخلاق الربانية ، فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن ، استحياء من سبحات الجلال ، وستراً للحال بلطف المقال ، وهذا من وفور علمها وكمال أدبها . وبين قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) وبين قوله (وإنك لعلى خلق عظيم) مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى .

وقال الواسطى رحمه الله تعالى : لأنه جاد بالكونين عوضاً عن الحق .

وقيل : لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه ، وهذا ماقاله بعضهم فى معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق ، والصدق مع الحق .

وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان فى عينه بمشاهدة مكونها .

وقيل : سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب رسول الله ﷺ أمته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثنى عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا: يارسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » والثرثار هو المكثار من الحديث . والمتشدق : المتطاول على الناس فى الكلام .

قال الواسطى رحمه الله : الخلق العظيم أن لايخاصم ولا يخاصم .

وقال أيضاً : (وإنك لعلى خلق عظيم) لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك .

وقال أيضاً : لأنك قبلت فنون ماأسديت إليك من نعمى أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل .

وقال الحسين : لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق .

وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى ، والتخلق بأخلاق الله تعالى ، إذ لم يبق للأعواض عنده خطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين) أتم ، لأنه حيث قال (وإنك) أحضره ، وإذا أحضره أغفله وحجبه . وقوله (لأخذنا) أتم ، لأن فيه فناء . وفى قول هذا القائل نظر ، فهلا قال : إن كان فى ذلك فناء ففى قوله (وإنك) بقاء ، وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة ، لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مذموم ، فإذا نزع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت ، فأى عزة تبقى فى الفناء ، فيكون حضوره بالله لا بنفسه ، فأى حجبة تبقى هنالك ؟

وقيل : من أوتى الخلق العظيم فقد أوتى أعظم المقامات ، لأن للمقامات ارتباطاً عاماً ، والخلق ارتباط بالنعوت والصفات .

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء : السخاء ، والألفة ، والنصيحة ، والشفقة .

وقال ابن عطاء : الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار ، ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوفات .

وقال أبو سعيد القرشى : العظيم هو الله ، ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام «إن لله مائة وبضعة عشر خلقاً من أتى بواحد منها دخل الجنة » فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وقيل : عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق ، وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات .

وقيل : لما بعث محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات ، وألقاه فى الغربة والجفوة ، فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر

المقدسى عن أبيه قال أنا أبو عمر المليحى قال أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال أنا أبو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقى قال أنا أيوب بن محمد الوزان قال حدثنى الوليد قال حدثنى ثابت عن يزيد عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان نبى الله ﷺ يقول «مكارم الأخلاق عشرة، تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه، وتكون فى الابن ولا تكون فى أبيه، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث، وصدق اليأس، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السائل، والمكافأ بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء» .

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر مايدخل الناس الجنة، قال «تقوى الله وحسن الخلق» .

وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار قال « الغم والفرح » يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء . ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وهو الفرح الذى قال الله تعالى (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) لما رأى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة . فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود ينافس فيه . قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) .

وفسر عبد الله بن المبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى .

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق . وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق . فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلهـــا .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتانى يقول : التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف .

فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان . والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين ، وتأصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيقان ، فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس . والقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح . والنفس وجه إلى القلب ووجه إلى الطبع والغريزة . والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ، ويكون ذا وجهين : وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس، فإذا ابيض كله توجه إلى الروح بكله ، فيتداركه مدد الروح ، ويزداد إشراقاً وتنوراً ، و كلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب ، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذى يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب ، وعلامة تنورها طمأنينتها . قال الله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ . وبقاء شىء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع ، كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفاً لنورانية باطنه . وإذا تنور أحد وجهى النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ، ولذلك سمى الأبدال أبدالا . والسر الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله ، ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات ، ويصير حينئذ بمثابة العرش ، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة ، والقلب عرش فى عالم الأمر والقدرة .

قال سهل بن عبد الله التسترى : القلب كالعرش ، والصدر كالكرسى .

وقد ورد عن الله تعالى « لايسعنى أرضى ولاسمائى ، ويسعنى قلب عبدى المؤمن » .

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات ، وصار بحراً موّاجاً من نسمات القرب ، جرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات ، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى .

حكى عن الشيخ أبى على الفارمذى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى أنه قال : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك ، وهو بعد فى السلوك غير واصل ، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفاً يلائم ضعف حال البشر وقصوره ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير ، وكل من توهم بذلك شيئاً من الحلول تزندق وألحد . وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذاً بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق ، فقال له « يامعاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، وقصد العمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، وإياك أن تسب حليما ، أو تكذب صادقاً ، أو تطيع آثماً ، أو تعصى إماماً عادلا ، أو تفسد أرضاً . أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، بذلك أدب الله عباده ، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » .

وروى معاذ أيضاً عن رسول الله ﷺ قال « حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على بإسناده المتقدم إلى الترمذى رضى الله عنه قال أنبأنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال سمعت النبى عليه السلام

يقول « مامن شيء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » .

وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان أسخى الناس ، لايبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لايأوى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا . وأكثر قوت عامه من أيسر مايجد من التمر والشعير ، ويضع ما عدا ذلك فى سبيل الله ، لايسأل شيئاً إلا يعطى ، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه ، حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام.

وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم فى مهنة أهله ، ويقطع اللحم معهن .

وكان أشد الناس حياء ، وأكثرهم تواضعاً . فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون

فى تفصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع . ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أنه يقيمه . ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه ، ومن رزق هذا فقد استراح وأراح ، وما يعقلها إلا العالمون .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا عثمان بن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان قال حدثنا أبو حاتم الرازى قال حدثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى أوحى إلىّ أن تواضعوا ، ولا يبغى بعضكم على بعض » .

وقال عليه السلام فى قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) قال « على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس » .

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ، ولو أنها جرعة لبن ، أو فخذ أرنب ، ويكافىء عليها ، ويأكلها ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين .

وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى قال أنا أحمد بن على المقرى قال أنا محمد بن المنهال قال حدثنى أبى عن محمد بن جابر اليمانى عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ « إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت ، وترد على من سلم عليك ، وأن ترضى بالدون من المجلس ، وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر » .

وورد أيضاً عنه عليه السلام « طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسكنة » .

سئل الجنيد عن التواضع فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب .

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبله ممن قاله، وتسمع منه.

وقال أيضاً: من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب.

وقال وهب بن منبه: مكتوب فى كتب الله: إنى أخرجت الذر من صلب آدم، فلم أجد قلباً أشد تواضعاً إلىّ من قلب موسى عليه السلام، فلذلك اصطفيته وكلمته.

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم يطمع فى العلو والشرف، ويسلك سبيل التواضع، فلا يخاصم من يذمه، ويشكر الله لمن يحمده.

وقال أبو حفص: من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم، فمن شده تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر.

وقال لقمان عليه السلام: لكل شىء مطية ومطية العمل التواضع.

وقال النورى: خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا: عالم زاهد، وفقيه صوفى، وغنى متواضع، وفقير شاكر، وشريف سنى.

وقال الجلاء: لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نختطر.

وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيته خيراً منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاماً على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم فى قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ، قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفاً واحداً، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله، والانكسار فى نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول: صح عند أهل المعرفة أن الدين رأس مال: خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن، فأما اللواتى فى الظاهر،

فصدق فى اللسان ، وسخاوة فى الملك ، وتواضع فى الأبدان ، وكف الأذى ، واحتماله بلا إباء . وأما اللواتى فى الباطن ، فحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والندم على فعله ، والحياء من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع فى الخلق حسن ولكن فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج فى الخلق ولكن فى الفقراء أسمج .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : تصغير النفس معرفة بالعيب ، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقاً ما ولا حالا من عله بشرها وازدرائها ، ولا يرى أن فى الخلق شراً منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال : نعم ، أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة ، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعة وضع الإنسان نفسه مكاناً يزرى به ويفضى إلى تضييع حقه .

وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراط إلى حضيض التفريط ، ويوهم انحرافاً عن حد الاعتدال ، ويكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفاً عليهم من العجب والكبر ، فقل أن ينفك مريد فى مبادى ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب . وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم ، وانحصارهم فى مضيق سكر الحال ، وعدم الخروج إلى فضاء الصحو فى ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو

على الوقت وصلاقة الحال ، فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : من تحت خضراء السماء مثلى ؟ وقول بعضهم : قدمى على رقبة جميع الأولياء ، وكقول بعضهم : أسرجت وألجمت وطفت فى أقطار الأرض وقلت هل من مبارز ، فلم يخرج إلىّ أحد ، إشارة منه فى ذلك إلى تفرده فى وقته.

ومن أشكل عليه ذلك ، ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع ، فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله ﷺ وتواضعهم ، واجتنابهم أمثال هذه الكلمات ، واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشىء من ذلك ، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه فى الصحة ، ويقال إن ذلك طفح عليهم فى سكر الحال ، وكلام السكارى يحمل .

فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا فى النفوس هذا الداء الدفين ، بالغوا فى شرح التواضع إلى حد ألحقوه بالضعة تداوياً للمريدين . والاعتدال فى التواضع أن يرضى الإنسان بمنزلة دون مايستحقه ، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجموح فى جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار ، فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار ، احتاجت التداوى بالتواضع وإيقافها دون ماتستحقه ، لئلا يتطرق إليها الكبر . فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لايستحقها إلا الله تعالى ، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذباً .

والكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة . وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى (إنه لايحب المستكبرين).

وقال تعالى (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) .

وقد ورد بقول الله تعالى « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما قصمته » وفى رواية « قذفته فى نار جهنم » .

وقال عز وجل رداً للإنسان فى طغيانه إلى حده (ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) .

وقال تعالى (فلينظر الإنسان مِمّ خلق . خلق من ماء دافق) .

وأبلغ من هذا قوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره).

وقد قال بعضهم لبعض للتكبرين : أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة .

وقد نظم الشاعر هذا المعنى :

كيف يزهو من رجيعه أبد الدهر ضجيعه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر ، انتشر أثره فى بعض الجوارح ، ويرشح الإناء بما فيه ، فتارة يظهر أثره فى العنق بالتمايل ، وتارة فى الخد بالتصعير ، قال الله تعالى(ولا تصعر خدك للناس) .

وتارة يظهر فى الرأس عند استعصاء النفس . قال الله تعالى (لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) .

وكما أن الكبر له انقسام على الجوراح والأعضاء تتشعب منه شعب ، فكذلك بعضها أكثف من البعض ، كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك ، إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم ، والعزة محمودة . قال الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

والعزة غير الكبر ، ولايحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها أن لايضعها لأغراض عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها .

قال بعضهم للحسن : ما أعظمك فى نفسك ، قال : لست بعظيم ولكنى عزيز .

ولما كانت العزة غير مذمومة ، وفيها مشاكلة بالكبر ، قال الله تعالى (تستكبرون فى الأرض بغير الحق) فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، ولا يؤيد فى ذلك ولايثبت عليه إلا أقدام

العلماء الراسخين ، والسادة المقربين ، ورؤساء الأبدال والصديقين .

قال بعضهم : من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه ، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه .

وقال الترمذى : التواضع على ضربين : الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه ، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره ، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع ، والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله ، فإن اشتهت نفسه شيئاً مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك . وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى .

واعلم أن العبد لايبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى فى قلبه ، فعند ذلك تذوب النفس ، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب ، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها ، وسكون وهجها وغبارها . وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان القرب ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث الطويل قالت : فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة فأخذنى مايأخذ النساء من الغيرة ظناً منى أنه عند بعض أزواجه ، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده ، فوجدته فى المسجد ساجداً كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده « سجد لك سوادى وخيالى ، وآمن بك فؤادى ، وقر بك لسانى ، وهاأناذا بين يديك ياعظيم ياغافر الذنب العظيم » .

وقوله عليه السلام « سجد لك سوادى وخيالى » استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهراً وباطناً .

ومتى يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لايتوفر حظه من التواضع للخلق . وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها . والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية .

ومن أخلاق الصوفية المداراة ، واحتمال الأذى من الخلق . وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود ، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق ، بل وداه بمائة ناقة من قبله ، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به .

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاماً ، ولا ينهر خادماً .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفضل الكرخى قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط ، وما قال لى لشىء صنعته لم صنعته ، ولا لشىء تركته لم تركته . وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً ، وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مساقط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ .

فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية ، وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس .

وقد قيل : لكل شىء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو محمد الصرفينى قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على بن الجعد قال أنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قلت من هو ؟ قال : ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال « المؤمن الذى يماشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » .

وفى الخبر « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم . قيل : ماذا كان يصنع أبو ضمضم ؟ قال : كان إذا أصبح قال : اللهم إنى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى ، فمن ضربنى لا أضربه ، ومن شتمنى لا أشتمه ، ومن ظلمنى لا أظلمه » .

وأخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال أنا أبو الفتح الهروى قال حدثنا الترياق قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا ابن أبى عمر قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال

« بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة » ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج قلت يارسول الله قلت له ما قلت ثم ألنت له القول ، قال « ياعائشة إن من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه » .

وروى أبو ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

فما شيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة . والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها ، ويستفزها الغيظ والغضب ، وبالمداراة قطع حمة النفس ، ورد طيشها ونفورها .

وقد ورد « من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » .

وروى جابر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل هين لين سهل قريب » .

وروى أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : أتى النبى عليه السلام رجل فكلمه فأرعد فقال « هوّن عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسار بنو يسر سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبى ﷺ قال « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير » .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى ابن عمر السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن إسحاق قال

حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفي رجلي نعل كثيفة فوطئت بها على رجل رسول الله ﷺ فنفحني نفحة بسوط في يده وقال بسم الله أوجعتني . قال : فبت لنفسي لائماً أقول أوجعت رسول الله . قال : فبت بليلة كما يعلم الله ، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان ؟ قلت هـذا والله الذي كان مني بالأمس . قال فانطلقت وأنا متخوف ، فقال لي إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني فنفحتك نفحة بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها .

ومن أخلاق الصوفية الإيثار والمواساة ، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً وقوة اليقين شرعاً ، يؤثرون بالموجود ، ويصبرون على المفقود .

قال أبو يزيد البسطامي : ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجاً فقال لي : يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال لي : هكذا عندنا كلاب بلخ ، فقلت له : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وقال ذو النون : من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار بالقوت .

روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فأنزل الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد أصابه جهد فقال يا رسول الله إني جائع فأطعمني ، فبعث النبي ﷺ إلى أزواجه هل عندكن شيء ؟ فكلهن قلن والذي بعثك بالحق نبياً ما عندنا إلا الماء ، فقال رسول الله ﷺ : ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة ، ثم قال : من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله ، فأتى

به منزله فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله ﷺ فأكرميه ولاتدخرى عنه شيئاً ، فقالت : ماعندنا إلاقوت الصبية ، فقال : فقومى عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولايطعمون شيئاً ثم أسرجى ، فإذا أخـــذ الضيف ليأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله ، حتى يشبع ضيف رسول الله ، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئاً ، ثم قامت فأثردت وأسرجت ، فلما أخـذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته ، فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليهما تبسم رسول الله ﷺ ثم قال : لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ، وأنزل الله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وقال أنس رضى الله عنه : أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهوداً ، فوجه به إلى جار له ، فتداوله سبعة أنفس ثم عادإلى الأول ، فأنزلت الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى ، وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم إيثاراً منه على نفسه .

وحكى عن حذيفة العدوى قال : انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه ، فإذا أنا به فقلت أسقيك ؟ فأشار إلىّ نعم ، فإذا رجل يقول آه ، فقال ابن عمى : انطلق به إليه ، فجئت إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فسمع هشام آخر يقول : آه ، فقال : انطلق به إليه ، فجئت إليه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضاً قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو أيضاً قدمات .

وسئل أبو الحسين البوشنجى عن الفتوة ، فقال : الفتوة عندى ماوصف

الله تعالى به الأنصار فى قوله (والذين تبوؤا الدار والإيمان) .

قال ابن عطاء : يؤثرون على أنفسهم جوداً وكرماً (ولو كان بهم خصاصة) يعنى جوعاً وفقراً .

قال أبو حفص : الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه فى أمر الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم : الإيثار لايكون عن اختيار إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ، ولاتميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى لنفسه ملكا لايصح منه الإيثار ، لأنه يرى نفسه أحق بالشىء برؤية ملكه ، إنما الإيثار ممن يرى الأشياء كلها للحق ، فمن وصل إليه فهو أحق به ، فإذا وصل شىء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك ، فإن الدنيا أقل خطراً من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر .

ومن هذا المعنى مانقل أن بعضهم رأى أخاً له فلم يظهر البشر الكثير فى وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : يا أخى سمعت أن رسول الله ﷺ قال « إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشراً وعشرة لأقلهما بشراً » فأردت أن أكون أقل بشراً منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة قال أنا أبو حفص عمر بن الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا القاسم الرازى يقول سمعت أبا بكر بن أبى سعدان يقول : من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولاقلب ولاملك ، فمن نظر إلى شىء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده .

وقال سهل بن عبد الله : الصوفى من يرى دمه هدراً ، وملكه مباحاً .

وقال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

قيل : لما سمى بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه ، وقبض على الشجام والرقام

والنورى ، وبسط النطع لضرب رقابهم ، تقدم النورى فقيل له : إلى ماذا تبادر ؟ فقال : أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة .

وقيل : دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائباً وباب بيته مغلق ، فقال : صوفى وله باب مغلق، اكسروا الباب ، فكسروه وأمر بجميع ماوجدوا فى البيت أن يباع ، فأنفذوه إلى السوق واتخذوا رفقاً من الثمن وقعدوا فى الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئاً ، ودخلت امرأته وعليها كساء فدخلت بيتاً فرمت بالكساء وقالت : هذا أيضاً من بقية المتاع فبيعوه ، فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ قالت : اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شىء ندخره عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد ، فاستبطأ إخوانه فى عيادته ، فسأل عنهم ، فقالوا : إنهم يستحيون بمالك عليهم من الدين ، فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان عن الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادى : من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل ، فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده .

وقيل : أتى رجل صديقاً له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال : لماذا جئتنى ؟ قال : لأربعمائة درهم دين علىّ ، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكياً ، فقالت امرأته : هلا تعللت حين شق عليك الإجابة ؟ فقال : إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى به .

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان قال حدثنا أبو عبد الله الجرجانى قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمداباذى قال حدثنا أبو البحترى قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا بريدة بن أبى بردة عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو وقلّ طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم ».

وحدث جابر عن رسول الله ﷺ أنه إذا أراد أن يغزو قال : « يامعشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عدة ، فليضم أحدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة ، فما لأحدكم من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة

أحدهم » قال : فضممت إلىّ اثنين أو ثلاثة مالى إلا عقبة كعقبة أحـــدهم من جمله .

وروى أنس قال : لمـا قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع ، فقال له : أقاسمك مالى نصفين ، ولى امرأتان فأطلق إحداهما ، فإذا انقضت عدتها تتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك .

فما حمل الصوفى على الإيثار إلا طهارة نفسه ، وشرف غريزته . وما جعله الله تعالى صوفياً إلا بعـــد أن سوى غريزته لذلك . وكل من كانت غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفياً ، لأن السخاء صفة الغريزة ، وفى مقابلته الشح ، والشح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى (ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون) حكم بالفلاح لمن يوقى الشح ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال (ومما رزقناهم ينفقون . أولئك على هـــدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين .

والنبي عليه السلام نبه بقوله « ثلاث مهلكات وثلاث منجيات » فجعل إحدى المهلكات شحاً مطاعاً ، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا ، بل يكون مهلكا إذا كان مطاعاً ، فأما كونه موجوداً فى النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستمداً من أصل جبلتها الترابى ، وفى التراب قبض وإمساك ، وليس ذلك بالعجب من الآدمى وهو جبلى فيه ، وإنما العجب وجود السخاء فى الغريزة ، وهو لنفوس الصوفية الداعى لهم إلى البذل والإيثار .

والسخاء أتم وأكمل من الجود ، فنى مقابلة الجـود البخل ، وفى مقابلة السخاء الشح ، والجـود والبخل يتطرق إليهما الاكتسـاب بطريق العادة ، بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة . وكل سخى جواد وليس كل جواد سخياً . والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الغرائز . والله تعالى منزه عن الغريزة . والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الإنسان متطلعاً إلى عوض من الخلق أو الحـق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعـالى . والسخاء لا يتطرق إليه الرياء ،

لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض دنيا وآخرة ، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض ، فما تمحض سخاء ، فالسخاء لأهل الصفاء ، والإيثار لأهل الأنوار .

ويجوز أن يكون قوله تعالى (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) أنه نفى فى الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال (لا نريد) بعد قوله (لوجه الله) فما كان لله لا يشعر بطلب العوض ، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا لعوض ، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز .

روت أسماء بنت أبى بكر قالت قلت : يارسول الله ليس لى من شىء إلا ما أدخل علىّ الزبير ، فأعطى ؟ قال : « نعم لا توكى فيوكى عليك » .

ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو ، ومقابلة السيئة بالحسنة .

قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيئاً وهات شيئاً .

وقال الحسن : الإحسان أن تعم ولا تخص ، كالشمس والريح والغيث .

وروى أنس قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة ، فقلت ياجبرائيل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه كان مع النبى ﷺ فى مجلس فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى عليه السلام يتبسم ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذى قال ، فغضب النبى وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يارسول الله شتمنى وأنت تتبسم ثم رددتُ عليه بعض ما قال فغضبت وقمت ، فقال « إنك حيث كنت ساكناً كان معك ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان . ياأبا بكر ثلاث كلهن حق : ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة » .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكروخى قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا

أبو هشام الرفاعي قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ « لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤا فلا تظلموا » .

وقال بعض الصحابة : يارسول الله الرجل أمرّ به فلا يقريني ولا يضيفني ، فيمر بي أفأجزيه ؟ قال : « لا ، أقره » .

وقال الفضيل : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

وقال رسول الله ﷺ « ليس الواصل المكافىء ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » .

وروى عن رسول الله ﷺ « من مكارم الأخلاق : أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطى من حرمك » .

ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه .

الصوفي بكاؤه في خلوته ، وبشره وطلاقة وجهه مع الناس . فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه ، وقد تنازل باطن الصوفي منازلات إلهية ، ومواهب قدسية ، يرتوى منها القلب ، ويمتلىء فرحاً وسروراً (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) .

والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره . قال الله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة) أي مضيئة مشرقة (مستبشرة) أي فرحة . قيل : أشرقت من طول ما اغبرت في سبيل الله . ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة . فالوجه مشكاة ، والقلب زجاج ، والروح مصباح ، فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه . قال الله تعالى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) أي نضارته وبريقه ، يقال : أنضر النبات إذا أزهر ونور (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) فلما نظرت نضرت .

فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة ، وانصقلت مرآة قلوبهم ، وانعكس فيها نور الجمال الأزلي . وإذا شرقت الشمس على المرآة

المعقولة استنارت الجدران . قال الله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهى القوالب فى قول الله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) كيف لايتأثر بشهود الجمال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكروخى قال أنا التريافى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى : يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك . فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثرالله فى القراء مثله .

ومن أخلاق الصوفية السهولة ، ولين الجانب ، والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم ، وترك التعسف والتكلف . وقد روى فى ذلك عن رسول الله ﷺ أخبار . وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله ﷺ . وكان يقول عليه الصلاة والسلام « أما إنى أمزح ولا أقول إلا حقاً » .

وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام ، وكان بدوياً ، وكان لايأتى إلى رسول الله إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله ، فجاء يوماً من الأيام فوجده رسول الله ﷺ فى سوق المدينة يبيع سلعة له ، ولم يكن أتاه ذلك اليوم ، فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه ، فالتفت فأبصر النبى عليه السلام فقبل كفيه ، فقال النبى عليه السلام : من يشترى العبد ؟ فقال : إذاً تجدنى كاسداً يارسول الله ، فقال ولكن عند الله ربيح . ثم قال عليه السلام : لكل أهل حضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر بن حرام .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه قال أنا المطهر بن محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو بن حكيم قال أنا أبو أمية قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله احملنى على جمل ، فقال

أحملك على ابن الناقة، قال أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة؟ فقال عليه السلام: فالجمل ابن الناقة.

وروى صهيب فقال: أتيت رسول الله ﷺ وبين يديه تمر يأكل فقال: أصب من هذا الطعام، فجعلت آكل من التمر، فقال: أتأكل وأنت رمد؟ فقلت: إذاً أمضغ من الجانب الآخر، فضحك رسول الله ﷺ.

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم: ياذا الأذنين.

وسئلت عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى البيت؟ قالت: كان ألين الناس، بساماً ضحاكا.

وروت أيضاً أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها، فقال: هذه بتلك.

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس رضى الله عنه قال: إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى أنه كان يقول لأخ لى صغير: ياأبا عمير مافعل النغير؟ والنغير عصفور صغير.

وروى أن عمر سابق زبيراً رضى الله عنهما فسبقه الزبير، فقال: سبقتك ورب الكعبة، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر، فقال عمر: سبقتك ورب الكعبة.

وروى عبد الله بن عباس قال قال لى عمر: تعال أنافسك فى الماء أينا أطول نفساً، ونحن محرمون.

وروى بكر بن عبدالله قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال. يقال بدح يبدح إذا رمى، أى يترامون بالبطيخ.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن أحمد الكرخى قال حدثنا أبو طالب محمد بن إبراهيم قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال

حدثنى إسحاق الحربى قال حدثنا أبو سلمة قال حدثنا حماد بن خالد قال أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة قال حدثنا أبو الحسن بن محصن الليثى عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة قال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبى ﷺ بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى ﷺ بينى وبينها : كلى فأبت ، فقلت لها : كلى فأبت ، فقلت لتأكلن أو لألطخن بها وجهك ، فأبت ، فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها ، فضحك النبى ﷺ ، فوضع فخذه وقال لسودة ألطخى وجهها ، فلطخت بها وجهى ، فضحك النبى ﷺ ، فمر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى ياعبد الله ياعبد الله ، فظن النبى ﷺ أنه سيدخل ، فقال : قوما فاغسلا وجهكما ، فقالت عائشة رضى الله عنها : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه .

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال : كان مع الصبى صبياً ومع الكهل كهلا ، وكان فيه مزاحة إذا خلا .

وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا ، وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك ، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى .

فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب ، وصحة حال الصوفية ، وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط ، وينزلون مع الناس على حسب طباعهم ، لنظرهم إلى سعة رحمة الله ، فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال ، واكتسبوا ملابس الأعمال والأحوال . ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال إلا صوفى قاهر للنفس ، عالم بأخلاقها وطباعها ، سائس لها بوفور العلم ، حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط .

ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين ، لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس ، وتعديهم حد الاعتدال . فالنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد ، وتجنح إلى العناد . فالنزول إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم ، وترقى لعلو حاله ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم ، حتى ينزل بالعلم . فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم ، وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم

الجامحة الأمارة بالسوء إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها ، واغتنمت مآربها ، واستروحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن المبتدى .

فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك ، والشىء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد .

قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد فى مزاحك ، فالإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرىء عليك السفهاء ، وتركه يغيظ المؤانسين ، ويوحش المخالطين.

قال بعضهم : المزاح مسلبة للبهاء ، مقطعة للإخاء .

وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك ، والضحك من خصائص الإنسان ، ويميزه عن جنس الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب ، والتعجب يستدعى الفكر ، والفكر شرف الإنسان وخاصيته . ومعرفة الاعتدال فيه أيضاً شأن من ترسخ قدمه فى العلم ، ولهذا قيل : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب .

وقيل : وكثرة الضحك من الرعونة .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : إن الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب ، والمشاء فى غير إرب .

وذكر فرق بين المداعبة والمزاح ، فقيل : المداعبة ما لا يغضب جده ، والمزاح مايغضب جده .

وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة فى الصلاة من الذنب ، وحكم ببطلان الوضوء بها وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج .

فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة ، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم ، فيعتدل الحال فيه ويستقيم ، فالبسط والرجاء ينشئان المزاح والضحك ، والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل .

ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف ، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل

وتمايل على النفس لأجل الناس ، وذلك يباين حال الصوفية ، وفى بعضه خفى منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار .

ويقال : التصوف ترك التكلف .

ويقال : التكلف تخلف ، وهو تخلف عن شأو الصادقين .

روى أنس بن مالك قال : شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم .

وروى عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقال : كلوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم الإدام الخل » .

وعن سفيان بن سلمة قال : دخلت على سلمان الفارسى فأخرج إلىّ خبزاً وملحاً وقال : كل ، لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم .

والتكلف مذموم فى جميع الأشياء ، كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه ، والتكلف فى الكلام ، وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان ، فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد . وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له ، فقد يتملق الشخص إلى حد يخرجه إلى صريح النفاق ، وهو مباين لحال الصوفى .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنبأنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال « الحياء والعى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق » البذاء الفحش . وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم ، وإظهار التصفح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبى وائل قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ، فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً ، فقال صاحبى : لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب ، فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعتراً ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا : فقال سلمان : لو قنعت بما رزقك لم تكن

مطهرتي مرهونة ، وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا .

وفي حديث يونس النبي عليه السلام أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسراً من خبز شعير ، وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال : لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ماحضر ، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادٍ رسول الله ﷺ يوماً « اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتي ولا يتكلفون ، ألا إني بريء من التكلف وصالحو أمتي » .

وروى أن عمر رضي الله عنه قرأ قوله تعالى (فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا) ثم قال : هذا كله قد عرفناه فما الأب ؟ قال : وبيد عمر عصاة فضرب بها الأرض ثم قال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فخذوا أيها الناس مابين لكم منه ، فما عرفتم اعملوا به ، ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ، وذلك أن الصوفي يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطيء بحر ، وللقيم على شاطيء البحر لايدخر الماء في قربته وراويته .

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « مامن يوم إلا له ملكان يناديان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً » .

وروى أنس قال : كان رسول الله ﷺ لايدخر شيئاً لغد .

وروى أنه أهدي لرسول الله ﷺ ثلاث طوائر ، فأطعم خادمه طيراً ، فلما كان الغد أتاه به ، فقال رسول الله : ألم أنهك أن تخبأ شيئاً لغد ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده

صبرة من تمر ، فقال: ماهذا يابلال ؟ فقال: أدخر يارسول الله ، قال: أما تخشى ، أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا .

وروى أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يخبأ شيئاً لغد .

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله لصدق توكله ، وثقته بربه .

فالدنيا للصوفى كدار الغربة ، ليس له فيها ادخار ، ولا له منها استكثار .

قال عليه السلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسى قال أنبأنا أبو عمران السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن أبى المنكدر عن جابر قال : ماسئل النبى ﷺ شيئاً قط فقال لا .

قال ابن عيينة : إذا لم يكن عنده وعد .

وبالإسناد عن الدارمى قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى قال : إن جبريل عليه السلام قال : مافى الأرض أهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم ، فما وجدت أحداً أشد إنفاقاً لهذا المال من رسول الله ﷺ .

ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا .

قال ذوالنون المصرى : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه

وقال بشر بن الحارث : لو لم يكن فى القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه .

وقال بنان الحمال : الحر عبد ماطمع ، والعبد حر ماقنع .

وقال بعضهم : انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص .

وقال أبو بكر المراغى : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل .

وقال يحيى بن معاذ : من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : القناعة سيف لا ينبو .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوى قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد يقول « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً ثم صبر عليه » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ دعا وقال « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وروى جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « القناعة مال لا ينفد » .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كونوا أوعية الكتاب ، وينابيع الحكمة ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واسألوا الله تعالى الرزق يوماً بيوم ، ولا يضركم أن لا يكثر لكم .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبى الفضل والده أنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاوى قال أنا أحمد بن على الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال حدثنا مروان ابن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى قال أخبرنى سلمة ابن عبد الله بن محصن عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ « من أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا » .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) هى القناعة .

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطبائع النفس ، وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها .

وقال أبو سليمان الدارانى : القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .

ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة والغضب إلا بحق ، واعتماد الرفق

والحلم ، وذلك أن النفوس تثب وتظهر فى المارين . والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب ، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة ، وانطفأت الفتنة . قال الله تعالى تعليماً لعباده (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

ولا ينزع للمراء إلا من نفوس زكية انتزع منها الغل ، ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن ، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضاً.

وقد يكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة . ومن استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغل من باطنه ، ولا يبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال . قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة المتقين (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

قال أبو حفص : كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته ، وأنست بذكره ، فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس ، وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق ، فصارت إخوانا .

فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق .

والناس رجلان : رجل طالب ماعند الله تعالى ، ويدعو إلى ماعند الله نفسه وغيره ، فما للمحقق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل ، فإن هذا معه فى طريق واحد ، ووجهة واحدة ، وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ورجل مفتتن بشىء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق ، فما للصوفى مع هذا منافسة ، لأنه زهد فيما فيه رغب . فمن شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوباً مفتتناً فلا ينطوى له على غل ، ولا يماريه فى الظاهر على شىء ، لعلمه بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا

المحاربى عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « لا تمارى أخاك ، ولا تعده موعداً فتخلفه » .

وفى الخبر « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها » .

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموى قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال حدثنا يحيى ابن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثنى النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من طلب العلم ليباهى به العلماء ، أو يمارى به السفهاء ، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم » .

أنظر كيف جعل رسول الله ﷺ المماراة مع السفهاء سبباً لدخول النار ، وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة ، والقهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى .

وقال بعضهم : المجادل المماري يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشيء ، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فما إلى قناعته سبيل . فنفس الصوفى تبدلت صفاتها ، وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية ، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » .

أنظر كيف جعل النبى ﷺ من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .

وروى عنه عليه السلام « أنه مر بقوم وهم يجدون حجراً قال ما هذا ؟ قالوا : هذا حجر الأشداء ، قال : « ألا أخبركم بأشد من هذا ؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه » .

وروى أنه جاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة ، فقال أبو ذر : من

كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال أنا ، قال ولم فعلت ذلك ؟ قال عمداً فعلت ، قال ولم ؟ قال أغيظك فتضربني فتأثم ، فقال أبو ذر : لأغيظن من حضك على غيظي ، فأعتقه .

وروى الأصمعي عن أعرابي قال : إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد تخالف أقربهما إلى هواك ، فإن أكثر ما يكون الخطأ من متابعة الهوى .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن على قال أنا خورشيد قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد ابن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والغنى . وأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم ربانى ، أمير على نفسه ، يصرفها بعقل حاضر ، وقلب يقظان ، ونظر إلى الله بحسن الاحتساب .

نقل أنهم كانوا يتوضئون عن إيذاء المسلم يقول بعضهم : لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلىّ من أن أتوضأ من طعام طيب .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الحدث حدثان : حدث من فرجك ، وحدث من فيك .

فلا يحل حبوة الوقار والحلم إلا الغضب ، ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد . فبالغضب يثور دم القلب ، فإن كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد ، واجتمع فى القلب ، ويصير منه الهم والحزن والانكاد ، ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا ، لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى ، فلا ينكمد ولا يغتم . والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة . والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط .

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال : مخرجهما واحد واللفظ يختلف ، فمن نازع من يقوى عليـه أظهره غضباً ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمـه حزناً . والحرد غضب أيضاً ، ولـكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه . وإن كان الغضب على من يشاكله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد دم القلب بين الانقباض والانبساط ، فيتولد منه الغل والحقد ، ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفى . قال الله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد ، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والمحبة . وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب ، والقلب إذا ثار دمـه يحمر ويقسو ويتصلب ، وتذهب عنه الرقة والبياض ، ومنـه تحمر الوجنتان ، لأن الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء ، وانتفخت منه العروق ، فظهر عكسه وأثره على الخد ، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ، ولا يكون هذا فى الصوفى إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى ، فأما فى غـير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب إلى الله تعالى ، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء .

قيل لبعضهم : من أقهر الناس لنفسه ؟ قال : أرضاهم بالمقدور .

وقال بعضهم : أصبحت وما لى سرور إلا مواقع القضاء .

وإذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم ، وإذا لاح علـم العلم قوى القلب وسكنت النفس ، وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره ، واعتدل الحال ، وغاضت حمرة الخد ، وبانت فضيلة العلم .

قال عليه السلام « السمت الحسن والتؤدد والاقتصاد جزء من أربعـة وعشرين جزءاً من النبوة » .

وروى حارثة بن قدامة قال : قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه ، قال « لا تغضب » فأعاد عليه كل ذلك يقول « لا تغضب » قال عليه السلام « إن الغضب جمرة من النار ، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، من وجد

ذلك منكم فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليضطجع » .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنبأنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن المفضل عن قرة بن خالد عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأشج عبد القيس « إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى : الحلم والأناة » .

ومن أخلاق الصوفية التودد والتألف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال الله تعالى (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

والتودد والتآلف من ائتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر الذى أوردناه ، فما تعارف منها ائتلف . قال الله تعالى (فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

وقال سبحانه وتعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

وقال عليه السلام « المؤمن آلف مألوف ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

وقال عليه السلام « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيراً » .

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لايفزعون ، ويخاف الناس وهم لايخافون ، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . قيل من هؤلاء يارسول الله ؟ قال المتحابون فى الله » .

وقيل : لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة .

وقيل : العدالة خليفة المحبة ، تستعمل حيث لاتوجد المحبة .

وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ، فإن طاعة المحبة من داخل ، وطاعة الرهبة من خارج .

ولهـذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض فى البعض ، لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ، ووقع القبول بينهم لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ ، والأخ بالأخ ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد ، أهـل كل درب وكل محلة ، وفى الجامع فى الأسبوع مرة أهل كل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة للحج ، كل ذلك لحـكم بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

أخبرنا أبو زرعة قال أنا والدى أبو الفضل قال أنا أبو نصر محمـد بن سلمان العدل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى قال أنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الـكرمانى قال حدثنا يحيى الـكرمانى قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إن مثل المؤمنين فى توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى » .

والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحبـة ، والصحبـة مع الأخيار مؤثرة جداً .

وقد قيل : لقاء الإخوان لقاح .

ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض ، بل بمجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحاً ، والنظر فى الصور يؤثر أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر .

وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لاينفعك لفظه . والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول . فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجمـاد . والمـاء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف . والزروع تنقى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة . وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء ، ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيراً .

ومي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بما يراه من خير وشر .

والتألف والتودد مستجلب للمزيد ، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر ، فأما أهـل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم ، والاستئناس بهم استئناس بالله تعـالى ، كما أن محبتهم محبة الله ، والجامع معهم رابطة الحق ، ومع غيرهم رابطة الطبع .

فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن ، ومع الجنس كائن معاين . والمؤمن مرآة المؤمن ، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية ، وتعريفات وتلويحات من الله الـكريم خفية ، غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار .

ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الإحسان ، والدعاء له ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم ، وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار، ولـكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ على ما ورد أن رسول الله ﷺ خطب فقال « مامن الناس أحد أمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بـكر خليلا » .

وقال « مانفعنى مال كمال أبى بـكر » .

فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء .

فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيـد ، وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيـد ، فلا يثبت للخلق منعاً ولا عطاء ، ويحجبه الحق عن الخلق ، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ، ويثبت لهم وجوداً فى المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين ، فيكون شكره للحق ، لأنه المنعم والمعطى والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب . قال رسول الله ﷺ « أول مايدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء » .

وقال عليه السلام « من عطش أو تجشى فقال الحمد لله على كل حال ، دفع الله تعالى بها سبعين داء أهونها الجذام » .

وروى جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله إلا كان الحمد أفضل منها » .

فقوله عليه السلام « كان الحمد أفضل منها » يحتمل أن يرضى الحق بهما شكراً ، ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة ، فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها ، فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له .

روى أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفطر عند قوم قال « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، ونزلت عليكم السكينة » .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوى قال أنا عمرو ابن زرارة قال حدثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من قال لأخيه : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء » .

ومن أخلاق الصوفية بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة ، فإذا كان الرجل وافر العلم ، بصيراً بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها ، فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين . وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى .

روى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس .

وقال عطاء : لأن يرانى الرجل سنين فيكتسب جاهاً يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه .

وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين ، ولا يصح هذا إلا لعبد اطلع الله على باطنه ، فعلم منه أن لا رغبة له فى شىء

من الجاه والمال . ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ماطغى ولااستطال ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لايصلح إلا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم ، ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم ، فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى ، فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس ، وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا ، وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا إلى مقام البقاء ، فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى ، فهم على بصيرة من ربهم ، وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب ، فيأخذ وقته أبداً من الأشياء ، ولم تأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون فى قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عثمان الحيرى : لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل ، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه .

قال سهل بن عبد الله : لايستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ، ويحتمل جهل الناس ، ويترك مافى أيديهم ، ويبذل مافى يده لهم ، وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه ، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه ، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى .

الباب الحادى والثلاثون

فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

فالأدب تهذيب الظاهر والباطن ، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفياً أديباً .

وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعهما على أشياء .

ولا يتكامل الأدب فى العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق . ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق ، فالخلق صورة الإنسان ، والخلق معناه . فقال بعضهم : الخلق لاسبيل إلى تغييره كالخلق . وقد ورد : فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل . وقد قال تعالى (لاتبديل لخلق الله) والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق .

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « حسنوا أخلاقكم » وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد ، وجعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق . ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد ، ووجود النخل فى النوى . ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا ، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار ، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها) فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعاً . ثم قال عز وجل (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) فإذا زكت النفس تدبرت بالعقل ، واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة ، وتهذبت الأخلاق ، وتكونت الآداب .

فالأدب استخراج مافى القوة إلى الفعل ، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لاقدرة للبشر على تكوينها ، كتكون النار فى الزناد ، إذ هو فعل الله المحض ، واستخراجه بكسب الآدمى ، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة ، والمنح الإلهية .

ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها ، توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج ما فى النفوس مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين . والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة ، لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم ، كما قال رسول الله ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة ، لنقصان قوى أصولها فى الغريزة ، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ ، لتكون الصحبة والتعلم عوناً على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل . قال الله تعالى (قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً) قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقهوهم وأدبوهم .

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) » .

قال يوسف بن الحسين : بالأدب يفهم العلم ، وبالعلم يصح العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الزهد ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة ، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراق ، جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفاً على رأسه يأتمرون لأمره ، لا يخطىء أحد منهم ، فقال يا أبا حفص : أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن .

قال أبو الحسين النورى : ليس لله فى عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة ، وآداب الشريعة حلية الظاهر ، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب .

قال عبد الله بن المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة ، وربما كنت أستلقى وأمد رجلى ، فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى : يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم ، اقبل منى كلمة ، لا تجالسه إلا

بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب . قال أبو عبيد: وكانت من العارفات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده إلى حسن المطالبة ، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس ، وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانه فهو شريكها .

وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا العباس المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » .

وروى أيضاً أنه قال عليه السلام « ما نحل والد ولداً من نحلة أفضل من أدب حسن » .

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويحسن موضعه ، ويحسن أدبه » .

وقال أبو على الدقاق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى .

قال أبو القاسم القشيرى رحمه الله : كان الأستاذ أبو على لا يستند إلى شىء . فكان يوماً فى مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيته غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شىء أبداً .

وقال الجلالى البصرى : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد .

وقال بعضهم : إلزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحد الأدب ظاهراً إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً .

قال بعضهم ، هو غلام الدقاق : نظرت إلى غلام أمرد ، فنظر إلىّ الدقاق وأنا أنظر إليه ، فقال لتجدن غبها ولو بعد سنين . قال فوجدت غبها بعد عشرين سنة أن نسيت القرآن .

وقال سرى : صليت وردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب ، فنوديت : ياسرى هكذا تجالس الملوك . فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لامددت رجلى أبداً . وقال الجنيد : فبقى ستين سنة مامد رجله ليلا ولا نهاراً .

قال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السرى عن مسألة فى الصبر ، فجعل يتكلم فيها ، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها ، فقيل له ألا تدفعها عن نفسك ؟ قال : أستحى من الله أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه .

وقيل : من أدب رسول الله ﷺ أنه قال « زُوِيت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » ولم يقل رأيت .

وقال يحيى بن مالك : الأدب فى العمل علامة قبول العمل .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات . قيل : مامعناه ؟ قال : أن تعامل الله سراً وعلناً بالأدب ، فإذا كنت كذلك كنت أديباً وإن كنت أعجمياً ، ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة　　　وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى : منذ عشرين سنة مامددت رجلى فى الخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله أحسن وأولى .

وقال أبو على : ترك الأدب موجب للطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

الباب الثانى والثلاثون

فى آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله ﷺ ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهراً وباطناً . وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى (مازاغ البصر وما طغى) وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ . أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال ، أعرض عما سوى الله ، وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها ، والسموات والدار الآخرة بحظوظها ، فما التفت إلى ما أعرض عنه ، ولا لحقه الأسف على الغائب فى إعراضه : قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) .

فهذا الخطاب للعموم ، وما زاغ البصر إخبار عن حال النبى عليه السلام بوصف خاص من معنى ماخاطب به العموم ، فكان مازاغ البصر حاله فى طرف الإعراض ، وفى طرف الإقبال تلقى ماورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب ، ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا ، وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره وافتقاره ، لكيلا تنبسط النفس فتطغى ، فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس . قال الله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) .

والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ، ومتى نالت قسطاً من المنح استغنت وطغت ، والطغيان يظهر منه فرط البسط ، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد ، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب .

فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد طرفى مازاغ البصر ، وما التفت إلى مافاته ، وما طغى متأسفاً لحسن أدبه ، ولكن امتلأ من المنح ، واسترقت النفس السمع ، وتطلعت إلى القسط والحظ ، فلما حظيت النفس استغنت ، وطفح عليها ما وصل إليها ، وضاق نطاقها ، فتجاوز الحد من فرط البسط ، وقال (أرنى أنظر إليك) فمنع ولم يطلق فى فضاء المزيد ، وظهر

الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام ، وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية ، فكل قبض يوجد عقوبة ، لأن كل قبض سد فى وجه باب الفتوح ، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط ، ولو حصل الاعتدال فى البسط ماجبت العقوبة بالقبض ، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب ، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى عليه السلام من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار ، فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب ، حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فما قوبل بالقبض ، فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى .

ويشاكل الشرح الذى شرحناه قول أبى العباس ابن عطاء فى قوله تعالى (مازاغ البصر وماطغى) قال: لم يره بطغيان يميل بل رآه على شروط اعتدال القوى .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها وإنما كان مشاهداً بكليته لربه ، يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل .

وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل ابن عبد الله .

ويؤيد ذلك أيضاً ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج قال أنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الجريرى قال: التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة ، والوقوف على حد الانحسار نجاة ، والملياذ بالهرب من علم الدنو وصلة ، واستقباح ترك الجواب ذخيرة ، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف ، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الإقبال مساءة ، والإصغاء إلى تلقى ماينفصل عن معدنه بعد ، والاستسلام عند التلاقى جراءة ، والانبساط فى محل الأنس غرة : وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها .

وفى قوله تعالى (مازاغ البصر وما طغى) وجه آخــر ألطف مما سبق (مازاغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصر البصيرة ، فيتجاوز حده ، ويتعدى مقامه ، بل استقام البصر مع البصيرة ، الظاهر مع الباطن ، والقلب مع القالب ، والنظر مع القدم ، فنى تقدم النظر على القدم طغيان ، وللمعنى بالنظر علم ، وبالقدم حال القالب ، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغياناً ، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيراً ، فلما اعتدلت الأحوال ، وصار قلبه كقالبه ، وقالبه كقلبه ، وظاهره كباطنه ، وباطنه كظاهره ، وبصره كبصيرته ، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ، ولهذا للمعنى انعكس حكم معناه ، ونوره على ظاهره ، وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره ، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره ، كما جاء فى حــديث المعراج ، فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه ، ومتصفاً بصفته ، لقوة حاله ومعناه .

وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ، ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ، ورأى موسى فى بعض السموات ، فمن هو فى بعض السموات يكون قوله (أرنى أنظر إليك) تجاوزاً للنظر عن حد القدم ، وتخلفاً للقدم عن النظر ، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله تعالى (مازاغ البصر وما طغى) فرسول الله حمل مقترناً قدمه ونظره فى حجال الحياء والتواضع ناظراً إلى قــدمه ، قادماً على نظره ، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع ، وتطاول بالنظر متعدياً حد القدم ، تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء ، فلم يزل ﷺ متجلبباً حجاله فى خفارة أدب حاله ، حتى خرق حجب السموات ، فانصبت إليه أقسام القرب انصباباً ، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجاباً حجاباً ، حتى استقام على صراط (مازاغ البصر وما طغى) فمر كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف ، وهذا غاية فى الأدب ، ونهاية فى الأرب .

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال : لا يجاوز همه قدمه ، فحيث وقف قلبه يكون مقره .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال حدثنا القاضى أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال: حدثنا محمد ابن رزام الأيلى قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (رب أرنى أنظر إليك) قال «قال ياموسى إنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولا رطب إلا تفرق، إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم».

ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

وهــذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق، لأن الله تعالى أمر بالدعاء وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاماً فى القرب، وأذن له فى الانبساط وقال: اطلب منى ولو ملحاً لعجينك، فلما بسط انبسط وقال (رب إنى لما أنزلتَ إلىّ من خير فقير) لأنه كان يسأل حوائج الآخرة، ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها، وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات.

ولهذا مثال فى الشاهد، فإن الملك المعظم يسأل للعظمات، ويحتشم فى طلب المحقرات، فلما رفع بساط حجاب الحشمة، صار فى مقام خاص من القرب، يسأل الحقير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصرى: أدب العارف فوق كل أدب، لأن معروفه مؤدب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى «من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب».

وقول القائل هذا يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب، لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس، ومع لمعان نور عظمة

الذات تتلاشى الآثار بالأنوار ، ويكون معنى العطب التحقق بالفناء ، وفى ذلك العطب نهاية الأرب .

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) : لم يقل ارحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب .

وقال عيسى عليه السلام (إن كنتُ قلته فقد علمته) ولم يقل لم أقل رعاية لأدب الحضرة .

وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق ، واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب ، ومقامات القرب ، وأوقات الحضور .

والأدب أدبان : أدب قول ، وأدب فعل ، فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب .

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم .

وقال أيضاً : الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف .

وقال النورى : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء .

وقال ابن المبارك أيضاً : قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس . وهذه إشارة منه إلى أن النفس هى منبع الجهالات . وترك الأدب من مخامرة الجهل . فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم ، وحينئذ يتأدب ، ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .

الباب الثالث والثلاثون

فى آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

قيل فى التفسير : يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء .

قال الكلبى : هو غسل الأدبار بالماء .

وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة .

روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية «إن الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو ؟ قالوا إنا نستنجى بالماء » .

وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله ﷺ « إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار » .

وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء .

قيل لسلمان : قد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ، فقال سلمان : أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو نستنجى باليمين ، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجى برجيع أو عظم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أنا أبو منصور الحريمى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا ابن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال ﷺ « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستطيب بيمينه » .

وكان يأمر بثلاثة أحجار ، وينهى عن الروث والرمة .

والفرض فى الاستنجاء شيئان : إزالة الخبث ، وطهارة المزيل ، وهو

أن لا يكون رجيعاً وهو الروث ، ولا مستعملا مرة أخرى ، ولا رمة ، وهى عظم الميتة . ووتر الاستنجاء سنة ، فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع ، واستعمال الماء بعد الحجر سنة .

وقد قيل فى الآية (يحبون أن يتطهروا) ولما سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نتبع الماء الحجر .

والاستنجاء بالشمال سنة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة ، وهكذا يكون فى الصحراء إذا كانت أرضاً طاهرة وتراباً طاهراً .

وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح ، ويدير الحجر فى مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، يفعل ذلك إلى أن ينتهى إلى مؤخر المخرج ، ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة . وإن استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز .

وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثاً إلى الحشفة برفق لئلا يندفق بقية البول ، ثم ينتره ثلاثاً ، ويحتاط فى الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحنح ثلاثاً ، لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر ، وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما فى مجرى البول ، فإن مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس ، ولكن يراعى حد العلم ، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن يرى الرطوبة .

وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال : لا يزال تظهر منه الرطوبة مادام يمد ، فيراعى الحد فى ذلك ، ويراعى الوتر فى ذلك أيضاً .

والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر ، وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجياً باليمين . وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر وينفع الحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة .

وفى ترك الاستنقاء فى الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال «إنهمـــا ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما هـذا فكان لا يستبرىء أو لا يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة . ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً وقال : لعله يخفف عنهما مالم ييبسا» والعسيب الجريد . وإذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون .

روى جابر رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد .

وروى المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد فى المذهب .

وروى أن النبي عليـه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل ، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض ، أو كوم من الحجارة .

ويجوز أن يستتر الرجـل براحلته فى الصحراء أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش .

ويستحب البول فى أرض دمثة ، أو على تراب مهيل .

قال أبو موسى : كنت مـع رسول الله ﷺ فأراد أن يبول ، فأتى دمثاً فى أصل جدار فبال ثم قال « إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبـوله » .

وينبغى أن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان ، والأولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهيـة ذلك فى البنيان أيضاً ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ، ويتجنب مهاب الرياح احترازاً من الرشاش .

قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لا أحسبك تحسن الخراءة ، فقال بلى وأبيك إنى بها لحاذق . قال فصفها لى ، فقال: أبعد الأثر، وأعد المدر ، وأستقبل الشيح ، وأستدبر الريح ، وأقعى إقعاء الظبى ، وأجفل إجفال النعام ، يعنى أستقبل أصول النبـات من الشيح وغيره ،

وأستدبر الريح احترازاً من الرشاش . والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه . والإجفال أن يرفع عجزه .

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وطهر قلبي من الرياء ، وحصن فرجي من الفواحش .

ويكره أن يبول الرجل في المغتسل .

روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال « إن عامة الوسواس منه » .

وقال ابن المبارك : يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء .

وإذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا أبو منصور المقرى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمي قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبوداود قال حدثنا عمر وهو ابن مرزوق البصري قال حدثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث » .

وأراد بالحشوش الكنف . وأصل الحش جماعة النخل الكثيف ، كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت . وقوله محتضرة أي يحضرها الشياطين .

وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ، ولا يتولع بيده ، ولا يخط الأرض والحائط وقت قعوده ، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا لحاجة إلى ذلك ، ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان ، فإن الله تعالى يمقت على ذلك » .

ويقول عند خروجه : غفرانك ، الحمد لله الذي أذهب عنى ما يؤذيني وأبقى على ما ينفعني » .

ولا يستصحب معه شيئاً عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ، ولا يدخل حاسر الرأس .

روت عائشة رضى الله عنها عن أبيها أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : استحيوا من الله فإني لأدخل الكنيف فألزق ظهرى وأغطى رأسى استحياء من ربي عز وجل .

الباب الرابع والثلاثون

فى آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدىء بالسواك .

حدثنا شيخنا أبو النجيب قال أنا أبو عبد الله الطائى قال أنا الحافظ القراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد المليحى قال أنا أبو منصور محمد بن أحمد ابن عبد الجبار قال ثنا حميد بن زنجويه قال ثنا يعلى بن عبيد قال ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ « لولا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء إلى ثلث الليل ، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة » .

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال « السواك مطهرة الفم ، مرضاة للرب » .

وعن حذيفة : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك . والشوص الدلك .

ويستحب السواك عند كل صلاة ، وعند كل وضوء ، وكلما تغير الفم من أزم وغيره . وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض . وقيل للسكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره للصائم بعد الزوال . ويستحب له قبل الزوال . وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل . ويندى السواك اليابس بالماء . ويستاك عرضاً وطولا ، فإن اقتصر فعرضاً .

فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء . والأولى أن يكون مستقبل القبلة ، ويبتدىء بسم الله الرحمن الرحيم ويقول : رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون .

ويقول عند غسل اليد : اللهم إنى أسألك اليمن والبركة ، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة .

ويقول عند المضمضة : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وأعِنّى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك .

ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدنى رائحة الجنة وأنت عنى راض .

ويقول عند الاستنثار : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار .

ويقول عند غسل الوجه : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهى يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى يوم تسود وجوه أعدائك .

وعند غسل اليمين : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وآتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حساباً يسيراً .

وعند غسل الشمال : اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى .

وعند مسح الرأس : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشنى برحمتك وأنزل علىّ من بركاتك ، وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك .

ويقول عند مسح الأذنين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى ممن يسمع القول فيتبع أحسنه ، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار .

ويقول فى مسح العنق : اللهم فك رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال .

ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين .

ويقول عند اليسرى : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين .

وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسى ، أستغفرك وأتوب إليك

فاغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم . اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد واجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى صبوراً شكوراً واجعلنى أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلا .

وفرائض الوضوء : النية عند غسل الوجه ، وغسل الوجه ، وحد الوجه تسطيح الوجه إلى منتهى الذقن . وماظهر من اللحية ، وما استرسل منها ، من مبتدأ ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ، ويدخل فى الغسل البياض الذى بين الأذنين واللحية ، وموضع الصلع ، وما انحسر عنه الشعر ، وهما النزعتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه ، ويوصل الماء إلى شعر التحذيف ، وهو القدر الذى يزيله النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى العنفقة والشارب والحاجب والعذار ، وماعدا ذلك لايجب ، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة . وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته ، وإن كانت كثيفة فلا يجب ، ويجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين .

الواجب الثالث : غسل اليدين إلى المرفقين ، ويجب إدخال المرفقين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين ، وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ماتحتها على الأصح .

الواجب الرابع : مسح الرأس ويكفى مايطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسح سنة ، وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس ، ويمدهما إلى القفا ، ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه ، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبراً .

الواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ، ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تخليل الأصابع الملتفة ، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ، ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى . وإن كان فى الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها عجيناً أو شحماً يجب إزالة عين ذلك الشىء .

الواجب السادس : الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى .

الواجب السابع : التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى .

وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء .

وسنن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية فى أول الطهارة ، وغسل اليدين إلى الكوعين ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والمبالغة فيهما ، فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة ، ويستمد فى الاستنشاق الماء بالنفس إلى الخياشيم ، ويرفق فى ذلك إن كان صائماً ، وتخليل اللحية الكثيفة ، وتخليل الأصابع المنفرجة ، والبداءة بالميامن ، وإطالة الغرة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليث ، وفى القول الجديد التتابع . ويجتنب أن يزيد على الثلاث ، ولا ينفض اليد ، ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لطماً .

وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر ، وإلا فمكروه .

الباب الخامس والثلاثون

فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام

آدابهم فى الوضوء : حضور القلب فى غسل الأعضاء .

سمعت بعض الصالحين يقول : إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة ، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة .

ومن آدابهم : استدامة الوضوء سلاح المؤمن . والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها .

قال عدى بن حاتم : ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء .

وقال أنس بن مالك : قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لى « يا بنى إن استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة » .

فشأن العاقل أن يكون أبداً مستعداً للموت ، ومن الاستعداد لزوم الطهارة .

وحكى عن الحصرى أنه قال : مهما أنتبه من الليل لا يحملنى النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود إلىّ النوم وأنا على غير طهارة .

وسمعت من صحب الشيخ على بن الهيتى أنه كان يقعد الليل جميعه ، فإن غلبه النوم يكون قاعداً كذلك ، وكلما انتبه يقول : لا أكون أسأت الأدب ، فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر « يابلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة ، قال : ماعملت عملا فى الإسلام أرجى عندى أنى لم أتطهر طهراً فى ساعة ليل أو نهار إلا صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى » .

ومن آدابهم فى الطهارة : ترك الإسراف فى المـــاء ، والوقوف على حد العلم .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا أبو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيـد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ أنه قال « للوضوء شيطان يقال له الولهان ، فاتقوا وساوس الماء » .

قال أبو عبد الله الروذبارى : إن الشيطان يجتهد أن يأخـذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم ، فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا عنه .

وحكى عن ابن الكرنبى أنه أصابته جنابة ليلة من الليالى ، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة ، فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد ، فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : عقدت أن لا أنزعها من بدنى حتى تجف علىّ ، فمكثت عليـه شهراً لثخانتها وغلظها . أدب بذلك نفسه لما حرنت عن الائتمار لأمر الله تعالى .

وقيل : إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض ، وكان يرى أن فى الإكثار من شرب الماء ضعف النفس ، وإماتة الشهوات ، وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط فى استبقاء الماء للوضوء .

قيل : كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء ، وربما كان لا يشرب منها إلا القليل ، يحفظ الماء للوضوء .

وقيل : إنه كان يخرج من مـكة إلى الـكوفة ولا يحتاج إلى التيمم ، يحفظ الماء للوضوء ، ويقنع بالقليل للشرب .

وقيل : إذا رأيت الصوفى ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكي عن بعضهم أنه أدب نفسه فى الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهرانى جماعة من النساك وهم يجتمعون فى دار ، فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا الموضع فى وقت يريد تأديب نفسه .

وقيل : مات الخواص فى جامع الرى فى وسط الماء ، وذلك أنه كان به علة البطن ، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه ، فدخله مرة ومات فيه ، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم به قيام ، فقام فى ليلة واحدة نيفاً وسبعين مرة ، كل مرة يجدد الوضوء ويصلى ركعتين .

وقيل : إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا وقت البراز ، يراعى الأدب فى الخلوات .

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا إن الوضوء يوزن .

وأجازه بعضهم ، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الوهاب بن وهب عن زيد بن حبان عن أبى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء .

وروى معاذ بن جبل قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه .

واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم .

وتوضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر ، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون على الأرض من غير سجادة ، ويمشون حفاة فى الطرق ، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا .

وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الأوقات . وكان أمرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل ، واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة . وهكذا شغل الصوفية . وقد يكون فى بعض الأشخاص تشدد فى الطهارة ، ويكون مستند ذلك رعونة النفس ، فلو اتسخ ثوبه تحرج ولايبالى بما فى باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حافياً مع وجود رخصة الشرع ، ولاينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه ، وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين .

وكانوا يكرهون كثرة الدلك فى الاستبراء ، لأنه ربما يسترخى العرق ولايمسك البول ، ويتولد منه القطر المفرط .

ومن حكاية المتصوفة فى الوضوء والطهارات ، أن أبا عمرو الزجاجى جاور بمكة ثلاثين سنة ، وكان لايتغوط فى الحرم ، ويخرج إلى الحل ، وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة ، لأن الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لايدع تجديد الوضوء عند كل فريضة .

وبعضهم نزل فى عينه الماء ، فحملوا إليه المداوى ، وبذلوا له مالا كثيراً ليداويه ، فقال المداوى : يحتاج إلى ترك الوضوء أياماً ، ويكون مستلقياً على قفاه ، فلم يفعل ذلك ، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء .

الباب السادس والثلاثون

فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله تعالى جنة عدن ، وخلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال لها تكلمى ، فقالت (قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ثلاثاً » .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين .

وقال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت وصلى بى الظهر » .

واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار . والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم . وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها أحرقت من أدركته يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه ، بل يتحقق به معراجه . فالمصلى كالمصطلى بالنار ، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال أنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخليلى قال أنا أبو سعيد الفرخزاذى قال أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن قال انا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبرى قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال حدثنا آدم بن أبى إياس عن ابن سمعان عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فإذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : مجدنى عبدى ، فإذا قال الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى على عبدى ، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال فوض إلىّ عبدى ، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال هذا بينى وبين عبدى ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله تعالى : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » .

فالصلاة صلة بين الرب والعبد ، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعاً لصولة الربوبية على العبودية . وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له ، ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع . والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح .

وقال الله تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) وإذا كانت الصلاة للذكر، كيف يقع فيها النسيان . قال الله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فمن قال ولا يعلم ما يقول ، كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك ، فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل ، والغافل يصلى لا بحضور عقل ، فهو كالسكران .

وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى (فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) قيل : نعليك همك بامرأتك وغنمك ، فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة .

وقيل : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ، وينظرون يميناً وشمالا ، فلما نزلت (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) جعلوا وجوههم حيث يسجدون ، وما رؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن ، فإذا التفت قال له الرب : إلى من تلتفت ؟ إلى من هو خير لك منى ؟ ابن آدم أقبل إلىّ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

وأبصر رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » .

وقد قال رسول الله ﷺ « إذا صليت فصلّ صلاة مودع » .

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه ، يودع هواه ودنياه وكل شيء سواه . والصلاة فى اللغة هى الدعاء ، فكأن المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه ، فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهراً وباطناً ، ويشارك الظاهر الباطن

بالتضرع والتقلب والهيئات فى تملقات متضرع سائل محتاج ، فإذا دعا بكليته أجابه مولاه لأنه وعده فقال (ادعونى أستجب لكم) .

كان خالد الربعى يقول : عجبت لهذه الآية (ادعونى أستجب لكم) أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط . والاستجابة والإجابة هى نفوذ دعاء العبد ، فإن الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه ، فتخرق الحجب ، وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة .

وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب ، وفيها تقديم الثناء على الدعاء ، ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء .

وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم . قيل : سميت مثانى لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين ، مرة بمكة ، ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله ﷺ بكل مرة نزلت منها فهم آخر ، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر . وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها .

وقيل : سميت مثانى لأنها استثنيت من الرسل وهى سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة فزجرنى زجراً كدت أن أنصرف عن صلاتى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لايتميل تميل اليهود ، فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة » .

وقال رسول الله ﷺ « تعوذوا بالله من خشوع النفاق . قيل : وماخشوع النفاق ؟ قال : خشوع البدن ونفاق القلب » .

فأما تميل اليهود ، قيل كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة مافى باطنهم ، فكان يهيء الأمور ويعظمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب . ووقع لى والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته ، فيموج به باطنه كبحر ساكن ، تهب عليه الريح ، فتتلاطم الأمواج ، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج

بحر القلب إذا هب عليه نسمات القلب ، وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية فتهم بالاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج ، فيضطرب القلب ويتمايل ، فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك . ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكاراً على أهل الوسوسة « هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرىء لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه ، وإن الرجل على صلاته دائم ، ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهياً لاهياً » .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله ﷺ « الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » .

فبالصلاة تحقيق العبودية ، وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة .

قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل ، ومن الأدب ترك الدنيا .

والذى ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها .

وقد ورد فى الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلى من يناجى ما التفت أو ما انفتل ، وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة ما فرق على أهل السموات ، فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا فى السجود والقيام والقعود ، والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم ، وفى السجود بصفة الساجدين ، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم . وفى غير الفريضة ينبغى للمصلى أن يمكث فى ركوعه

متلقفاً بالركوع ، غير مهتم بالرفع منه ، فإن طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها ، ويستديم تلك الهيئة ، ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ، ليصير قلبه بلون الهيئة ، وربما يتراءى للراكع المحقق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ماوفى الهيئة حقها ، فيكون همه الهيئة ، مستغرقاً فيها ، مشغولا بها عن غيرها من الهيئات ، فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة ، فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ، ويقف فى مهاب النفحات الإلهية ، حتى يتكامل حظ العبد ، فتنمحى آثاره بحسن الاسترسال ، ويستقر فى مقعد الوصال .

وقيل: فى الصلاة أربع هيئات ، وستة أذكار . فالهيئات الأربع : القيام ، والقعود ، والركوع ، والسجود . والأذكار الستة : التلاوة ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، فصارت عشرة كاملة ، تفرق هذه العشرة على صفوف من الملائكة كل صف عشرة آلاف ، فيجتمع فى الركعتين مايفرق على مائة ألف من الملائكة .

الباب السابع والثلاثون

فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى هذا الفصل كيفية الصلاة بهيئاتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال ، بأقصى ماينتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه ، مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شىء من ذلك ، إذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود ، فنقول وبالله التوفيق :

ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبـل دخول وقتها بالوضوء ، ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة ، فذلك من المحافظة عليها . ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال ، وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره . ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الأول من النهار ، فإذا أخـذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس. وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر. ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل ، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب .

فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ، ففى ذلك سر ، وحكمة ذلك والله أعلم أن العبد تشعث باطنه ، وتفرق همه ، لمايلى به من المخالطة من الناس، وقيامه بمهام المعاش ، أو سهو جرى بوضع الجبلة ، أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة ، فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة ، ويتهيأ للمناجاة ، ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن ، فينصلح الباطن ، ويصير مستعداً للفريضة .

فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات ، وتطرق النفحات ، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله . ومن الذنوب عامة وخاصة، فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ إليه الشرع ، ونطق به الكتاب والسنة . والخاصة ذنوب حال الشخص ، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها . وقيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم لا يصلى إلا جماعة . قال رسول الله ﷺ « تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » .

ثم يستقبل القبلة بظاهره ، والحضرة الإلهية بباطنه ، ويقرأ قل أعوذ برب الناس ، ويقرأ فى نفسه آية التوجه ، وهـذا التوجه قبل الصلاة ، والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه إلى القبلة ، وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ، ثم يرفع يديه حذو منكبيه ، بحيث تكون كفاه حذو منكبيه ، وإبهاماه عند شحمة أذنيه ، ورءوس الأصابع مع الأذنين ، ويضم الأصابع ، وإن نشرها جاز ، والضم أولى ، فإنه قيل : النشر نشر الكف لا نشر الأصابع ، ويكبر ، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفاً ، ويجزم أكبر ، ويجعل المد فى الله ، ولا يبالغ فى ضم الهاء من الله ، ولا يبتدىء بالتكبير إلا إذا استقرت اليدان حذو المنكبين ، ويرسلهما مع التكبير من غير نفض ، فأوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والأصوب ، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير ، بحيث لايغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها .

وحكى عن الجنيد أنه قال : لكل شىء صفوة وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى .

وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : النية بالله لله ومن الله ، والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ، ونصيب العدو وإن كثر لايوازن بالنية التى هى لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخراز : كيف الدخول فى الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ، ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان ، وهو مقبل عليك ، وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف ، فإنه الملك العظيم .

وقيل لبعض العارفين : كيف تكبر التكبيرة الأولى ؟ فقال : ينبغى

إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك فى الله التعظيم مع الألف ، والهيبة مع اللام ، والمراقبة والقرب مع الهاء .

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء ، وامتلأ باطنه نوراً ، وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة ، ثم تلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس ، وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فألقيت فكيف تزاحم الوسوسة ، وحديث النفس مثل هذا العبد ، وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة ، والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة بألطف صفاتها ، مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس ، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلها بين السرة والصدر ، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد ، ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين .

وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى (فصلّ لربك وانحر) قال إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرقاً يقال له الناحر ، أى ضع يدك على الناحر .

وقال بعضهم : (وانحر) أى استقبل القبلة بنحرك . وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب ، وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه ، وجعله محل نظره ومورد وحيه ، ونخبة مافى أرضه وسمائه روحانياً وجسمانياً ، أرضياً سماوياً منتصب القامة ، مرتفع الهيئة ، فنصفه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض ، فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، ومحل روحه الروحانى والقلب النصف الأعلى ، فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتجاذبان ، وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ، ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الإيمان

والطبع ، فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماوياً متردداً بين الفناء والبقاء لجواذب النفس ، متصاعدة من مركزها . وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة ، فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ، ومنع من صعود جواذبها . وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة ، وزوال حديث النفس فى الصلاة .

ثم إذا استوت جواذب الروح ، وتملكت من الفرق إلى القدم عند كمال الأنس ، وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة ، تصير النفس مقهورة ذليلة ، ويستنير مركزها بنور الروح ، وتنقطع حينئذ جواذب النفس . وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العادة ، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال ، فيسهل حينئذ . ولعل لذلك والله أعلم مانقل عن رسول الله ﷺ أنه كان مسبلا ، وهو مذهب مالك رحمه الله .

ثم يقرأ (وجهت وجهى) الآية . وهذا التوجه إنقاء لوجه قلبه ، والذى قبل الصلاة لوجه قالبه . ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، فالخير كله بيديك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك .

ويطرق رأسه فى قيامه ، ويكون نظره إلى موضع السجود ، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن ، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض ، فهذا من خشوع سائر الأجزاء .

ويتسكون الجسد بتسكون القلب من الخشوع ، ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع ، فإن ضم الكعبين هو الصفد المنهى عنه ، ولا يرفع

إحدى الرجلين فإنه الصفن المنهى عنـه . نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد . وإذا كان الصفن منهياً عنه فنى زيادة الاعتماد على إحـدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصفن ، فالأولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد على الرجلين جميعاً ، ويكره اشتمال الصماء ، وهو أن يخرج يده من قبل صدره ، ويجتنب السدل ، وهو أن يرخى أطراف الثوب إلى الأرض ، ففيـه معنى الخيلاء ، وقيل هو الذى يلتف بالثوب ويجعل يديه من داخل ، فيركع ويسجد كذلك . وفى معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص .

ويجتنب الـكف ، وهو أن يرفع ثيابه بيده عند السجود .

ويكره الاختصار ، وهو أن يجعل يده على الخاصرة .

ويكره الصلب ، وهو وضع اليدين جميعاً على الخصرين وتجافى العضدين .

فإذا وقف فى الصلاة على الهيئة التى ذكرناها مجتنباً للمكاره فقد تم القيام وكمله ، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة ، ويقرأ الفاتحة ومابعدها بحضور قلب وجمع هم ، ومواطأة بين القلب واللسان ، بحظ وافر من الوصلة والدنو ، والهيبة والخشوع ، والخشيـة والتعظيم والوقار ، والمشاهدة والمناجاة . وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماماً فى السكتة الثانية : اللهم باعـد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد ، فحسن ، وإن قالها فى السكتة الأولى فحسن .

روى عن النبى عليـه السلام أنه قال ذلك . وإن كان منفرداً يقولها قبل القراءة .

ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ، ومعناها نطق القلب . وكل مخاطب لشخص يتـكلم بلسانه ، ولسانه يعبر عما فى قلبه ، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غـير لسان فعل ، ولـكن حيث تعذر الإفهام إلا بالـكلام جعل اللسان ترجماناً ، فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجماناً ، ولا القارىء متكلما قاصداً إسماع الله حاجته ، ولا مستمعاً إلى الله ، فاهما عنه سبحانه

مايخاطبه ، وماعنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد مايقول . فينبغى أن يكون متكلما مناجياً أو مستمعاً واعياً ، فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة ، ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها .

قال بعضهم : مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول .

وقيل لعامر بن عبد الله : هل تجد فى الصلاة شيئاً من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف علىّ الأسنة أحب إلىّ من أن أجد فى الصلاة ماتجدون .

وقيل لبعضهم : هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء من أمور الدنيا ؟ فقال : لا فى الصلاة ولا فى غيرها .

ومن الناس من إذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الإنابة ، لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال (منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة) فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه ، ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام ، وقلب منفتح بنور الإنعام ، فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ، ويسمعها بقلبه ، فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها ، فيتملكها القلب بحسن الفهم ، ولذيذ نعمة الإصغاء ، ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى ، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها ، معانى تلطف عن تفصيل الذكر ، وتتشكل بخفى الفكر ، ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس.

فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها ، لكونها معانى ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة ، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة ، ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب ، وتختص إلى الروح المقدس إلى أوائل مرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم ، وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الأشواق ، كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ، ثم يركع منطوى

القامة والنصف الأسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ، ويجافى مرفقيه عن جنبيه ، ويمد عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع .

روى مصعب بن سعد قال: صليت إلى جنب سعد بن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما ، فضرب بيدى وقال اضرب بكفيك على ركبتيك ، وقال يابنى إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب .

ويقول : سبحان ربى العظيم ثلاثاً ، وهو أدنى الكمال ، والكمال أن يقول إحدى عشرة ، وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ، ويكون فى ركوعه ناظراً نحو قدميه ، فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده فى قيامه ، ويقول بعد التسبيح : اللهم لك ركعت ، ولك خشعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخى وعصبى ، ويكون قلبه فى الركوع متصفاً بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ، ثم يرفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده ، عالماً بقلبه ما يقول ، فإذا استوى قائماً يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، ثم يقول : أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . وإن أطال فى النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربى الحمد ، مكرراً ذلك مهما شاء ، فأما فى الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ، ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب .

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود » .

ثم يهوى ساجداً ، ويكون فى هويه مكبراً مستيقظاً حاضراً خاشعاً عالماً بما يهوى فيه وإليه وله . فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين ، متغيباً فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء ، واستشعار روحه

عظيم الكبرياء ، كما ورد أن جبريل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى . ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ، ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان ، فيهوى دون هويه أطباق السموات ، وتتمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات ، ويسجد على طرف رداء العظمة ، وذاك أقصى ما ينتهى إليه طائر الهمة البشرية ، وتنتهى بالوصول إليه القوى الإنسانية ، ويتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة ، واستشمار كنهها ، لكل منهم على قدره حظ من ذلك ، وفوق كل ذى علم عليم .

ومن الساجدين من يتسع وعاؤه ، وينتشر ضياؤه ، ويحظى بالصنفين ، ويبسط الجناحين ، فيتواضع بقلبه إجلالا ، ويرفع بروحه إكراماً وإفضالا ، فيجتمع له الأنس والهيبة ، والحضور والغيبة ، والفرار والقرار ، والإسرار والجهار ، فيكون فى سجوده سابحاً فى بحر شهوده ، لم يتخلف منه عن السجود شعرة ، كما قال سيد البشر فى سجوده « سجد لك سوادى وخيالى » (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) الطوع للروح والقلب لما فيهما من الأهلية ، والكره من النفس لما فيها من الأجنبية .

ويقول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاثاً إلى العشر الذى هو الكمال ، ويكون فى السجود مفتوح العينين ، لأنهما يسجدان ، وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ، ويكون ناظراً نحو أرنبة أنفه فى السجود ، فهو أبلغ فى الخشوع للساجد ، ويباشر بكفيه المصلى ، ولا يلفهما فى الثوب ، ويكون رأسه بين كفيه ، ويداه حذو منكبيه ، غير متيامن ومتياسر بهما ، ويقول بعد التسبيح : اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك . وإن قال «سبوح قدّوس رب الملائكة والروح» فحسن . روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده

ذلك . ويجافي مرفقيه عن جنبيه ، ويوجه أصابعها في السجود نحو القبلة ، ويضم أصابع كفيه مع الإبهام ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض ، ثم يرفع رأسه مكبراً ، ويجلس على رجله اليسرى ، وينصب اليمنى موجهاً بالأصابع إلى القبلة ، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما ، ويقول : رب اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، واجبرني ، وعافني ، واعف عني ، ولا يطيل هذه الجلسة في الفريضة ، أما في النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا : رب اغفر وارحم مكرراً ذلك .

ثم يسجد السجدة الثانية مكبراً .

ويكره الإقعاء في القعود ، وهو ههنا أن يضع أليتيه على عقبيه ، ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد .

وفي الصلاة سر المعراج ، وهو معراج القلوب ، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدريج طبقات السموات ، والتحيات سلام على رب البريات ، فليذهن لما يقول ، ويتأدب مع من يقول ، ويدور كيف يقول ، ويسلم على النبي ﷺ ، ويمثله بين عيني قلبه ، ويسلم على عباد الله الصالحين ، فلا يبقى عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة ، ويرفع المسبحة في الشهادة في إلا الله لا في كلمة النفي ، ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية ، فهذه هيئة خشوع المسبحة ، ودليل سراية خشوع القلب إليها . ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين ، إن كان إماماً ينبغي أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن وراءه ، فإن الإمام المتيقظ في الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجاتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وبهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه (كأنهم بنيان مرصوص) وفي وصف هذه الأمة في الكتب السالفة صفهم في صلاتهم كصفهم في قتالهم .

حدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمـــلاء قال أنا أبو عبد الرحمن محمـد بن عيسى بن شعيب الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمي قال أنا مجاهـد بن موسى قال حدثنا معن هو ابن عيسى أنه سأل كعب الأحبار كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : نجـد محمد بن عبد الله يولد بمكة ، ويهاجر لطيبة ، ويكون ملكه بالشام ، وليس بفحاش ولا سخاب في الأسواق ، ولا يكافىء بالسيئة السيئة ، ولـكن يعفو ويغفر ، أمته الحمادون ، يحمدون الله في كل سراء ، ويكبرون الله على كل نجد ، يوضئون أطرافهم ، ويأتزرون في أوساطهم ، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم ، دويهم في مساجدهم كدوي النحل ، يسمع مناديهم في جو السماء .

فالإمام في الصلاة مقدمة الجيش في محاربة الشيطان ، فهو أولى المصلين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهراً وباطناً ، والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم ، وتتناصر وتتعاضد ، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات ، بل جميع المسلمين المصلين في أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان ، بل يمدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله ﷺ بالملائكة للمؤمنين ، فحاجتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتدار كهم الأملاك، بل بأنفاسهم الصادقة تماسك الأفلاك ، فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن ، ويجعل خده مبيناً لمن على يمينه بالواء عنقه ، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يسار ، فقد ورد النهي عن المواصلة ، والمواصلة خمس : اثنان تختص بالإمام ، وهو أن لا يوصل القراءة بالتكبير، والركوع بالقراءة . واثنان على المأموم ، وهو أن لا يوصل تكبيرة

الإحرام بتكبيرة الإمام ، ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة على الإمام والمأمومين ، وهو أن يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل ، ويجزم التسليم ولا يمد مداً ، ثم يدعو بعد التسليم بما شاء من أمر دينه ودنياه ، ويدعو قبل التسليم أيضاً فى صلب الصلاة فإنه يستجاب .

ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة . وكل المقامات والأحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة ، وهى سر الدين ، وكفارة المؤمن ، وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله إجازة قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك ابن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله بن المبارك قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى يقول : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، واقرؤا إن شئتم (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) » .

الباب الثامن والثلاثون

فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلى أن لا يكون مشغول القلب بشئ قلّ أو كثر ، لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا ، لأن الدنيا واشتغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعاناً بالباطن لرب البريات ، لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر ، وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن ، فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن ، حتى لا يختل إذعانهم ، فتنخرم عبوديتهم . فيجتنب أن يكون باطنه مرتهناً بشىء ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد « إذا حضر العَشاء والعِشاء فقدموا العَشاء على العِشاء » .

ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ، ولا حازق يطالبه الغائط . والحزق أيضاً ضيق الخلق . ولا يصلى أيضاً وخفه ضيق يشغل قلبه ، فقد قيل : لا رأى لحازق . قيل : الذى يكون معه ضيق .

وفى الجملة : ليس من الأدب أن يصلى وعنـده مايغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغضب .

وفى الخبر : لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان .

فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيئات .

وأحسن لبسة المصلى سكون الأطراف ، وعدم الالتفات ، والإطراق ، ووضع اليمين على الشمال ، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز ، وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز . وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة .

وقد حركت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت

من الصلاة أنكر علىّ وقال : عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جاداً بجمداً لا يتحرك منه شىء .

وقد جاء فى الخبر : سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات ، والعبث بالشىء من الشيطان أيضاً . وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة أن لايعرف المصلى مَن على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .

وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف مَن عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمداً فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة . قال بعضهم : لأن ذلك عدّوه عملا .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (والذين هم على صلاتهم دائمون) قيل : هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك ، عالم بما فى ضميرك ، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك ، والنار عن شمالك . وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس ، فيكون هذا التمثيل تداوياً للقلب لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنبأنا عمر ابن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت محمد بن الحسين يقول قال سهل : مَن خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ، فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة ، فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده .

قال أبو سعيد الخراز : إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شىء أعظم من الله تعالى ،

ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء ، وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك .

وقال أيضاً : ويكون معه فى الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى .

وقال السراج أيضاً : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ، ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ، ونفى كل شىء غير الله تعالى ، فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة ، فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب ، فكأنهم أبداً فى الصلاة ، فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه ، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى .

وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب فى المحراب ، وشهود العقل عنـــد الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب ، وخضوع الأركان بلا ارتقاب . لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب ، فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطىء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ « إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة ، مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره ، انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها ، وبغسل يديه خطيئة أصابها ، وبغسل رجليه خطيئة أصابها ، حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزر » .

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال : « أى السرقة أقبح ؟ فقالوا :

الله ورسوله أعلم، فقال: إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته ، قالوا: كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها ».

وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال : لا أصلح ، فلما ألحوا عليه كبر فغشى عليه ، فقدموا إماماً آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لما قلت استووا هتف بى هاتف هل استويت أنت مع الله قط .

وقال عليه السلام « إن العبد إذا أحسن الوضوء ، وصلى الصلاة لوقتها ، وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها ، قالت : حفظك الله كما حفظتنى ، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء ، وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيعك الله كما ضيعتنى ، ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها » .

وقال أبو سليمان الدارانى : إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى : « ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى ، فإذا التفت يقول الله : ارخوها فيما بينى وبينه ، وخلوا عبدى وما اختار لنفسه » .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحى من الله حياء رجل انصرف من الزنا . قوله هذا لعظيم الأدب عنده . ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرورهم بين يديك ، قال : إن الذى أصلى له أقرب إلىّ من الذى يمشى بين يدى .

وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يُعرف من تغير لونه ، فيقال له ذلك ، فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقف ؟

وروى عمار بن يسار عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل » .

قد ورد فى لفظ آخر « منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف ، والثلث ، والربع ، والخمس ، حتى يبلغ العشر » .

وقال الخواص : ينبغى للرجل أن ينوى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شىء .

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة . يقول الله تعالى « مثلكم كمثل العبد السوء ، بدأ بالهدية قبل قضاء الدين » .

وقال أيضاً : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين : إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض ، والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق .

وفتح العين فى الصلاة أولى من تغميض العين ، إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع .

وإن تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ، ولا يلزق ذقنه بصدره ، ولا يزاحم فى الصلاة غيره .

قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم .

وقيل : من ترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شىء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهم ، والحضور بين يدى الله .

وقال الحسن : ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال « إذا دخلت الصلاة فهب لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ، فإنى قريب » .

وقال أبو الخير الأقطع: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يارسول الله أوصنى ، فقال « ياأبا الخير عليك بالصلاة فإنى استوصيت ربى فأوصانى بالصلاة وقال لى إن أقرب ما أكون منك وأنت تصلى » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة.

وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتماً الأصم واقفاً يعظ الناس فقال له ياحاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى ؟ قال : نعم ، قال : كيف تصلى ؟ قال : أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشية ، وأدخل بالهيبة ، وأكبر بالعظمة وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلم على السنة ، وأسلمها إلى ربى ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسى ، وأخاف أن لاتقبل منى ، وأرجو أن تقبل منى ، وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمنى ، وأعلمها من سألنى ، وأحمد ربى إذ هدانى . فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظاً .

وقوله تعالى (ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام .

وقال عليه السلام « من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشىء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وقال « إن الصلاة تمسكن وتواضع ، وتضرع وتنادم ، وترفع يديك وتقول اللهم اللهم ، فمن لايفعل ذلك فهى خداج » أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض خوفاً منه ، لأنه تأهب للدخول على الملك ، فإذا كبر حجب عنه إبليس. قيل: يضرب بينه وبينه سرادق لاينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال الله أكبر ، اطلع الملك فى قلبه ، فإذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى

يقول صدقت الله فى قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

وإن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين ، كما تحتوش الذباب على نقطة العسل ، فإذا كبر اطلع الله على قلبه ، فإذا كان شىء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول ، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه من الملكوت ، فيزداد ذلك الحجاب صلابة ، ويلتقم الشيطان قلبه ، فلا يزال ينفخ فيه ، وينفث ويوسوس إليه ويزين ، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه .

وفى الخبر « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » .

والقلوب الصافية التي كمل أدبها لكمال أدب قوالبها ، تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة ، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين ، فالقلب السماوى لاسبيل للشيطان إليه ، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لاتنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان ، والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب ، وتعرج فى طبقات السموات ، وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شىء من ظلمة النفس ، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ، ويقف أمام العرش ، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار ، وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير ، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكثر من ذكرنا ، وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ، وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ، وسلكوا طرقاً

من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ، وغوا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام .

وقوم آخرون سلكوا فى ذلك طريقاً أدتهم إلى نقصان الحال ، حيث سلموا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفرائض ، وأنكروا فضل النوافل ، واغتروا بيسير روح الحال ، وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن لله فى كل هيئة من الهيئات ، وكل حركة من الحركات أسراراً وحكما لاتوجد فى شىء من الأذكار . فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، ومادام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان ، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون

فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصبر نصف الإيمان ، والصوم نصف الصبر » .

وقيل : مافى عمل ابن آدم شىء إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لايدخله قصاص ، ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذا لى فلا يقتص أحد منه شيئاً .

وفى الخبر « الصوم لى وأنا أجزى به » .

قيل : أضافه إلى نفسه ، لأن فيه خلقاً من أخلاق الصمدية . وأيضاً لأنه من أعمال السر من قبيل التروك ، لايطلع عليه أحد إلا الله .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (السائحون) الصائمون ، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم .

وقيل فى قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) هم الصائمون ، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ، ويفرغ للصائم إفراغاً ، ويجازف له مجازفة .

وقيل : أحد الوجوه فى قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ابتلى المريد بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ، ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة .

وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها ، فإذا جوع بطنه ، وأخذ حلقه ، وراض نفسه ، يبس كل عضو أو احترق بنار الجوع ، وفر الشيطان من ظله . وإذا أشبع بطنه ، وترك حلقه فى لذائذ الشهوات ، فقد رطب أعضاءه ، وأمكن الشيطان . والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين ، والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة ، وينهزم

الشيطان من جائع نائم ، فكيف إذا كان قائماً ويعانق الشيطان شبعانا قائماً ، فكيف إذا كان نائماً . فقلب المريد الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى الطيالسى وهو يأكل خبزاً يابساً قد بله بالماء مع ملح جريش ، فقال له كيف تشتهى هذا ؟ قال : أدعه حتى أشتهيه .

وقيل : من أسرف فى مطعمه ومشربه ، يعجل الصغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته .

وقال بعضهم : الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء .

وقال بشر : إن الجوع يصفى الفؤاد ، ويميت الهوى ، ويورث العلم الدقيق .

وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبعت ، ولاشربت حتى رويت ، إلا عصيت الله أو هممت بمعصية .

وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يأتى علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره . قال : قلت سبحان الله ، فبأى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : بالتمر والماء . وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيراً كانت لهم منائح فربما واسونا بشىء .

وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لأبيها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاماً أكثر من طعامك ، ولبست ثياباً ألين من ثيابك ؟ فقال إنى أخاصمك إلى نفسك ، ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا يقول مراراً ، فبكت ، فقال قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء .

وقال بعضهم : مانخلت لعمر دقيقاً إلا وأنا له عاص .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم .

قالوا : كيف نديم ؟ قالت : بالجوع والعطش والظمأ .

وقيل : ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق ، فقال ماهذه ؟ قال : الشهوات التي أصيب بها ابن آدم . قال هل تجد لي فيها شهوة ؟ قال : لا غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر ، فقال : لاجرم أني لا أشبع أبداً . قال إبليس : لاجرم أني لا أنصح أحداً أبداً .

وقال شقيق : العبادة حرفة ، وحانوتها الخلوة ، وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا ملئت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال الحسن : لاتجمعوا بين الأدمين فإنه من طعام المنافقين .

وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية .

فيكره للمريد أن يوالي في الإفطار أكثر من أربعة أيام ، فإن النفس عند ذلك تركن إلى العادة ، وتتسع بالشهوة .

وقيل : الدنيا بطنك ، فعلى قدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا .

وقال عليه السلام « ماملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لامحالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وقال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كل يوصيني عند مفارقتي إياه بترك عشرة الأحداث ، وقلة الأكل .

الباب الأربعون

فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى . وكان أبو عبد الله بن جابار قد صام نيفاً وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر ، فجهد به أصحابه يوماً فأفطر فاعتل من ذلك أياماً .

فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائماً ويدع للإفطار جانباً ، فهو عون حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا » وعقد تسعين ، أى لم يكن له فيها موضع .

وكره قوم صوم الدهر ، وقد ورد فى ذلك مارواه أبو قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ كيف بمن صام الدهر ؟ قال « لاصام ولا أفطر » .

وأولَ قوم أن صوم الدهر هو أن لا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره . وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وقد ورد « أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » واستحسن ذلك قوم من الصالحين ، ليكون بين حال الصبر وحال الشكر .

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوماً ، أو يصوم يوماً ويفطر يومين.

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة .

وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوماً مرة ، وفى رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح للسنة .

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول: ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم .

غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون الداعى إلى ذلك شره النفس لا نية الموافقة . وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب .

وسمعت شيخنا يقول : لى سنين ما أكلت شيئاً بشهوة نفس ابتداء واستدعاء ، بل يقدم إلىّ الشىء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله ، فأوافق الحق فى فعله .

وذكر أنه فى ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر ، ومن عادته تقديم الطعام إليه . قال ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها ، فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك ، فقلت : هذا عقوبة لى على تصرفى فى أخذ الرمانة .

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات أى وقت أحضر الطعام أكل منه ، ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق ، لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار فى مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه ، وكان حاله الوقوف مع فعل الحق ، وقد كان له فى ذلك بداية يعز مثلها ، حتى نقل أنه كان يبقى أياماً لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ، ولا يتسبب إلى تناول شىء ، وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان ، ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة ، وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه ، وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة . سمعته يقول : أصبح كل يوم وأحب ما إلىّ الصوم ، وينقض الحق على محبتى الصوم بفعله فأوافق الحق فى فعله .

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا فى رمضان .

وقال أبو نصر السراج : أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعاً ، واستحسنه آخرون ، لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع ، وأن لا يتمتع برؤية الصوم . ووقع لى أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل ، والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم . قال الله تعالى (ولا تبطلوا أعمالكم)

ولـكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون ، والصدق محمود لعينه كيف كان ، والصادق فى خفارة صدقه كيف تقلب .

وقال بعضهم : إذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد اجتمع معه شىء من الدنيا .

وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام ، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقاً به ، ولا يحملوا حاله على حالهم وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه ، حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه .

وحكى عن أبى الحسن المكى أنه كان يصوم الدهر وكان مقيماً بالبصرة ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة ، وكان قوته فى كل شهر أربع دوانيق ، يعمل بيده حبال الليف ويبيعها .

وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول : لا أسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل. وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهوراً بين الناس.

وقال بعضهم : ما أخلص لله عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف ، ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام .

وقيل : أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا ، فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فأخذه وأكله ، فرآه إنسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم ، فقال الشيخ : من جنى منكم هذه الجناية ؟ فقال الرجل أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته ، فقال : كن أنت مع جنايتك ورفقك ، فقال : أنا تائب من جنايتى ، فقال لا كلام بعد التوبة .

وكانوا يستحبون صيام أيام البيض ، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

روى أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض اسود جسده من أثر

المعصية ، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه ؛ حتى ابيض جميع جسده بصيام أيام البيض .

ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان ، وإفطار نصفه الأخير ، وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ، ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين .

وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان .

ويستحب صوم العشر من ذى الحجة ، والعشر من المحرم ، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم . وورد فى الخبر « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت بَعُدَ من النار سبعمائة عام ».

الباب الحادى والأربعون

فى آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية فى الصوم ضبط الظاهر والباطن ، وكف الجوارح عن الآثام ، كمنع النفس عن الطعام ، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام .

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه ، ولايفطرون إلا على مافتح لهم وقت الإفطار ، وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام .

قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يغبنون قيام الحمق وصيامهم ، ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين .

ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر ، وإلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما فوت .

ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع ، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة . والنفس من طبعها أنها إذا أقهرت لله تعالى فى شىء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها ، فيصير بالأكل النوم ضرورة ، والقول والفعل ضرورة ، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده ، ولايختص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها إلا عبد يريد الله تعالى أن يقربه ويدنيه ، ويصطفيه ويربيه . ويمتنع فى صومه من ملاعبة الأهل بالملامسة ، فإن ذلك أنزه للصوم ، ويتسحر استعمالا للسنة ، وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لمعنيين ، أحدهما عود بركة السنة عليه ، والثانى التقوية بالطعام على الصيام .

روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تسحروا فإن فى السحور بركة » .

ويعجل الفطر عملا بالسنة ، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء مابين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر ، أو يأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين ، فإحياء ذلك له فضل كثير ، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن قرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه « قال الله عز وجل : أحب عبادى إلىّ أعجلهم فطراً » .

وقال عليه السلام « لا يزال الناس بخير ماعجلوا الفطر » .

والإفطار قبل الصلاة سنة ، كان رسول الله ﷺ يفطر على جرعة من ماء ، أو مذقة من لبن ، أو تمرات .

وفى الخبر : كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش .

قيل : هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام .

وقيل : هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة .

قال سفيان : من اغتاب فسد صومه .

وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم : الغيبة ، والكذب . قال الشيخ أبو طالب المكى : قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم بأكل الحرام ، فقال (سماعون للكذب ، أكالون للسحت) .

وورد فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحاً وقال قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت أحدهما نصفه دماً عبيطاً ولحماً غريضاً ، وقاءت الأخرى مثل

ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ « هاتان صامتا وأفطرتا على ما حرم الله عليهما » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم » .

وفى الخبر : إن الصوم أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته .

والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم ، ولا يدرى متى يساق إليه الرزق ، فإذا ساق الله إليه الرزق تناوله الأدب ، وهو دائم المراقبة لوقته ، وهو فى أفطاره أفضل من الذى له معلوم معد ، فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل.

حكى عن رويم قال : اجتزت فى المهاجرة ببعض سكك بغداد ، فعطشت ، فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد ، فلما أردت أن أتناوله من يدها قالت : صوفى ويشرب بالنهار ؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت . قال رويم : فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبداً .

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار ، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم، فيرون الفضل فى أن لا تركن النفس إلى عادة ، ورأوا أن إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس .

ومن أدب الفقراء أن الواحد إذا كان بين جمع وفى صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم ، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم ، فإن صام بإذن الجمع وفتح عليهم بشىء لا يلزمهم ادخاره للصائم ، مع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك ، فإن الله تعالى يأتى للصائم برزقه ، إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال ، فإن كان ضعيفاً يعترف بحاله وضعفه فيدخره .

والذى ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم ، فأما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الإفطار ،

وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل : مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام .

وأمر القوم مبناه على الصدق ، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس ، فكل ما صحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الأفضل فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائماً وأفطر للموافقة ، وإن صام ولم يوافق فله وجه

فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال حدثنا عبد الله بن حماد قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنى عطاء بن خالد عن حماد ابن حميد عن محمد بن المنكدر عن أبى سعيد الخدرى قال : اصطنعت لرسول الله ﷺ وأصحابه طعاماً ، فلما قدم إليهم قال رجل من القوم إنى صائم ، فقال رسول الله ﷺ « دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول إنى صائم ، أفطر واقض يوماً مكانه » .

وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله ﷺ وأصحابه أكلوا وبلال صائم ، فقال رسول الله ﷺ « نأكل رزقنا ، ورزق بلال فى الجنة » .

فإذا علم أن هنالك قلباً يتأذى أو فضلا يرجى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه ، فإذا لم يجد هذا المعنى لا ينبغى أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه . وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه .

ومن أحسن آداب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيراً عن هيئته ، ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه ، ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها ، أو بأذكار واستغفار يأتى به ، فقد ورد فى الخبر : أذيبوا طعامكم بالذكر .

ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن إلا أن يكون متمكناً من الإخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن .

الباب الثانى والأربعون

فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته ، وصحة مقصده ، ووفور علمه ، وإتيانه بآدابه ، تصير عاداته عبادة .

والصوفى موهوب وقته لله ، ويريد حياته لله ، كما قال الله تعالى لنبيه آمراً له (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته ، وضرورة بشريته ، ويحف بعاداته نور يقظته ، وحسن نيته ، فتتنور العادات ، وتتشكل بالعبادات ، ولهذا ورد : نوم العالم عبادة ، ونفسه تسبيح . هذا مع كون النوم عين الغفلة ، ولكن كل مايستعان به على العبادة يكون عبادة . فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية ، وتعلق أثره بالقلب والقالب ، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك ، والقالب مركب القلب ، وبهما عمارة الدنيا والآخرة .

وقد ورد : أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس . والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا ، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة ، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين .

والله تعالى ركب الآدمى بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات ، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات ، وجعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمى . قال الله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) .

فكون الطبائع وهى الحرارة والرطوبة ، والبرودة واليبوسة ، وكون بواسطتها النبات ، وجعل النبات قواماً للحيوانات ، وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى ، يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه .

فالطعام يصل إلى المعدة ، وفى المعدة طباع أربع ، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام ، فتأخذ الحرارة

البرودة ، والرطوبة لليبوسة ، فيعتدل المزاج ، ويأمن الاعوجاج . وإذا أراد الله تعالى إفناء قالب وتخريب بنية ، أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول، فتميل الطبائع ، ويضطرب المزاج ، ويسقم البدن (ذلك تقدير العزيز العليم)

روى عن وهب بن منبه قال : وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام : إنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء : من رطب ، ويابس ، وبارد وسخن ، وذلك لأنى خلقته من التراب وهو يابس ، ورطوبته من الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، وخلقت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم ، بإذنى وبهن قوامه ، فلا يقوم الجسم إلا بهن ، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم ، ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء ، ومسكن الحرارة فى الدم ، ومسكن البرودة فى البلغم ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه ، فكانت كل واحدة منهن ربعاً لا يزيد ولا ينقص ، كملت صحته ، واعتدلت بنيته ، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ، ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها ، حتى يضعف عن طاقتهن ، ويعجز عن مقدارهن .

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالا ، وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلب الحلال .

ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعمة ، وأن يبتدىء بغسل اليد قبل الطعام . قال رسول الله ﷺ « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر » .

وإنما كان موجباً لنفى الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب ، وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ، فصار غسل اليد مستجلباً للنعمة ، مذهباً للفقر .

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « من أحب أن يكثر خير بيته ، فليتوضأ إذا حضر غداؤه ، ثم يسمى الله تعالى » .

فقوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان . واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله فى وجوب ذلك . وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر . فقرونه فريضة وقته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ، فقال رسول الله ﷺ « أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم ، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليقل بسم الله فإن نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره » .

ويستحب أن يقول فى أول لقمة بسم الله ، وفى الثانية بسم الله الرحمن ، وفى الثالثة يتم ، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس ، يقول فى أول نفس الحمد لله إذا شرب ، وفى الثانية الحمد لله رب العالمين ، وفى الثالثة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم .

وكما أن للمعدة طباعاً تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام ، فللقلب أيضاً مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة ، يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة ، تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول ، وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت ، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة ، وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة . فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ، ويرى تغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب أهم وأولى . وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب . ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب . واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يقى الأسواء ، ويذهب الداء ، ويجلب الشفاء .

حكى أن الشيخ محمداً الغزالى لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى

عبد صالح ، فقصده زائراً ، فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض ، فلما رأى الشيخ محمداً جاء إليه وأقبل عليه ، فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالى عن سبب امتناعه ، فقال : لأنى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ، ولسان ذاكر ، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئاً ، فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر .

وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن تحضر الوقت بذلك ، حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ، ولا يعقب الطعام مكروه ، ويتغير مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول : أنا آكل وأنا أصلى ، يشير إلى حضور القلب فى الطعام . وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الأكل ، ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثراً كبيراً لا يسعه الإهمال له .

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان المعينة على الأكل ، فمنها الكاسرة ، ومنها القاطعة ، ومنها الطاحنة ، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحاً لما كان شحماً حتى لا يفسد ، وكيف جعل النداوة تنبسع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقاً مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، وللمعدة بمثابة القدر ، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة ، ولا يفسد الطعام ، ولا ينفصل ، ولا يصل إلى كل عضو نصيبه . وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ، ويطول شرح ذلك .

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الأعضاء وتعاونها ، وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء واستجذاب القوة منه للأعضاء ، وانقسامه إلى الدم والثفل واللبن ،

لتغذية المولود من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فالفكر فى ذلك وقت الطعام ، وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .

ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ، ويسأل الله تعالى أن يجعله عوناً على الطاعة ، ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وما رزقتنا مما تحب اجعله عوناً لنا على ما تحب ، وما زويت عنا مما تحب اجعله فراغاً لنا فيما تحب .

الباب الثالث والأربعون

فى آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدى بالملح ويختم به .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلى رضى الله عنه « ياعلى ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح ، فإن للملح شفاء من سبعين داء ، منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس » .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : لدغ رسول الله ﷺ فى إبهامه من رجله اليسرى لدغة فقال « علىّ بذلك الأبيض الذى يكون فى العجين » فجئنا بملح فوضعه فى كفه ، ثم لعق منه ثلاث لعقات ، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه .

ويستحب الاجتماع على الطعام ، وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها .

روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى » .

وروى أنه قيل يارسول الله : إنا نأكل ولا نشبع ، قال « لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه » .

ومن عادة الصوفية الأكل على السفر ، وهو سنة رسول الله ﷺ .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقوى بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزوينى قال أنبأنا محمد بن المثنى قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثنا أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة . قال : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

ويصغر اللقمة ، ويجود الأكل بالمضغ ، وينظر بين يديه ، ولا يطالع وجوه الآكلين ، ويقعد على رجله اليسرى ، وينصب اليمنى ، ويجلس جلسة

التواضع غير متكىء ولا متعزز . نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل متكئاً .

وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ شاة ، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه يأكل ، فقال أعرابى: ما هذه الجلسة يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الله خلقنى عبداً ولم يجعلنى جباراً عنيداً » .

ولا يبتدىء بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ .

روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ .

ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، وليعط بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويأخذ بشماله ، ويعطى بشماله » .

وإن كان للمأكول تمراً أو ماله عجم ، لا يجمع من ذلك ما يرى وما يؤكل على الطبق ولا فى كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه .

ولا يأكل من ذروة الثريد .

روى عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ أنه قال « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه ، فإن البركة تنزل فى وسطه » .

ولا يعيب الطعام .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه .

وإذا سقطت اللقمة يأكلها .

فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان » .

ويلعق أصابعه .

فقد روى جابر عن النبى ﷺ قال « إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه فإنه لايدرى فى أى طعامه تكون البركة » .

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة ، وهو مسحها من الطعام .

قال أنس رضى الله عنه : أمر رسول الله ﷺ بإسلات القصعة .

ولا ينفخ فى الطعام .

فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال « النفخ فى الطعام يذهب بالبركة » .

وروى عبد الله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ فى طعام ولا فى شراب .

ولا يتنفس فى الإناء ، فليس من الأدب ذلك .

والخل والبقل على السفرة من السنة . قيل إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل .

روت أم سعد رضى الله عنها قالت : دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال « هل من غداء ؟ فقالت : عندنا خبز وتمر وخل ، فقال عليه السلام : نعم الإدام الخل ، اللهم بارك فى الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يفتقر بيت فيه خل » .

ولا يصب على الطعام ، فهو من سيرة الأعاجم .

ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ، ففيه نهى .

ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع . فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل ، فإن الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له فى الطعام حاجة » .

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره .

فقد روى أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « أكرموا الخبز ، فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم » .

ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع ، ويمسك عن الطعام قبل الشبع .

فقد روى عن رسول الله ﷺ « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه » .

ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم ، وهو سنة .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو القاسم ﷺ « إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه ولى حره ودخانه » .

وإذا فرغ من الطعام تحمد الله تعالى .

روى أبو سعيد قال : كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً قال « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أكل طعاماً فقال « الحمد لله الذى أطعمنى هـــذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ويتخلل ، فقد روى عن رسول الله ﷺ « تخللوا فإنه نظافة ، والنظافة تدعو إلى الإيمان ، والإيمان مع صاحبه فى الجنة » .

ويغسل يديه ، فقد روى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من بات وفى يده غمر لم يغسل فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه » .

ومن السنة غسل الأيدى فى طست واحد .

روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ « أترعوا الطسوس وخالفوا المجوس » .

ويستحب مسح العين ببلل اليد .

روى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ، ولا تنفضوا أيديكم فإنها مراوح الشياطين » قيل لأبى هريرة فى الوضوء وغيره ؟ قال : نعم فى الوضوء وغيره .

وفى غسل اليد يأخذ الأسنان باليمين ، وفى الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الأسنان . وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به .

ويجتنب التصنع فى أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كأكله

منفرداً ، فإن الرياء يدخل فى العبد فى كل شىء .

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه ، قيل له تعلم به بأساً ؟ قال : نعم ، رأيته يتصنع فى الأكل ، ومن تصنع فى الأكل ، لايؤمن عليه التصنع فى العمل .

وإن كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتنزل البركات ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعمنا طيباً ، واستعملنا صالحاً . وإن كان شبهة يقول: الحمد لله على كل حال، اللهم صل على محمد ولا تجعله عوناً على معصيتك . وليكثر الاستغفار والحزن . ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك ، فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك .

ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ، ولإيلاف قريش .

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم ، فقد ورد « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً » وسمعنا لفظاً آخر « دخل سارقاً وخرج مغيراً » إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته .

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار . ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ويجتنب المضيف التكلف ، إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفاً .

وإذا أكل عند قوم طعاماً فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

وروى أيضاً : عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار ، يصلون بالليل ويصومون بالنهار . كان بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب أن لا يستحقر مايقدم له من طعام .

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول : ماندرى أيهم أعظم وزراً ، الذى يحتقر ما يقدم إليه ، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه .

ويكره أكل المباهاة ، وما تكلف للأعراس والتعازى ، فما عمل للنوائح لا يؤكل ، وما عمل للعزاء لا بأس به وما يجرى مجراه .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه فى التصرف

فى شىء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه . قال الله تعالى (أو صديقكم) .

قيل : دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتمونى أخلاق السلف ، هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأوكد ذلك الوليمة . وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبراً وذلك خطأ ، وإن عمل ذلك تصنعاً ورياء فهو أقل من التكبر .

روى أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق، وقد نثروا كسراً على الأرض وهو على بغلته ، فلما مر بهم سلم عليهم، فردوا عليه السلام وقالوا : هلم الغداء يابن رسول الله ، فقال: نعم إن الله لايحب المتكبرين ، ثم ثنى وركه ، فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال .

وروى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطست ، فلما فرغ قال: يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك ؟ قال : لا ، قال : أمير المؤمنين ، قال : يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون

فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الحر والبرد، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع. وكما أن النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات، فهكذا فى اللباس تتفنن فيه، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة. فالصوفى يرد النفس فى اللبـــاس إلى متابعة صريح العلم.

قيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزق، قال: ولـكنه من وجه حلال. وقيل له: وهو وسخ، قال: ولـكنه طاهر.

فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال، لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا» أى لا فريضة ولا نافلة.

ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهراً، لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة، وماعدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد، لأن ذلك مصلحة النفس، وبعد ذلك ماتدعو النفس إليــه فـكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق، والصادق لا ينبغى أن يلبس الثـوب إلا لله، وهو ستر العورة، أو لنفسه لدفع الحر والبرد.

حكى أن سفيان الثورى رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليــه ثوب قد لبسه مقلوباً، فقيل له، ولم يعلم بذلك، فهمّ أن يخلعه ويغيره، ثم تركه وقال: حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله الآن، فما أغيره إلا لنظر الخلق، فلا أنقض النية الأولى بهذه.

والصوفيــة خصوا بطهارة الأخلاق، وما رزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم. وفى طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع، لوجود تناسب هيئة النفس، وتناسب

هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) فالتناسب هو التسوية . فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم ، وطعامهم مشاكلا لكلامهم ، وكلامهم مشاكلا لمقامهم ، لأن التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم ، والتشابه والتماثل فى الأحوال يحكم به العلم ، ومتصوفة الزمان ملتزمون بشىء من التناسب مع مزج الهوى ، وما عندهم من التطلع إلى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب .

قال أبو سليمان الدارانى : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم . أنكر ذلك لعدم التناسب . فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه . وإذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحراف ، لوجود هوى كامن فى أحد الطريق ، إما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما فى طرف المأكول لفرط الشره ، وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان الدارانى ثوباً غسيلاً ، فقال له أحمد : لو لبست ثوباً أجود من هذا ؟ فقال : ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب .

فكان الفقراء يلبسون المرقع ، وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح ، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ، فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الأبواب .

وكان أبو عبد الله الرقاعى مثابراً على الفقر والتوكل ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم ، فيقال له فى ذلك ، فيقول : أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة ، ثم يخرج بين العشاءين لطلب الكسر من الأبواب ، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة .

وحكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث ، فقال لهم : ياقوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له ، فسكتوا كلهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به

ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله ، فقال له بشر : أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة ، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب ، ولا يملك غير ثوبه الذى عليه .

وروى أن أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه لبس قميصاً اشتراه بثلاثة دراهم ، ثم قطع كمه من رءوس أصابعه .

وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك ، واخصف نعلك ، وقصر أملك ، وكل دون الشبع .

وحكى عن الجريرى قال : كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف ، فسئل عن ذلك فقال : قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب ، فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة ، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة ، فأردت أن أجلس معهم ، فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى وقالوا لى : هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان ، فلا تجلس معهم ، فانتبهت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوباً واحداً إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى كان عليه وكان عارية ، فردوه إلى صاحبه .

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا أنه بقى زماناً لا يلبس الثوب إلا مستأجراً ، حتى أنه لم يلبس على ملك نفسه شيئاً .

وقال أبو حفص الحداد : إذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره .

وقيل : مات ابن الكرنبى وكان أستاذ الجنيدى وعليه مرقعته . قيل كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا ، فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ، ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال ، أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة .

وقيل : كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم ، وله بيت فرش فيه الرمل ، لعله كان ينام عليه بلا وطاء .

وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا ، ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها، وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعرض عليهم . غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد « من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة » .

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله ، بصير بصفات نفسه ، متفقد خفى شهوات النفس ، يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك ، فلحسن النيــة فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها . ومن الناس من لا يقصـد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته ، بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت ، وهذا حسن، وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه ، فإن رأى للنفس شرهاً وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه ، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار ، فعنـد ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئـة من الملبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار . وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ، ويلبس العمامة بدانق .

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس .

وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد .

وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فرواً خشناً كآحاد العوام ، ولـكن فى لبسه وهيئته نية صالحة . وشرح تفاوت الأقدام فى ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار، وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك فى لبسك هذا الثوب ، فيقال لا تلق إلا أحد رجلين : رجل

يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه ، فيقول : لا ، ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة ، فنقول له : هل ترى لنا فيما لبسنا اختياراً ، أو ترى عندنا فيه شهوة ، فيقول : لا .

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ، ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة ، فيكثر التجأ إلى الله والافتقار إليه ، ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى ، وأصلحه لدينه ودنياه ، لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه ، فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زياً مخصوصاً ، فيلتزم بذلك الزى ، فيكون لبسه بالله ، ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم ، وينبسط بما بسطه الله ، فيلبس الثوب عن علم وإيقان ، ولا يبالى بما لبسه ناعماً لبس أو خشناً ، وربما لبس ناعماً ولنفسه فيه اختيار وحظ ، وذلك الحظ فيه يكون مكفراً له مردوداً عليه ، موهوباً له ، يوافقه الله تعالى فى إرادة نفسه ، ويكون هذا الشخص تام التزكية ، تام الطهارة ، محبوباً مراداً ، يسارع الله تعالى إلى مراده ومحابه، غير أن ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره ، ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم، فقيل لأبى يزيد ذلك ، فقال: مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محموداً فيه ، وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة (قل كلٌ يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد ، والأبعد من الآفات .

قال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه، فرأيت قميصه وسخاً ، فقلت لامرأته فاطمة: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين

فقالت : نفعل إن شاء الله . قال : ثم عدته فإذا القميص على حاله ، فقلت : يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوه ؟ قالت : والله ما له قميص غير هذا .

وقال سالم : كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباساً من قبل أن يسلم إليه الخلافة ، فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها .

وقيل : لما مات أبو الدرداء وجد فى ثوبه أربعون رقعة ، وكان عطاؤه أربعة آلاف .

وقال زيد بن وهب : لبس على بن أبى طالب قميصاً رازياً ، وكان إذا مد كمه بلغ أطراف أصابعه ، فعابه الخوارج بذلك ، فقال : أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر ، وأجدر أن يقتدى به المسلم .

وقيل : كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال : دعوا هذه البراقات للنساء .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « نوروا قلوبكم بلباس الصوف ، فإنه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة ، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم » .

وروى أن رسول الله ﷺ احتذى نعلين ، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما ، فسجد لله تعالى ، فقيل له فى ذلك ، فقال « خشيت أن يعرض عنى ربى فتواضعت له لا جرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت للمقت من الله تعالى من أجلهما » فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان .

وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف ، واحتذى المخصوف ، وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جداً ، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط ، وترك ما يريب إلى ما لا يريب ، ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة إلا بعد إتقان

علم السعة وكمال تزكية النفس ، وذاك إذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع ، وتخلصت النية ، وتسدد التصرف بعلم صريح واضح .

وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها ، لا يرون النزول إلى الرخص خوفاً من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا .

وقد قيل : من رق ثوبه رق دينه . وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع .

روى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فقال النبي عليه السلام : إن الله جميل يحب الجمال » .

فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا بهوى نفسه فى ذلك ، غير مفتخر به ومختال ، فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد .

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إزرة المؤمن إلى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار ، من جر إزاره بطراً لم ينظر الله إليه يوم القيامة . فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه إذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .

ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته فى مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه ، وفى كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى . وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى .

الباب الخامس والأربعون

فى ذكر فضل قيام الليل

قال الله تعالى (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان) نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب ، وأصابهم الظمأ ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم ، فأنزل الله تعالى مطراً من السماء سال منه الوادى ، فشرب المسلمون منه واغتسلوا ، وتوضئوا وسقوا الدواب وملئوا الأسقية ، ولبد الأرض حتى ثبتت به الأقدام . قال الله تعالى (ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم) أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين .

ولكل آية من القرآن ظهر وبطن ، وحد ومطلع ، والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة ، فهو رحمة تعم المؤمنين .

والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين ، وهو أمنة لقلوبهم من منازعات النفس ، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب ، إذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب ، وباحترامها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب ، لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين ، فقد قيل : ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوماً حتى لا يضطرب الجسد ، فيكون ثمانى ساعات للنوم ، ساعتان من ذلك يجعلهما المريد بالليل ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف ، وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم

عن ..ر الثلث ، ولا يضر ذلك إذا ..ار بالتدريج عادة . وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس ، فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ، ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج ، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم ، فإذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه ، لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم ، وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة ، كما يقال : سنة الوصل سنة ، وسنة الهجر سنة ، فيقصر الليل لأهل الروح .

نقل عن على بن بكار أنه قال : منذ أربعين سنة ما أحزننى إلا طلوع الفجر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته .

وقال أبو سليمان الدارانى : أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو فى لهوهم .

وقال بعضهم : ليس فى الدنيا شىء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الأسحار فيملؤها نوراً ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى فى بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه : إن لى عباداً يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عن ذلك مقتك . قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلام بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لى أقدامهم ، وافترشوا لى وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلىّ بإنعامى ، فبين صارخ

وباك ، وبين متأوه وشاك ، يعنى مايتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشتكون من حبى ، أول ما أعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم. والثانى لو كانت السموات السبع والأرضون ومافيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالث أقبل بوجهى عليهم، أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟

فالصادق للمريد إذا خلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ، ويصير نهاره فى حماية ليله ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ، ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسدداً حركاته ، موفرة سكناته .

وقد ورد : من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، ويجوز أن يكون لمعنيين ، أحدهما أن المشكاة تستنير بالمصباح ، فإذا صار سراج اليقين فى القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقاً ، وتكتسب مشكاة القالب نوراً وضياء .

كان يقول سهل بن عبد الله : اليقين نار ، والإقرار فتيلة ، والعمل زيت وقد قال الله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) .

وقال تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) .

فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب ، يزداد ضياء بزيت العمل ، فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرى ، وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب . وأيضاً يلين القلب بنار النور ، ويسرى لينه إلى القالب ، فيلين القالب للين القلب ، فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما . قال الله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين ، فإذا امتلأ القلب بالنور ، ولأن القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور ، يندرج الزمان والمكان فى نور القلب ، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور ، وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها ، إذ يصير القلب سماء ، والقالب أرضاً . ولذة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستر كون الكائنات

والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحمة صفو الشهود ، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ، ولا يسمع للهاجس حسيس ، وفى مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك هو الفضل العظيم .

الوجه الثانى لقوله عليه السلام « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » معناه أن وجوه أموره التى يتوجه إليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه ، ويكون معاناً فى مصدره ومورده ، فيحسن وجه مقاصده وأفعاله ، وينتظم فى سلك السداد مسدداً أقواله ، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون

فى ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظراً مجىء الليل وصلاة المغرب ، مقيما فى ذلك على أنواع الأذكار ، ومن أولاها التسبيح والاستغفار . قال الله تعالى لنبيه (واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) .

ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر ، وأفضل ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار ، من رؤية الخلق ومخالطتهم ، وسماع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وخدش فى القلوب ، حتى النظر إليهم يعقب كدراً فى القلب ، يدركه من رزق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى فى العين للبصر . وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر .

ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين ، ويقيد من قيام الليل ، سيما إذا كان عرياً عن يقظة القلب . ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضاً معين على قيام الليل .

حكى لى بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل فى الليل ثلاث مرات ، مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ، ومرة قبل الصبح . فالوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل، ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم ، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه ، إلا أن يكون واثقاً من نفسه وعادته ، فيتعمل النوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود ، وإلا فالنوم

عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين ، وبهـــذا وصف المحبون ، قيل : نومهم نوم الغرق ، وأكلهم أكل المرضى ، وكلامهم ضرورة ، فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا أطمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل فى الاستقرار ، وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو التجافى الذى قال الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب وللوضع نبواً وتجافياً .

وقد قيل : للنفس نظران ، نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية . فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الروحانية ، فأعطوا النفوس حقها من النوم ، ومنعوها حظها ، فالنفس بمـــا فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم . قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من تراب) وللآدمى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له ، والرسوب صفة التراب ، والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الإنسان . فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل : ساجداً وقائماً) حتى قال (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم ، فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ، ورقوها بالنظر إلى الذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها ، فتجافت جنوبهم عن المضاجع ، وخرجوا من صفة الغافل الهاجع .

ومن ذلك أن يغير العادة ، فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة ، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء . وقـد كان بعضهم يقول : لأن أرى فى بيتى شيطاناً أحب إلى من أن أرى وسادة ، فإنها تدعونى إلى النوم . ولتغير العادة فى الوسادة والغطاء والوطاء تأثير فى ذلك ، ومن ترك شيئاً من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته يثيبه على ذلك بتيسير ما رام .

ومن ذلك خفة المعدة من الطعام ، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا

اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل ، لأن بالذكر يذهب داؤه ، فإن وجد الطعام ثقلا على المعدة ينبغى أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار .

قال بعضهم : لأن أنقص من عشائى لقمة أحب إلىّ من أن أقوم ليلة .

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لايدرى ماذا يحدث ، ويعد طهوره وسواكه عنده ، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة .

قال رسول الله ﷺ « إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة ، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق » .

والمريد المتأهل إذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوؤه باللمس ، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل فى التذاذ النفس باللمس ، ولا يعدم يقظة القلب ، فأما إذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتحجب الروح أيضاً لمكان صلافته .

ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى ، وكدورة محبة الدنيا ، والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد . وقد ورد : من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم .

وإذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب ، وقابل اللوح المحفوظ فى النوم ، وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء . ففى الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة ، فيأمره الله تعالى وينهاه ، ويفهمه فى المنام ويعرفه ، ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى كالأمر والنهى الظاهر ، يعصى الله تعالى إن أخل بها ، بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وقعاً ، لأن المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى ، فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة ، ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت ، فإن ابتلى العبد فى بعض

الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح أعضاءه بالماء مسحاً حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين ، وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحاً حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ، ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه .

روى أن رسول الله ﷺ كان يستاك فى كل ليلة مراراً عند كل نوم وعند الانتباه منه ، ويستقبل القبلة فى نومه . وهو على نوعين ، فإما على جنبه الأيمن كالملحود ، وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى ، ويقول : باسمك اللهم ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى حكم فقهر ، الحمد لله الذى بطن فخبر ، الحمد لله الذى ملك فقدر ، الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك ، وسوء عقابك ، وشر عبادك ، وشر الشيطان وشركه . ويقرأ خمس آيات من البقرة الأربع من الأول والآية الخامسة (إن فى خلق السموات والأرض) وآية الكرسى ، وآمن الرسول ، وإن ربكم الله ، وقل ادعوا الله ، وأول سورة الحديد ، وآخر سورة الحشر ، وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفث بهن فى يديه ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى ماقرأ عشراً من أول الكهف ، وعشراً من آخرها فحسن .

ويقول : اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك ، واستعملنى بأحب الأعمال إليك التى تقربنى إليك زلفى ، وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى ، وأستغفرك فتغفر لى ، وأدعوك فتستجيب لى . اللهم لا تؤمنى

مكرك ، ولا تولنى غيرك ، ولا ترفع عنى سترك ، ولا تنسنى ذكرك ، ولا تجعلنى من الغافلين .

ورد أن من قال هـــذه الـكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصـلاة ، فإن صلى ودعا أمنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبدت الأملاك فى الهواء ، وكتب لهم ثواب عبادتهم ، ويسبح ويحمد ويـكبر كل واحد ثلاثاً وثلاثين ، ويتمم المـائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب السابع والأربعون

فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلى ركعتين خفيفتين بين الأذان والإقامة ، وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين فى البيت ، يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة ، كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظناً منهم أنهما سنة . وإذا صلى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب ، يعجل بهما فإنهما يرفعان مع الفريضة ، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحباً بملائكة الليل ، مرحباً بالملكين الكريمين الكاتبين ، اكتبا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراط والميزان حق ، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها . اللهم احطط بها وزرى ، واغفر بها ذنبى ، وثقل بها ميزانى ، وأوجب لى بها أمانى ، وتجاوزعنى يا أرحم الراحمين .

فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته يكون جامعاً بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين ، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه ، وأقرب إلى الإخلاص ، وأجمع للهم فليفعل .

وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) فقال « هى الصلاة بين العشاءين » .

وقال عليه السلام « عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار وتهذب آخره » .

ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ فى الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة ، والآيتين (وإلهكم إله واحد إلى آخر الآيتين) وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ،

وفى الثانية آية الكرسى ، وآمن الرسول ، وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ، ويقرأ فى الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ، ويصلى بعد ذلك ما شاء ، فإن أراد أن يقرأ شيئاً من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها ، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص والفاتحة .

ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما لحسن ، وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تالياً للقرآن حزبه أو مكرراً آية فيها الدعاء والتلاوة ، مثل أن يقرأ مكرراً (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أو آية أخرى فى معناها فيكون جامعاً بين التلاوة والصلاة والدعاء ، ففى ذلك جمع للهم ، وظفر بالفضل ، ثم يصلى قبل العشاء أربعاً وبعدها ركعتين ، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعاً أخرى .

وقد كان رسول الله ﷺ يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعاً ، ويقرأ فى هذه الأربع سورة لقمان ، ويس ، وحم الدخان ، وتبارك الملك ، وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى ، وآمن الرسول ، وأول سورة الحديد ، وآخر سورة الحشر ، ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة ، يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن ، من (والسماء والطارق) إلى آخر القرآن ثلثمائة آية ، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله . وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات . وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير .

وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات قل هو الله أحد إلى عشر مرات إلى أكثر .

ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واثقاً من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد ، فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل .

وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره ، ثم يتنفل ما شاء ، ويوتر فى آخر ذلك . وإذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعد الوتر ركعتين جالساً يقرأ فيهما بإذا زلزلت وألهاكم .

وقيل : فعل الركعتين قاعداً بمنزلة الركعة قائماً يشفع له الوتر ، حتى إذا

أراد التهجد يأتي به ويوتر في آخر تهجده . ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك . وكثيراً ما رأيت الناس يتفاوضون في كيفية نيتهما .

وإن قرأ في كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير ستاً ، فقد كان العلماء يقرأون هذه السور ويترقبون بركتها .

فإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ، ويصرف فكره إلى أمر الله ، قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله ، ويشغل اللسان بالذكر ، فالصادق كالطفل الكلف بالشيء إذا نام ينام على محبة الشيء ، وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلف به ، وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما همه ، فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر ، إن كان همه الله فهمه هو ، وإلا فهمه غير الله .

والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى ، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ، ويكون فاراً إلى ربه بباطنه خوفاً من ذكر الأغيار ، ومهما وفى الباطن بهذا المعيار ، فقد اتقى طريق الأنوار ، وطرق النفحات الإلهية ، فجدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصباباً ، ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا ، ويقول باللسان : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، ثم يقصد الماء الطهور . قال الله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وقال عز وجل (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الماء القرآن ، والأودية القلوب ، فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت . والماء مطهر والقرآن مطهر ، والقرآن بالتطهير أجدر ، فالماء يقوم غيره مقامه ، والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسده . فالماء الطهور يطهر الظاهر ، والعلم والقرآن يطهران الباطن ، ويذهبان رجز الشيطان .

فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من رجز الشيطان ، لما فيه من الغفلة عن الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من

التراب من وجه الأرض ، فكانت القبضة جلدة الأرض ، والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة . قال الله تعالى (إنى خالق بشراً من طين) فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته ، والأدمة عبارة عن باطنه وآدميته . والآدمية مجمع الأخلاق الحميدة . كان التراب موطىء أقدام إبليس ، ومن ذلك اكتسب ظلمة ، وصارت تلك الظلمة معجونة فى طينة الآدمى ، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة ، ومنها الغفلة والسهو ، فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعاً ، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل .

فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير فى تكدير القلب ، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار ، وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعياً جالباً للإثم ، والإثم رجز من الشيطان ، وللماء يذهب رجز الشيطان ، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب ، لظهور النفس وتصرف الشيطان فى هذه المواطن . ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام ، أو مساكنة إلى مخالطة الناس ، أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة ، كالخوض فيما لا يعنى قولاً وفعلاً ، عقب ذلك بتجديد الوضوء ، لثبت القلب على طهارته ونزاهته ، ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر ، وما يعلقها إلا العالمون .

فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره . ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم ، لكان أزيد فى تنوير قلبه ، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة ، باذلاً مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ، ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة ، وقد قال الله تعالى (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) قدم الإنابة للدخول فى الصلاة ، ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج ، وعوض بالوضوء

عن الغسل ، وجوّز أداء مفترضات بوضوء واحد ، دفعاً للحرج عن عامة الأمة ، والخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى ، وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى .

فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ويقول : سبحان الله ، والحمد لله ، الكلمات عشر مرات ، ويقول : الله أكبر ذو الملك والملكوت ، والجبروت والكبرياء ، والعظمة والجلال ، والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ، ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد عليه السلام حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، أسألك مسئلة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء الفقير الذليل ، فلا تجعلنى بدعائك رب شقياً ، وكن بى رءوفاً رحيما ، ياخير المسئولين ويا أكرم المعطين

ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة ، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية ، وفى الثانية (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد يقرأ فيهما بآية الكرسى ، وآمن الرسول ، وإن أراد غير ذلك ، ثم يصلى ركعتين طويلتين ، هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد هكذا ، ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين ، وهكذا يتدرج إلى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة ، أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك فضلا كثيراً والله أعلم .

الباب الثامن والأربعون

فى تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) كان عملهم قيام الليل .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (استعينوا بالصبر والصلاة) استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو . وفى الخبر « عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم ، وهو دأب الصالحين قبلكم ، ومنهاة عن الإثم ، وملفاة للوزر ، ومذهب كيد الشيطان ، ومطردة للداء عن الجسد » .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء ، منهم سعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، ووهيب بن الورد ، وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار ، وحبيب العجمى ، وكهمس بن المنهال وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر ، وأبو حنيفة رحمه الله ، وغيرهم ، عدهم وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكى فى كتابه قوت القلوب . فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه ، وأقل الاستحباب سدس الليل ، فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر ، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه وينام السدس .

روى أن داود عليه السلام قال يارب إنى أحب أن أتعبد لك ، فأى وقت أقوم ؟ فأوحى الله تعالى إليه ياداود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإنه من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره نام أوله ، ولكن قم وسط الليل ، حتى تخلو بى وأخلو بك ، وارفع إلىّ حوائجك . ويكون القيام بين نومتين وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل ، فإذا غلبه النوم ينام ، فإذا انتبه يتوضأ ، فيكون له قومتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ، ولا يصلى وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول .

وقد ورد : لا تكابدوا الليل .

وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصلى من الليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل ، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال « ليصلّ أحدكم من الليل ما تيسر ، فإذا غلبه النوم فلينم » .

وقال عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين ، فمن تشاد يغلبه » .

ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، ولا يليق بالطالب ولا ينبغى له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له فى الليل قيام طويل فيعذر فى ذلك، على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق فى الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر ، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة ، وكلما يصلى بالليل يجلس قليلاً بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ويصلى على رسول الله ﷺ فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام . وقد كان بعض الصالحين يقول : هى أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عينى .

وحكى لى بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكلة واحدة اليوم والليلة .

وقد جاء فى الخبر : قم من الليل ولو قدر حلب شاة . وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) هو قيام الليل . ومن حرم قيام الليل كسلا وفتوراً فى العزيمة أو تهاوناً به لقلة الاعتداد بذلك ، أو اغتراراً بحاله ، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير .

وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ، ويجد من دعة القرب ، ما يفتر عليه داعية الشوق ، ويرى أن القيام وقوف فى مقام الشوق ، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين . والذى له ذلك ينبغى أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر ، والإنسان معرض للقصور والتخلف والشبهة . ولا حالة أجلّ من حال رسول الله ﷺ ، وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه .

وقد يقول بعض من يحاج فى ذلك: إن رسول الله ﷺ فعل ذلك تشريعاً، فنقول : ما بالنا نتبع تشريعه وهـــذه دقيقة فتعلم أن رؤية الفضيلة فى ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب، واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حال ، وهو تقيد بالحال وتحكم للحال وتحكم من الحال فى العبد ، والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال ، ويصرفون الحال فى صور الأعمال ، فهم متصرفون فى الحال لا الحال متصرف فيهم ، فليعلم ذلك فإنا رأينا من الأصحاب من كان فى ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور .

قيل للحسن : يا أبا سعيد إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهورى فما بالى لا أقوم ؟ قال : ذنوبك قيدتك . فليحذر العبد فى نهاره ذنوباً تقيده فى ليله .

وقال الثورى رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته ، فقيل له : ما كان الذنب ؟ قال : رأيت رجلا بكاء فقلت فى نفسى هذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت : ما بالك أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد ، فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد ، فقلت : وما ذاك : ؟ قال : بابى مغلق ، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البـــارحة ، وماذاك إلا بذنب أحدثته .

وقال بعضهم : الاحتلام عقـوبة . وهـذا صحيح ، لأن المراعى للتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله يقـدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله ، ومن كمل تحفظه ورعايته ، وقيامه بأدب حاله ، قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام ، ووضع الرأس على الوسادة ، إذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة ، وقـد يتمهد النوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه ، وله فيه نية العون على القيام ، وقـد يكون ذلك ذنباً بالنسبة إلى بعض الناس . فإذا كان هـذا القـدر يصلح أن يكون ذنباً جالباً للاحتلام ، فقس على هـذا ذنوب الأحوال ، فإنها تختص بأربابها ، ويعرفها أصحابها . وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام إذا كان عالماً ذا نية يعرف

مداخل الأمور ومخارجها ، وكم من نائم يسبق القائم لوفر علمه وحسن نيته .

وفى الخبر : « إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد ، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، وإن توضأ انحلت أخرى ، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس » .

وفى خبر آخر « إن من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه » .

والذى يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بأمور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا ، وإتعاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث ، واللغو واللغط وإهمال القيلولة . والموفق من يغتنم وقته ، ويعرف داءه ودواءه ، ولا يهمل فيهمل .

الباب التاسع والأربعون

فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار) أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر ، واختلفوا فى الطرف الآخر . قال قوم : أراد به المغرب ، وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة الفجر والظهر طرف ، وصلاة العصر والمغرب طرف ، وزلفاً من الليل : صلاة العشاء .

ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها ، وقال (إن الحسنات يذهبن السيئات) أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات .

وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر ، فأتت امرأة تبتاع تمراً ، فقال لها إن هـذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم ، ثم أتى النبى عليه السلام وقال يارسول الله ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شىء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها ؟ قال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك . ولم يرد رسول الله ﷺ عليه شيئاً ، وقال : انتظر أمر ربى ، وحضرت صلاة العصر ، وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية ، فقال النبى عليه السلام : أين أبو اليسر ؟ فقال : ها أنا ذا يارسول الله ، قال « شهدت معنا هذه الصلاة » ؟ قال : نعم ، قال : « اذهب فإنها كفارة لما عملت » فقال عمر : يارسول الله هـذا له خاصة أو لنا عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » .

فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ، ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ، ثم يصلى ركعتى الفجر ، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة قل ياأيها الكافرون ، وفى الثانية قل هو الله أحد ، وإن أراد قرأ فى الأولى (قولوا آمنا بالله وما أنزل) الآية فى سورة البقرة ، وفى الأخرى (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا

الرسول) ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما تيسر له من العدد ، وإن اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبي سبحان الله بحمد ربي ، أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار .

ثم يقول : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي ، وترد بها الفتن عني ، وتصلح بها ديني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلقني بها رشدي ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إني أنزل بك حاجتي ، وإن قصر رأيي ، وضعف عملي ، وافتقرت إلى رحمتك ، وأسألك ياقاضي الأمور ، وياشافي الصدور ، كما تجير بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور ، اللهم ماقصر عنه رأيي ، وضعف فيه عملي ، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي ، من خير وعدته أحداً من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك ، فأنا راغب إليك فيه ، وأسألك إياه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهديين ، غير ضالين ولا مضلين ، حرباً لأعدائك وسلماً لأوليائك ، نحب بحبك الناس ، ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك ، اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، والموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ماتريد ، سبحان من تعطف بالعز وقال به ، سبحان من لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذي لاينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي الجود والكرم ، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه . اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بشري ، ونوراً

فى لحمى ، ونوراً فى دمى ، ونوراً فى عظامى ، ونوراً من بين يدىّ ونوراً من خلفى ، ونوراً عن يمينى ، ونوراً عن شمالى ، ونوراً من فوقى ، ونوراً من تحتى ، اللهم زدنى نوراً وأعطنى نوراً واجعل لى نوراً .

ولهذا الدعاء أثر كثير ، وما رأيت أحداً حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة ، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضاً بحفظه والمحافظة عليه منقول عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ، ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ، ويقول عند خروجه من منزله « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » . ويقول فى الطريق: « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا إليك ، لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله تعالى عليه بوجه الكريم حتى يقضى صلاته » .

وإذا دخل المسجد ، أو دخل سجادته للصلاة يقول : بسم الله ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، ويقدم رجله اليمنى فى الدخول ، واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجاد . فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد .

ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة ، فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . ويقرأ : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها ، فإذا فرغ منها يقول: اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك

النبي الأمى ، وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ، ولحقه أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته ، واجزه عنا ما هو أهله ، واجزه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم صل على محمد فى الأولين ، وصل على محمد فى الآخرين ، وصل على محمد إلى يوم الدين ، اللهم صل على روح محمد فى الأرواح ، وصل على جسد محمد فى الأجساد ، واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا دار السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام .

اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهناً بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسىء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى . اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك ، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى ، وزكها وضعفها ، وما عملت فيه من سيئة فاغفرلى إنك غفور رحيم ودود . رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً .

اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه ، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار ، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أو أزل ، أو أضل أو أضل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، وعظمت نعماؤك ، أعوذ بك من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحرص ، وشدة الطمع ، وسورة الغضب ، وسنة الغفلة ، وتعاطى الكلفة .

اللهم إنى أعوذ من مباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلين ، وأن أنصر ظالماً ، أو أخذل مظلوماً ، وأن أقول فى العلم بغير علم ، أو عمل فى الدين بغير

يقين . أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك ، وعلى عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً ، وآخره نجاحاً ، وأوسطه فلاحاً . اللهم اجعل أوله رحمة ، وأوسطه نعمة ، وآخره تكرمة . أصبحنا وأصبح الملك لله ، والعظمة والكبرياء لله ، والجبروت والسلطان لله ، والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار ، أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .

اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام ، أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ياحى ياقيوم ، ياحى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه ، ياحى محيى الموتى ، ياحى مميت الأحياء ، ووارث الأرض والسماء . اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم ، وباسمك الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم ، الذى إذا دعيت به أجبت ، وإذا سئلت به أعطيت ، يانور النور ، يامدبر الأمور ، ياعالم مافى الصدور ، ياسميع ياقريب ، يامجيب الدعاء ، يالطيفاً لما يشاء ، يارؤف يارحيم ، يا كبير ياعظيم ، ياألله يارحمن ، ياذا الجلال والإكرام . الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم . وعنت الوجوه للحى القيوم . يا إلهى وإله كل شىء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت .

اللهم إنى أسألك باسمك ياألله الله الله الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وسعت كل شىء رحمة وعلماً . كهيعص ، حم ، عسق ، الر ، حم ، ن ، ياواحد ياقهار ، ياعزيز ياجبار ، ياأحد ياصمد ،

ياودود ياغفور ، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

اللهم إنى أعوذ باسمك المكنون المخزون ، المنزل السلام الطهر الطاهر القدوس المقدس ، يادهر يادیهور ، ياديهار ، ياأبد ، ياأزال ، يامن لم يزل ولا يزال ولا يزول ، هو ياهو لا إله إلا هو ، يامن لا هو إلا هو ، يامن لا يعلم ماهو إلا هو ، ياكان يا كينان ، ياروح ياكائن قبل كل كون ، ياكائن بعد كل كون ، يامكونا لكل كون أهيا أشراهيا أدوناى أصبؤت يامجلى عظائم الأمور ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الدجال ، وعذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات . اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت ، وشر مالم أعلم ، وأعوذ بك من شر سمعى وبصرى ، ولسانى وقلبي . اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة ، والذل والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر ، والفسوق والشقاق ، والنفاق ، وسوء الأخلاق ، وضيق الأرزاق ، والسمعة والرياء ، وأعوذ بك من الصمم والبكم ، والجنون والجذام ، والبرص وسائر الأسقام .

اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، ومن تحويل عافيتك ، ومن فجأة نقمتك ، ومن جميع سخطك . اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله ، وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك ياأرحم الراحمين ياقيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة

عين ، وأصلح لى شأنى كله ، يانور السموات والأرض ، ياجمال السموات والأرض ، ياعماد السموات والأرض ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياصريخ المستصرخين ، ياغوث المستغيثين ، يامنتهى رغبة الراغبين ، والمفرج عن المكروبين ، والمروح عن المغمومين ، ومجيب دعوة المضطرين ، وكاشف السوء ، وأرحم الراحمين ، وإله العالمين ، منزول بك كل حاجة ياأرحم الراحمين .

اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، وأقلنى عثراتى ، اللهم احفظنى من بين يدىّ ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى، ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى .

اللهم إنى ضعيف فقوّ فى رضاك ضعفى ، وخذ إلى الخير بناصيتى ، واجعل الإسلام منتهى رضائى . اللهم إنى ضعيف فقونى ، اللهم إنى ذليل فأعزنى ، اللهم إنى فقير فاغننى برحمتك ياأرحم الراحمين .

اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى ، وتعلم مافى نفسى فاغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً ، حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى ، والرضا بما قسمت لى ، ياذا الجلال والإكرام .

اللهم ياهادى المضلين ، وياراحم المذنبين ، ومقيل عثرة العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم ، والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين ، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين آمين يارب العالمين .

اللهم عالم الخفيات ، رفيع الدرجات ، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذا الطول ، لا إله إلا هو ، أنت الوكيل وإليك المصير . يامن لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تشتبه عليه الأصوات ، ويامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ، ويامن لا يتبرم بإلحاح الملحين ، أذقنى برد عفوك ، وحلاوة رحمتك .

اللهم إنى أسألك قلباً سليما ، ولسانا صادقاً ، وعملا متقبلا ، أسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين الأبد ، ومرافقة نبيك محمد ، وأسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على خلقك ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى . أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من ضراء مضرة ، وفتنة مضلة .

اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما يدخلنى جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد ، وسرور رجاء الموعود ، حتى نجد لذة ما نطلب ، وخوف ما منه نهرب .

اللهم البس وجوهنا منك الحياء ، واملأ قلوبنا بك فرحاً ، واسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة ، وذلل جوارحنا لخدمتك ، واجعلك أحب إلينا مما سواك ، واجعلنا أخشى لك ممن سواك ، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ، ودوام العافية بدوام العصمة ، وداء الشكر بحسن العبادة .

اللهم إنى أسألك بركة الحياة ، وخير الحياة ، وأعوذ بك من شر الحياة ، وشر الوفاة ، وأسألك خير ما بينهما ، أحينى حياة السعداء ، حياة من تحب بقاءه ، وتوفنى وفاة الشهداء ، وفاة من تحب لقاءه ، ياخير الرازقين ، وأحسن التوابين ، وأحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، ورب العالمين .

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وارحم ما خلقت ، واغفر ما قدرت ، وطيب ما رزقت ، وتمم ما أنعمت ، وتقبل ما استعملت ، واحفظ ما استحفظت ، ولا تهتك ما سترت ، فإنه لا إله إلا أنت ، أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ، ومن كل راحة بغير خدمتك ، ومن كل سرور بغير قربك ، ومن كل فرح بغير مجالستك ، ومن كل شغل بغير معاملتك .

اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه . اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به . اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علىّ فقويت بها على معصيتك . اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك . اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد، وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه .

اللهم احفظنا فيما أمرتنا ، واحفظنا عما نهيتنا ، واحفظ لنا ما أعطيتنا ، ياحافظ الحافظين ، وياذا كر الذا كرين ، وياشا كر الشا كرين ، بذكرك ذكروا ، وبفضلك شكروا ، ياغياث يامغيث يامستغاث ، ياغياث المستغيثين لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلأنى كلاءة الوليد ، ولا تخل عنى ، وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين ، أنا عبدك وابن عبدك ، ناصيتى بيدك ، جار فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، نافذ فىّ مشيئتك، إن تعذب فأهل ذلك أنا ، وإن ترحم فأهل ذلك أنت ، فافعل اللهم يامولاى يالله يارب ما أنت له أهل ، ولا تفعل اللهم يارب يالله ما أنا له أهل ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، يامن لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، هب لى مالا يضرك ، وأعطنى مالا ينقصك ، ياربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين وألحقنى بالصالحين ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة ، والعصمة من المعصية ، وإفراغ الصبر فى الخدمة ، وإيذاع الشكر فى النعمة ، أسألك حسن الخاتمة ، وأسألك اليقين ، وحسن المعرفة بك ، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك ، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك ، وأسألك حسن المنقلب إليك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأصلح أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد فرجاً عاجلا .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم .

اللهم اغفر لى ولوالدىّ ولمن توالدا وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، يا أرحم الراحمين ، ياخير الغافرين .

ولما كان الدعاء مخ العبادة ، أحببنا أن نستوفى من ذلك قسما صالحاً نرجو بركته . وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتاب قوت القلوب ، وعلى نقله كل الاعتماد ، وفيه البركة ، فليدع بهذه الدعوات منفرداً أو فى الجماعة إماماً أو مأموماً ويختصر منها ما يشاء .

الباب الخمسون

فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة ، إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه ، لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شىء ، فإن السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب . وقد ندب رسول الله ﷺ إلى ذلك . ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون ، والآيتين وإلهكم إله واحد ، وآية الكرسى ، والآيتين بعدها ، وآمن الرسول ، والآية قبلها ، وشهد الله ، وقل اللهم مالك الملك ، وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض إلى المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقل ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من إن الذين آمنوا ، وذا النون إذ ذهب مغاضباً إلى خير الوارثين ، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد صدق الله ، وأول سورة الحديد إلى بذات الصدور ، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين ، وهكذا يحمد مثله ، ويكبر مثله ، ويتمها مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً أو من المصحف ، أو يشتغل بأنواع الأذكار ، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس ، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جداً ، فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائماً مستقبل القبلة ، وإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة ، يتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة ، ففى إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة ، وجدنا ذلك بحمد الله ، ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك فى حق من يجمع فى الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر .

وهذا الوقت أول النهار ، والنهار مظنة الآفات ، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه ، وتبتنى أوقات النهار جميعاً على هذا البناء ، فإذا قارب طلوع الشمس يبتدىء بقراءة المسبعات العشر ، وهى من تعليم الخضر عليه

السلام ، علمها إبراهيم التيمى ، وذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ ، وينال بالمداومة عليها جميع للمتفرق فى الأذكار والدعوات وهى عشرة أشياء ، سبعة سبعة الفاتحة ، وللمعوذتان ، وقل هو الله أحد ، وقل ياأيها الكافرون ، وآية الكرسى ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبي وآله ، ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، ويقول سبعاً اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم ، جواد كريم ، رءوف رحيم .

وروى أن إبراهيم التيمى لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى فى المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم ، وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة .

فإذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب » .

ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه ، فقد نقل عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى الركعتين،وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت. وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه أثراً ونوراً وروحاً وأنساً إذا كان صادقاً ، والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا . وأحب أن يقرأ فى هاتين الركعتين فى الأولى آية الكرسى وفى الأخرى آمن الرسول ، والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية ، وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته .

ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ للمعوذتين فيهما فى كل ركعة سورة ، وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ بأسمك وكلمتك التامة من شر

السامة والهامة ، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك ، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار ، إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأوليين : اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبحت مرتهناً بعملى، وأصبح أمرى بيد غيرى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسىء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا مبلغ علمى ، ولا تسلط علىّ من لا يرحمنى . اللهم إنى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم .

ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته ، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق، وإلا فالاستخارة التى وردت بها الأخبار هى التى يصليها أمام كل أمر يريده ، ويقرأ فى هاتين الركعتين قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره فى غير هذا الباب ، ويقول فيه كل قول وعمل أريده فى هذا اليوم اجعل فيه الخيرة .

ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ فى الأولى سورة الواقعة ، وفى الأخرى سورة الأعلى، ويقول بعدها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الأشياء إلىّ ، وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عينى بعبادتك ، واجعل طاعتك فى كل شىء منى يا أرحم الراحمين .

ثم يصلى بعد ذلك ركعتين ، يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن .

ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل فى الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى ، وإن كان ممن له فى الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل ، وهكذا ينبغى أن يفعل أبداً ، لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ، ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين

ليقيه الله سوء المدخل ، بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها ، وإن لم يكن فى البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين .

وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله فى هذا الوقت إلى الصلاة صلاة الضحى ، فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر ، وإلا يصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن ، فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة ، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ، وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) وأمثال هذه الآية يقرأ فى كل ركعة آية منها ، إما مرة أو يكررها مهما شاء .

ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ، وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة . ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى.

قال سهل بن عبد الله التسترى : لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس ، وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصلى الضحى ، فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله ﷺ « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس ، وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس . وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر .

ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه ، وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً ، وقلباً وقالباً ، وإلا فباطناً . وترتيب ذلك أنه يصلى مادام منشرحاً ونفسه مجيبة ، فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة ، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من

الصلاة . فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان ، فهو أخف من القراءة . فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة ، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه ، فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب ، والمراقبة عين الذكر وأفضله ، فإن عجز عن ذلك أيضاً وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم ففى النوم السلامة ، وإلا فكثرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام ، لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك .

قال سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصى حديث النفس .

والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره ، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه ، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية ، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر .

ويمكن للطالب المجد أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى ، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة ، أو يقرأ فى كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر ، والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن .

قال سفيان : كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة .

وهذا النوم فيه فوائد ، منها أنه يعين على قيام الليل .

ومنها أن النفس تستريح ويصفو النهار لبقية النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحت عادت جديدة . فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان فى أول النهار ، فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما بخدمة الله تعالى والدؤوب فى العمل .

وينبغى أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء ، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكراً أو مسبحاً أو تالياً . قال الله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) قيل : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر (ومن آناء الليل فسبح)

أراد العشاء الأخيرة (وأطراف النهار) أراد الظهر والمغرب، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار ، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب ، فصار الظهر آخر الطرف الأول ، والمغرب آخر الطرف الآخر، فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول، وقد عاد بنوم النهار جديداً كما كان بنوم الليل .

ويصلى فى أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله ﷺ ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى أول أوقاتها، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء ، فيشرع فى صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستمد لصلاة الظهر ، فإن وجد فى باطنه كدراً من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ، ولا يشرع فى صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائداً إلى حالة من الصفاء . والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة، ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح ، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر ، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ، ولكن حسنات الأبرار سيئات للمقربين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ، ودواء مايحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولدان أن يكون فى مجالسته غير راكن إليهم كل الركون ، بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى ، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة إلا أن يكون قوى الحال لايحجبه الخلق عن الحق ، فلا ينعقد على باطنه عقدة ، فهو كما يدخل فى الصلاة لايجدها ويجد باطنه وقلبه، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغمراً بروح قلبه، لأنه يجالس ويخالط، وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق ، وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية ، فلاينعقد على باطنه عقدة .

وصلاة الزوال التى ذكرناها تحل العقد ، وتهيىء الباطن لصلاة الظهر ،

فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة فى النهـــار الطويل ، وفى القصير مايتيسر من ذلك . قال الله تعالى (وعشياً وحين تظهرون) وهـــذا هو الإظهار ، فإن انتظر بعـد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن ، وكذلك ماورد أن رسول الله ﷺ دعا به إلى صلاة الفجر .

ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الـكرسى ، ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثاً وثلاثين كما وصفنا ، ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعـد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضاً كان ذلك خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً . ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستـكثر شيئاً لله تعالى .

ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشاءين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة . ومن دام سهره ينام نومـة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر ، ولو أحبـه بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير . وإن أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة فى كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إذا كان صائماً ، وإن لم يكن صائماً فأى وقت تغير فيـه الفم . وفى الحديث « السواك مطهرة للفم مرضـــاة للرب » وعند القيام إلى الفرائض يستحب .

قيل : إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً .

وقيل : هو خبر ، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ فى الركعة الأولى (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ، ثم فى الثانية (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الـكافرين) ، ثم (ربنا لا تؤاخذنا) إلى آخر السورة ، ثم (ربنا لا تزغ قلوبنا) الآية ، ثم (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان) الآية ، ثم (ربنا آمنا بما أنزلت) ، ثم (أنت ولينا فاغفر لنا) ، ثم (فاطر السموات والأرض أنت وليى) ، ثم (ربنا إنك تعلم

ماتخفى وما نعلن) الآية ، ثم (وقل رب زدنى علماً) ، ثم (لاإله إلا أنت سبحانك) ، ثم (رب لاتذرنى فرداً) ، ثم (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ، ثم (ربنا هب لنا من أزواجنا) ، ثم (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ، ثم (يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور) ، ثم (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ) الآية من سورة الأحقاف ، ثم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين) الآية ، ثم (ربنا عليك توكلنا) ، ثم (رب اغفرلى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين وللمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً) مهما يصلّ فليقرأ بهذه الآيات .

وبالمحافظة على هذه الآيات فى الصلاة مواطئاً للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان . ولو ردد فرد آية من هذه فى ركعتين من الظهر أو العصر كان فى جميع الوقت مناجياً لمولاه وداعياً وتالياً ومصلياً .

والدؤب فى العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى، والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا، وانتزع منه متابعة الهوى . ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لايدوم روحه فى العمل، بل ينشط وقتاً ويسأم وقتاً ، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شىء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا . وإذا صح فى الزهد والتقوى فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب ، فمن رام دوام الروح واستحلاء الدؤب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى ، والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعته . والنبى عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته ، فقال «أعوذ بك من هوى متبع» ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس، ولكن استعاذ من طاعته فقال « وشح من طاع » .

ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال ، فقد يكون متبعاً للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم ، وقد

يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى للتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا .

ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات ، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ، ولو اغتسل كان أفضل ، فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة .

ويقرأ فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والعاديات والقارعة وألهاكم ، ويصلى العصر ، ويجعل من قراءته فى بعض الأيام والسماء ذات البروج ، وصحت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل ، ويقرأ بعد العصر ماذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك ، فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة ، وبقى وقت الأذكار والتلاوة ، وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المريدين ، فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار ، وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل فى أنواع الأذكار ، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه فى أول النهار ، ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء ، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون .

ويقول كلما خرج من منزله بسم الله حسبى الله لاقوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ، ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة ، فإن القليل بحسن النية كثير .

وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير .

وجاء فى الخبر : كل امرىء يوم القيامة تحت ظل صدقته .

ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب ، وكتبت

له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، فقد ورد أن من قال فى يومه مائة مرة : لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل فى يومه أفضل مما عمله .

ويقول مائة مرة : سبحان الله والحمد لله ، الكلمات . ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله . ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ، ومائة مرة ماشاء الله لاقوة إلا بالله .

ورأيت بعض الفقهاء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة .

ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفاً بين اليوم والليلة . وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح : سبحان الله العلى الديان ، سبحان الله شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار ، سبحان من لا يشغله شان عن شان ، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطىء البحر فسمع فى هذه الليلة هذا التسبيح فقال من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت ، فقلت : ما اسمك ؟ فقال : مهليهيائيل ، فقلت : ماثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له .

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) فقال : سألتنى عن شىء عظيم ماسألنى غيرك ، هو لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولاحول ولا قوة إلا بالله

عز وجل ، وأستغفر الله الأول والآخر الظاهر الباطن ، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، من قالها عشراً حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال ، فأول خصلة أن يحرس من إبليس وجنوده ، الثانية أن يعطى قنطاراً من الأجر ، الثالثة يرفع له درجة فى الجنة ، الرابعة يزوجه الله من الحور العين ، الخامسة اثنا عشر ملكاً يستغفرون له ، السادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر.

ويقول أيضاً فى هذا الوقت وفى أول النهار : اللهم أنت خلقتنى ، وأنت هديتنى ، وأنت تطعمنى ، وأنت تسقينى ، وأنت تميتنى ، وأنت تحيينى ، أنت ربى لا رب لى سواك ، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ويقول ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ما شاء الله كل نعمة من الله ، ماشاء الله الخير كله بيد الله ، ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، ويقول حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة، ويقرأ المسبعات قبل الغروب، ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو فى التسبيح والاستغفار.

ويقرأ عند الغروب أيضاً والشمس والليل والمعوذتين ، ويستقبل الليل كما استقبل النهار . قال الله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر ، يعقب أحدهما الآخر ، ولا يتخللهما شيء ، كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء . والذكر جميعه أعمال القلب ، والشكر أعمال الجوارح . قال الله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) والله الموفق والمعين .

الباب الحادى والخمسون

فى آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب ، وللقوم فى ذلك اقتداء برسول الله ﷺ وأصحابه . وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

روى عن عبد الله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله ﷺ من بنى تميم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) الآية.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا تقدموا لا تتكلموا بين يدى كلامه .

وقال جابر: كان ناس يضحون قبل رسول الله ، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله ﷺ .

وقيل : كان قوم يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا ، فكره الله ذلك .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم .

وقال الكلبى : لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذى يأمركم به .

وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار ، لا يتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة .

وقيل : لاتقدموا ولاتمشوا بين يدى رسول الله ﷺ .

وروى أبو الدرداء قال : كنت أمشى أمام أبى بكر ، فقال لى رسول الله ﷺ تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟

وقيل : نزلت فى أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا

سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى ، فنهوا عن ذلك .

وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت ، ولايقول شيئاً بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له فى ذلك .

وشأن المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقاً يساق إليه ، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله ، وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب ، والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ ، على أن الصادق لايحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد ، لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق ، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم ، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه ، لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله ، والقول كالبذر يقع فى الأرض ، فإذا كان البذر فاسداً لا ينبت ، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها . فالشيخ ينقى بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه إلى الله ، ويسأل الله المعونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق .

فالشيخ للمريدين أمين الإلهام كما أن جبريل أمين الوحى ، فكما لايخون جبريل فى الوحى لايخون الشيخ فى الإلهام، وكما أن رسول الله ﷺ لاينطق عن الهوى ، فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً ، لا يتكلم بهوى النفس . وهوى النفس فى القول بشيئين : أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه ، وما هذا من شأن الشيوخ ، والثانى ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب ، وذلك خيانة عند المحققين . والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس ، تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك ، فاقد الحظ من

فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب ، فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعاً كأحد المستمعين .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه، وكان يقول أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم ، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال : إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه ، فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام كأن قائلا يقول له : أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر ويجمع الصدف فى مخلاته والدر قد حصل معه ، لكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل . ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك .

فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولا وفعلا .

وقيل أيضاً فى قوله تعالى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) لا تطلبوا منزلة وراء منزلته . وهذا من محاسن الآداب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ، ويتمنى للشيخ عزيز المنيح وغرائب المواهب، وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة ، وهذا يعز فى المريدين ، فإرادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه ، ويكون قائماً بآداب الإرادة .

قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل .

وقال أبو عبد الله بن حنيف : قال لى رويم : يابنى اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً .

وقيل : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول .

ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .

كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ،

فكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل قال حدثنا نافع بن عمر بن جميـــل الجمحى قال حدثنى حابس بن أبى مليكة قال حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبى ﷺ ، فقال أبو بكر استعمله على قومه ، فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبى ﷺ حتى علت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى، وقال عمر ما أردت خلافك ، فأنزل الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبى ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم .

وقيل: لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبى إلا كأخ السرار فهكذا ينبغى أن يكون للمريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ ، فرفع الصوت تنحية جلبات القلب الوقار ، والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول .

وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ . وقد كنت أحم فيدخل علىّ عمى وشيخى أبو النجيب السهروردى رحمه الله فيترشح جسدى عرقاً ، وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى، فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علىّ ، ويكون فى قدومه بركة وشفاء .

وكنت ذات يوم فى البيت خالياً ، وهناك منديل وهبه لى الشيخ وكان يتعمم به ، فوقع قدمى على المنديل اتفاقاً ، فتألم باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ ، وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن عطاء فى قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة .

وقال سهل فى ذلك : لا تخاطبوه إلا مستفهمين .

وقال أبو بكر بن طاهر : لا تبدأوه الخطاب ، ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة ، (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، أى لا تغلظوا له فى الخطاب ، ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضاً ، ولكن فخموه واحترموه ، وقولوا له يا نبى الله ، يا رسول الله .

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب .

ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج ، وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة ، وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها ، فإذا امتلأ القلب حرمة ووقاراً يعلم اللسان العبارة .

وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى ، فمر به عاصم بن عدى فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فىّ (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وأنا رفيع الصوت على النبى ﷺ أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار ، فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء ، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسدى علىّ الضبة بمسمار ، فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله ﷺ ، فلما أتى عاصم النبى وأخبره بخبره ، فقال اذهب فادعه ، فجاء عاصم إلى المكان الذى رآه فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرس ، فقال له إن رسول الله يدعوك ، فقال اكسر الضبة ، فأتيا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فىّ ، فقال له رسول الله : أما ترضى أن تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبداً على رسول الله ، فأنزل الله تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) .

قال أنس : كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا ، فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت

طائفة منهم ، فقال أف لهؤلاء وما يصنعون ، ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا ، ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليه درع ، فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام ، فقال له اعلم أن فلاناً رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيه وقد وضع على درعى برمة ، فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى ، وأت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له إن علىّ ديناً حتى يقضى عنى ، وفلان من عبيدى عتيق ، فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضى الله عنهما : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه . فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ ، واعتمده مع رسول الله ﷺ .

فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال : (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه ، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذيب اللفظ لتأدب القلب ، فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ .

قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر ، وفى مجالسة السادات من الأولياء ، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى ، والخير فى الأولى والعقبى ، ألا ترى إلى قول الله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) .

ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فنادوا يا محمد أخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين ، قال فسمع رسول الله ﷺ فخرج إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى ذمه شين

ومدحه زين ، فى قصة طويلة ، وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم ، فغلبهم حسان ابن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة .

وفى هذا تأدب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه ، وتركه الاستعجال ، وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته ، وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه ، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير ، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ ، فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية ، فتكتفى معه بموافقة القلوب وتقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر . وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر ، فمتى لم يعرف حقه . . الظاهر استوحش ، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

قيل لأبى منصور المغربى : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال : خدمته لا صحبته ، فالصحبة مع الإخوان والأقران ، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسرها رجع موسى عن إنكاره . فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ ، فللشيخ فى كل شىء عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد ، فأجابه الجنيد ، فعارضه فى ذلك ، فقال الجنيد : (فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) .

وقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لأستاذه لا ، لا يفلح أبداً .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى

قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « اتركونى ما تركتكم ، وإذا حدثتكم فخذوا منى ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجنيد رحمه الله : رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنساناً كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا ؟ فقيل لى : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له ، واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ، ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة.

وقال أبو يزيد البسطامى : صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفاً .

وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى ، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهرى إليه ، فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه ، واعتقدت أن أحفر لنفسى بئراً على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذنه ، فلما رأى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن آدابهم الظاهرة أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فإن للمريد من شأنه التبتل للخدمة ، وفى السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز .

ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز . وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقيده ، واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب أن لا يكتم عن الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده، وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ عن حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضاً فإن المريد متى انطوى ضميره على شىء لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً ، يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول .

ومن الأدب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ، ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته ، ولا ينفذ القول فيه ، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته . والمحبة والتألف هو الواسطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لأن المحبة علامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية ، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا أنس بن أسلم قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ قال : « من علم عبداً آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه ، فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام » .

ومن الأدب أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الأمور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات ، وكان معه شيخ اسمه حسن ، وقد صحبه سبعين سنة ، فكان إذا جرى من أحدنا خطأ ، وتغير عليه حال الشيخ ، نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان .

ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ ، فإن الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر ، فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له ، وما كان من عند الله لا يختلف ، وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتسب المريد علماً بصحة الوقائع والكشوف ، فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون إرادة فى النفس ، فيتشبك كون الإرادة بالواقعة ، مناماً كان ذلك أو يقظة ، ولهذا سر عجيب ، ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس ، وإذا ذكره

للشيخ فما فى المريد من كون إرادة النفس مفقود فى حق الشيخ ، فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ، وإن كان ينزع واقعته إلى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ، ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق ، وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من أمر دينه أو أمر دنياه لايستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه ، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ، ولسماع كلامه وقوله متفرغ ، فكما أن للدعاء أوقاتاً وآداباً وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى ، فالقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب. وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ فى مخاطبته فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) يعنى أمام مناجاتكم .

قال عبد الله بن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسألة ، فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك ، وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة .

وقيل : كان الأغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم ، فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته . فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئاً ، وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، ونزلت الرخصة ، وقال تعالى (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) .

وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب فقدم ديناراً فتصدق به . وقال على : فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى .

وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية دعا علياً وقال ما ترى فى الصدقة

كم تـكون ؟ ديناراً ؟ قال على : لا يطيقونه ، قال : كم ؟ قال على : تـكون حبة أو شعيرة ، فقال رسول الله ﷺ إنك لزهيـــد ، ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية . وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام ما نسخ والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمـد قال حدثنا مطلب بن شعيب قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » .

فاحترام العلماء توفيق وهداية ، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

الباب الثانى والخمسون

فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة

أهم الآداب أن لايتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولايتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام ، محبة للاستتباع ، فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه للريدين وللمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى ، والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة ، وفى الخمول السلامة . فإذا بلغ الكتاب أجله ، وتمكن العبد من حاله ، وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإرشاد والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح للشفق الوالد لولده عما ينفعه فى دينه ودنياه . وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه ، ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه ، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستمين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول : لاتكلم أحداً من الفقراء إلا فى أصفى أوقاتك ، وهذه وصية نافعة ، لأن الكلمة تقع فى سمع المريد الصادق كالحبة تقع فى الأرض ، وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع ، وفساد حبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تكدر بحراً من العلم .

فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان ، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد ، فيكون ناظراً إلى الله ، مصغياً إليه ، متلقياً مايرد عليه ، مؤدياً للأمانة فيه .

ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرس فيه بنور الإيمان ، وقوة العلم والمعرفة مايتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده . فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب

والمعاملات السنيــة ، ولكل من الأبرار والمقربين مباد ونهايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن ، يعرف كل شخص ومايصلح له .

والعجب أن الصحراوى يعلم الأراضى والغروس ، ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنهـا وما يأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعـلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ، فمنهم من كان يأمره بالانفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالـكسب ، ومنهم من قرره على ترك الـكسب كأصحاب الصفة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لـكل واحد ، فأما فى رتبــة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة ، لأنه مبعوث لإثبات الحجــة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق ، ولايخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ، ووقت خاص ، لايسعه فيــه معاناة الخلق ، حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولاتدعى نفسه قوة ظناً منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والـكلام معهم لايضره ولا يأخذ منه ، وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله صلى الله عليــه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويداوم عليها ، وأوقات يخلو فيها . فطبع البشر لايستغنى عن السياسة ، قل ذلك أو كثر ، لطف ذلك أو كثف .

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب ، اتخذ ذلك رأس ماله ، واغتر بطيبة قلبه ، واسترسل فى للممازجة والمخالطة ، وجعـل نفسه مناخاً للبطالين بلقمة تؤكل عنده ، وبرفق يوجد منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ، ولا بغيته سلوك طريق للمتقين ، فافتتن وأفتن ، وبقى فى حطة القصور ، ووقع فى دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى ، والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه ، فيكون له فى كل كلمة إلى الله رجوع ، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين القوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس ، واغترارهم بيسير من الموهبة ، وقلة تأدبهم بالشيوخ .

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو ، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيداً لخلوته ، وفى هذا سر ، وذلك أن الآدمى ذو تركيب مختلف ، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه متردداً بين السفلى والعلوى ، ولما فيه من التغاير ، له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عاقل فترة ، والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل ، وتارة فى عدم الروح فى العمل ، وإن لم تكن فى صورة العمل ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع واسترواح للنفس ، وركون إلى البطالة . فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق ، فأفلح الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين ، فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله ، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ، ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة ، أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار ، قادمة بحدة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال : كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوساً ، فدخل الزقاق ، فقام عند أسطوانة يركع ، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه ، فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا ، فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ ، فقال : ما عذب الله قلبى بهذا قط ، يعنى ما تقيدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم .

قال بعضهم : إذا رأيت الفقير القه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه .

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم ، فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ التعطف على الأصحاب ، وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ، ولا يترك حقوقهم اعتماداً على آرائهم وصدقهم .

قال بعضهم : لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لايتعنى ، ثم أتيت منزلى ، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفى ، فقلت ياسيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا ، فقال لى : يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفاً فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة ، ففى ذلك خير كثير ، ومادام العبد لايتخطى حريم الرخصة فهو حر ، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتدرب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى : كان شاب يعرف بإبراهيم الصائغ ، وكان لأبيه نعمة ، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى ، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم ، فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ، لأنه جاء لله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى ، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات .

وقد ورد : ماتصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه فى الناس .

وقد قال الله تعالى تنبيهاً على خلوص ما لله وحراسته من الشوائب (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

فلا ينبغي للشيخ أن يطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه ، أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد ، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ .

قال الله تعالى (يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) معنى يحفكم أي يجهدكم ويلح عليكم .

قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضغان . وهذا تأديب من الله الكريم ، والأدب أدب الله .

قال جعفر الخلدي : جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر ، فقال له الجنيد : لا تخرج من مالك كله احبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل ، وتقوّت بما حبست ، واجتهد في طلب الحلال ، لا تخرج كل ماعندك ، فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملا تثبت .

وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يكسبه من الحال مالا يتطلع به إلى المال ، فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال كما فسح رسول الله ﷺ لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروهاً ، أو علم من حاله اعوجاجاً ، أوأحس منه بدعوى ، أورأى أنه داخله عجب ، أن لا يصرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجملا ، فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المداراة وأكثرأثراً لتألف القلوب . وإذا رأى من المريد تقصيراً فيخدمة ندبه إليها ، تحمل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ فيما أخبرنا ضياء الدين عبدالوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد

الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا قتيبة قال حدثنا رشدين بن سعد عن أبي هلال الخولاني عن ابن عباس بن جليد الحجري عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يارسول الله كم أعفو عن الخادم ؟ قال : كل يوم سبعين مرة .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر وندب ، وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح ، فسر المريد لايتعدى ربه وشيخه ، ثم يحقر الشيخ في نفس المريد مايجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب ، أو شيء من خوارق العادات ، ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ، ومن ورائها نعم لاتحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلب المنعم لا النعمة ، حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه ، ولا يذيع سره ، فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال . وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين آخذة ومعطية ، وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها ، ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ماعندها ما ظهرت الأسرار . فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها ، فيجل حال الشيوخ من إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بثه ، ففي ذلك صحته وسلامته ، وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين في موردهم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون

فى حقيقة الصحبة ومافيها من الخير والشر

للمقتضى للصحبة وجود الجنسية ، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف ، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف . فالدعاء بأعم الأوصاف كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض ، والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ، ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض ، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض .

فإذا علم هذا الأصل ، وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص ، وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته ، ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع، فإن رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال ، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال . وإن رأى أفعاله غير مسددة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام ، فقد لاح له مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد ، فإنهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجاً .

ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال ، وحكم لنفسه بحسن الحال ، طالع ذلك فى مرآة أخيه ، فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلته ، وللميل بطريقه واقع وله بحسبه أحكام ، وللنفس بسببه سكون وركون ، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص، ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية ، وتلذذات جبلية ، لايفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون .

وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره ، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية ، حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله ، فاكتسب من طريقهم الفتور

فى الطلب عن بلوغ الأرب . فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة، ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام ، ويذر منها مايسد فى وجهه المرام .

قال بعضهم : هل رأيت شراً قط إلا ممن تعرف .

ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ، ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص .

وحكى عنه أنه قيل له : جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه ؟ قال : لأن ألقى سبعاً ضارياً أحب إلىّ من أن ألقى إبراهيم بن أدهم، قال: لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى ، وأظهر نفسى بإظهار أحسن أحوالها ، وفى ذلك الفتنة . وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها ، وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمه الله تعالى .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى قال أنا محمد ابن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا سليمان بن الأشعث قال حدثنا عبد الله ابن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » .

قال الله تعالى إخباراً عن خليله إبراهيم (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى) استظهر بالعزلة على قومه .

قيل : العزلة نوعان : فريضة وفضيلة ، فالفريضة العزلة عن الشر وأهله ، والفضيلة عزلة الفضول وأهله . ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة ، فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه ، وما يشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلطة .

وقيل : السلامة عشرة أجزاء ، تسعة فى الصمت ، وواحدة فى العزلة .

وقيل : الخلوة أصل والخلطة عارض ، فليلزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة ، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة ، وإذا خالط يلازم الصمت ، فإنه أصل والكلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم .

والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة ، والكتب بها مشحونة ، وأجمع الأخبار فى ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان قال حدثنا أحمد بن سلمان النجاد ، قال حدثنا محمد بن يونس الكريمى ، ، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمى ، قال حدثنا مسلم ابن سالم ، قال حدثنا السرى بن يحيى ، عن الحسن ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لتأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ، ومن جحر إلى جحر ، كالثعلب الذى يروغ . قالوا ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة . قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزوج ؟ قال : إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته . قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة » .

وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله ، ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخواناً ، فقال سبحانه وتعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

وقال تعالى (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد بن المسيب ، وعبد الله ابن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض .

قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ، ويتصلب الباطن برزين العلم ، ويتمكن الصدق بطريق هبوب الآفات ، ثم التخلص منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون ، وتتقوى جنود القلب ، وتستروح الأرواح بالتشام ، وتتفق فى التوجه إلى الرفيق الأعلى ، ويصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام ، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام .

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ « المؤمن كثير بأخيه » .

وقال الله تعالى مخبراً عمن لا صديق له (فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم) والحميم فى الأصل الهميم إلا أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما ، إذ هما من حروف الحلق ، والهميم مأخوذ من الاهتمام ، أى يهتم بأمر أخيه ، فالاهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك .

وقد قال القائل :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : ياداود مالى أراك منتبذاً وحدك ؟ قال : إلهى قليت الخلق من أجلك ، فأوحى الله إليه ياداود كن يقظاناً ، مرتاداً لنفسك إخواناً ، وكل خدن لا يوافق على مسرتى فلا تصحبه ، فإنه عدو يقسى قلبك ، ويباعدك منى .

وقد ورد فى الخبر : إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون ، فالمؤمن آلف مألوف . وفى هذا دقيقة ، وهى أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف ، فلا يكون آلفاً مألوفاً ، فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلى وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقيناً ، وأرزن عقلا ، وأتم أهلية واستعداداً ، وكان أوفر الناس حظاً من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء ، وأتم الجميع فى هذا نبينا صلوات الله عليه ،

وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعاً ، ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعاً وقال : « تناكحوا تكثروا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ فقال (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء ، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة فى أول أمره ، وكان يخلو فى غار حراء ، ويتحنث الليالى ذوات العدد .

وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفاً مألوفاً ، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف ، فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة ، وهذا خطأ ، وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أول الباب أن فى الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الأعم ، فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم ، لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح ، فإذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلى الأولى ، وأعادها الله تعالى إلى الخلق وخالطتهم مصفاة ، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح ، وظهرت صفة الجبلة من الألفة للكمل آلفة مألوفة ، فصارت العزلة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف .

ومن أدل الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة ، فصارت العزلة مرغوباً فيها فى وقتها ، والصحبة مرغوباً فيها فى وقتها .

قال محمد بن الحنفية رحمه الله : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله له منه فرجاً .

وكان بشر بن الحارث يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه .

فالأنيس يهيئه الله للصادقين رفقاً من الله تعالى وثواباً للعبد معجلا .

والأنيس قد يكون مفيداً كالمشايخ ، وقد يكون مستفيداً كالمريدين . فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس ، فإن كان قاصراً يؤنسه الله بمن يتمم حاله به ، وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين ، وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم ، بل هو بالله ومن الله وفى الله .

روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء ، فى رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا ، فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل ، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر ، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل » .

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال له أبشر ثم أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فقيل من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون فى الله عز وجل » .

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال «يقول الله عز وجل : حقت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتباذلين فىّ ، والمتصادقين فىّ » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال أنا أحمد بن الحسين ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملى قال أنا أبو القاسم عمر ابن جعفر بن محمد بن سلام قال أنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : إصلاح ذات البين ، وإياكم والبغضة فإنها هى الحالقة » .

وبإسناد إبراهيم الحربى عن عبيد الله بن عمر عن أبى أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران بن رباح قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت أبا هريرة يقول الخبر ، وفى الخبر تحذير عن البغضة ، وهو أن يجفو المختلى الناس مقتاً لهم وسوء ظن بهم ، وهذا خطأ ، وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما فى نفسه من الآفات وحذراً على نفسه من نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره . فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد . والإشارة بالحالقة يعنى أن البغضة حالقة للدين ، لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت .

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح بإسناده إلى إبراهيم الحربى ، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال : إن لله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ألف بين قلوب عبادك الصالحين .

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ فى وقته العزيز بقاب قوسين ، فى وقت لا يسعه فيه شىء ، للطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز ، وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين ، وصحبتهم لازمة ، وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك .

أخبرنا رضى الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعاً ، قال أنا أبو المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى ، قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله بن المعلم يقول : سمعت أبا بكر التلمسانى يقول : اصحبوا مع الله ، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة ، قال أنا عمر بن أحمد

الصفار النيسابوری إجازة ، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف ، قال أنا أبو عبد الرحمن السلمی ، قال : سمعت أبا نصر الأصفهانی يقول : سمعت أبا جعفر الحداد يقول : سمعت علی بن سهل يقول : الأنس بالله تعالی أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله ، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وقد نبه القائل نظماً علی حقيقة جامعة لمعانی الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحدة الإنسان خير　　من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير　　من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون

فى أدب حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى

قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) .

وقال تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة) .

وقال فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ (أشداء على الكفار رحماء بينهم).

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة ، فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ، ويسأل البركة فى الصحبة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة ، وإما باباً من أبواب النار ، فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيراً فهو باب من أبواب الجنة .

قال الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) .

وقيل : إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله ، فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك ، فيقول إنى كنت أعمل لى وله ، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته .

وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شراً فهو باب من أبواب النار .

قال الله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا) وإن كانت الآية وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله ، واختيار الصحبة والأخوة اتفاقاً من غير نيـــة فى ذلك ، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار .

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس .

فالفساد بالصحبة متوقع ، والصلاح متوقع، وما هذا سبيله كيف لا يحذر

فى أوله ، ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى ، وصدق الاختيار ، وسؤال البركة والخيرة فى ذلك ، وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل « سبعة يظلهم الله تعالى » فنهم اثنان تحابا فى الله ، فماشا على ذلك ، وماتا عليه ، إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة ، حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة. ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فما فسد العمل من الأول .

قيل : ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه ، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما .

وكان الفضيل يقول : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة .

والأخوة فى الله تعالى مواجهة ، قال الله تعالى (إخواناً على سرر متقابلين) ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءاً أو كره منه شيئاً ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه ، فما واجهه بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله : ما تواخى اثنان فى الله واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة فى أحدهما .

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال ، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه ، وكل ما صفا دام ، والأصل فى دوام صفائه عدم المخالفة .

قال رسول الله ﷺ « لا تمار أخاك ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » .

قال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال أنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف ، قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى ، قال سمعت عبد الله الدارانى قال سمعت أبا عمرو الدمشقى الرازى يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل: على أى شرط أصحب الخلق؟ فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم ، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم

وبهذا الإسناد قال أبو عبدالله : لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة ، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير .

قيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكرهه ، فكان يقال له استخباراً عن حالها ، فيقول: لا ينبغي للرجل أن يقول فى أهله إلا خيراً ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بعدت عنى وليست منى فى شىء كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما مايوجب التقاطع فهل يبغضه أو لا ؟ اختلف القول فى ذلك .

كان أبو ذر يقول : إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته .

وقال غيره : لا يبغض الأخ بعد الصحبة ، ولكن يبغض عمله . قال الله تعالى لنبيه ﷺ (فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) ولم يقل إنى برىء منكم .

وقيل : كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء ، وكان أبو الدرداء يميزه على غيره ، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر ، وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه ، فقيل له: لو أبعدته وهجرته ؟ فقال: سبحان الله ، لا يترك الصاحب بشىء كان منه .

قيل : الصداقة لحمة كلحمة النسب .

وقيل لحكيم مرة : أيما أحب إليك ؟ أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقى .

وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهراً وباطناً ، وأما الملازمة باطناً إذا وقعت المباينة ظاهراً فتختلف باختلاف الأشخاص ، ولايطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل ، فن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله ، وظهور حكم سوء السابقة ، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه ، ومن الناس من كان تغيره عثرة

حدثت وفترة وقعت يرجى عوده ، فلا ينبغى أن يبغض ، ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الود منتظراً له الفرج والعود إلى أوطان الصلح ، فقد ورد أن النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال : مه ، وزجرهم بقوله « ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » .

وقال إبراهيم النخعى : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً .

وفى الخبر : اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته .

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه ، فقال ما فعل أخى ؟ فقال له : ذاك أخوه الشيطان ، قال له : مه ، قال له : إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر ، فقال إذا أردت الخروج فآذنى ، قال فكتب إليه (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى ، فقال صدق الله تعالى ونصح عمر ، فتاب ورجع .

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يميناً وشمالا فسأله ، فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه ، فقال يا عبد الله إذا آخيت أحداً فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان مريضاً عدته ، وإن كان مشغولا أعنته .

وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما : ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثاً من غير حاجة تكون له فعلمت ما مكافأته فى الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص : لجليسى علىّ ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا حدّث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له .

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان ، فإن ما كان معلولا يزول بزوال علته ، ومن لا يستند فى خلته إلى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب فى الله إيثار الأخ بكل مايقدر عليه من أمر الدين والدنيا . قال الله تعالى (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقوله تعالى (لايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) أى لايحسدون إخوانهم على مالهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة ، أحدهما انتزاع الحسد على شىء من أمر الدين والدنيا ، والثانى الإيثار بالمقدور .

وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام « المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .

وكان يقول أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كلهم يرى لى الفضل عليه ، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى.

ولبعضهم نظماً :

تذلل لمن إن تذللت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون

فى آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة ، فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة ، وكتم عيب صاحبه ، واطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان : قال لى ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكرهه ، فإن الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب لا يحب الناصح . قال الله تعالى (ولكن لا تحبون الناصحين) والنصيحة ما كانت فى السر .

ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان ، واحتمال الأذى منهم ، فبذلك يظهر جوهر الفقير .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس: قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده ، فقال إذاً لا يرده إلى مكانه غير يدك ، ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر ، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه .

ومن أدبهم : أن لا يروْن لنفسهم ملكاً يختصون به .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا لا نصحب من يقول نعلى .

أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك .

وقال أحمد بن القلانسى : دخلت على قـــوم من الفقراء يوماً بالبصرة فأكرمونى وبجلونى ، فقلت يوماً لبعضهم: أين إزارى؟ فسقطت من أعينهم.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنســـان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تـكون الخدمة والأذان له ، وأن تـكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده ، فقال رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا ، فقال : أعجبنى صدقك .

وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين ، ويعمـل فى الحصاد ، وينفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) أى مشاع هم فيه سواء .

ومن أدبهم أنهم إذا استثقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم ، ويتسببون فى إزالة ذلك من مواطنهم ، لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة فى الصحبة .

قال أبو بكر الـكتانى : صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا ، فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله من قلبى ، فلم يزل ، فخلوت به يوماً وقلت له : ضع رجلك على خدى ، فأبى ، فقلت له : لابد من ذلك ، ففعـــل ذلك ، فزال ما كنت أجده فى باطنى .

قال الرقى : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الـكتانى عن هذه الحـكاية .

ومن أدبهم : تقـــديم من يعرفون فضله ، والتوسع له فى المجلس ، والإيثار بالموضع .

روى أن رسول الله ﷺ كان جالساً فى صفـة ضيقة ، فجاء قوم من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه ، فأقام رسول الله ﷺ من لم يكن من أهل بدر ، فجلسوا مكانهم ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالى (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) الآية .

وحكى أن على بن بندار الصوفى ورد على أبى عبد الله بن خفيف زائراً ، فتماشيا ، فقال له أبو عبد الله : تقدم ، فقال: بأى عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد وما لقيته .

ومن أدبهم : ترك صحبة من همه شىء من فضول الدنيا . قال الله تعالى : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) .

ومن أدبهم . بذل الإنصاف للإخوان ، وترك مطالبة الإنصاف .

قال أبو عثمان الحيرى : حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك ، ولا تطمع فى ماله ، وتنصفه من نفسك ، ولاتطلب منه الإنصاف منه ، وتكون تبعاً له ، ولاتطمع أن يكون تبعاً لك ، وتستكثر مايصل إليك منه، وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم فى الصحبة : لين الجانب ، وترك ظهور النفس بالصولة .

قال أبو على الروذبارى : الصولة على من فوقك قحة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم : أن لا يجرى فى كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا ، وليت كان كذا ، وعسى أن يكون كذا ، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضاً .

ومن أدبهم فى الصحبة : حذر المفارقة ، والحرص على الملازمة .

قيل: صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة ، فاستأذن صاحبه ، فقال: بشرط أن لا تصحب أحداً إلا إذا كان فوقنا ، وإن كان فوقنا أيضاً فلا تصحبه ، لأنك صحبتنا أولا ، فقال الرجل : زال عن قلبى نية المفارقة .

ومن أدبهم : التعطف على الأصاغر .

قيل : كان إبراهيم بن أدهم يعمل فى الحصاد ، ويطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربما كان يتأخر فى بعض الأيام فى العمل ، فقالوا ليلة: تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع ، فأفطروا وناموا، فرجع إبراهيم فوجدهم نياماً ، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام ، فعمد إلى شىء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ فى النار واضعاً محاسنه

على التراب ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : قلت لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم ، فقالوا : أنظروا بأى شىء عاملناه ، وبأى شىء يعاملنا .

ومن أدبهم : أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ؟ ولم ؟ وبأى سبب ؟

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال إلى أين، فلا يصحبه.

وقال آخر : من قال لأخيه أعطنى من مالك ، فقال كم تريد ، ما قام بحق الإخاء .

وقد قال الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا للإخوان .

قيل : لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة ، فأنكر ذلك أبو حفص وقال : صير أصحابى مثل المخانيث يقدم لهم الألوان ، والفتوة عندنا ترك التكلف ، وإحضار ما حضر ، فإن بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف ، وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه .

ومن أدبهم فى الصحبة : المداراة ، وترك المداهنة ، وتشتبه المداراة بالمداهنة ، والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك ، فداريته لرجاء صلاحه ، واحتملت منه ما تكره ، والمداهنة ما قصدت به شيئاً من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم فى الصحبة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط .

نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم : ستر عورات الإخوان .

قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشف الريح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، فقال: بل تكشفون عورته، قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ قال: أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها .

ومن أدبهم : الاستغفار للإخوان بظهر الغيب ، والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم .

حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى ، فأظهر عليه أخاه ، فقال : إنى ابتليت بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتى لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقداً أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه ، وطوى أربعين يوماً كلما يسأله عن هواه يقول مازال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال ، فأكل وشرب

ومن أدبهم : أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المداراة ، ولا يلجئوه إلى الاعتذار ، ولا يتكلفوا للصاحب مايشق عليه ، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم .

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة ، أو ألجأك إلى اعتذار ، وتكلف له .

وقال جعفر الصادق : أثقل إخوانى علىّ من يتكلف لى وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى .

فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة ، والحكايات فى ذلك يطول نقلها . وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئاً كثيراً ، فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك .

وحاصل الجميع أن العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ، ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه ، وإذا صاحب شخصاً تكون صحبته إياه لله تعالى ، وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى ، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علماً بمعرفة النفس وعيوبها ، ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ، ويفقهه فى ذلك كله ، ولا يفوته شىء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق ، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق ، لكل تقصير وجد ، من خبث النفس وعدم تزكيتها ،

وبقاء صفاتها عليه ، فإن صحبت غلطت بالإفراط تارة ، وبالتفريط أخرى ، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير ، ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به ، وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياة ، وتفقهت وعلمت ، وأدت الحقوق ، وقامت بواجب الآداب، بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون

فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى ، قال أنا كريمة للروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى ، قال أخبرنا أبو عبد الله الفربرى ، قال أنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنا عمر بن حفص ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنا الأعمش ، قال حدثنا زيد بن وهب ، قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكاً بأربع كلمات ، فيكتب عمله ، وأجله ، ورزقه ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » .

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) أى حريز ، لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها . ثم قال بعد ذكر تقلباته (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه .

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام ، والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام . وقد عظم الله تعالى شأن الروح ، وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال (ولقد كرمنا بنى آدم) .

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال : وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان .

فمع هذه الكرامة ، واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة ، لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) الخ .

قال ابن عباس : قال اليهود للنبي عليه السلام : أخبرنا ما الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ، وإنما الروح من أمر الله ، ولم يكن نزل إليه فيه شىء ، فلم يجبهم ، فأتاه جبرائيل بهذه الآية . وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة ، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه ، لا جرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطالعة إلى الفضول ، المتشوفة إلى المعقول ، المتحركة بوضعها بالسكون فيه ، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه، وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة ماهيــة الروح ، تاهت فى التيه ، وتنوعت آراؤها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شىء كالاختلاف فى ماهية الروح .

ولو لزمت النفوس حدها ، معترفة بعجزها ، كان ذلك أجدر بها وأولى . فأما أقاويل من ليس متمسكاً بالشرائع ، فنتنزه الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد، وطبعت على الفساد ، ولم يصبها نور الاهتداء ، ببركة متابعـة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى (كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا (لا يستطيعون سمعاً) .

وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه،وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب) فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا ، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا ، وأصروا على الجهالات ، وحجبوا بالمعقول عن المأمول . والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوماً ويضل به قوماً آخرين ، فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه . وأما المستمسكون بالشرائع ، الذين تكلموا فى الروح ، فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر ، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال

الفكر ، حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضاً ، وكان الأولى الإمساك عن ذلك ، والتأدب بأدب النبى عليه السلام .

وقد قال الجنيد : الروح شىء استأثر الله بعلمه ، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود .

ولكن نجعل للصادقين محملا لأقوالهم وأفعالهم ، ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة ، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله ، إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل ، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل ، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى ، من غير القطع بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبد الله النباجى : الروح جسم يلطف عن الحس ، ويكبر عن اللمس ، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

وهو وإن منع عن العبارة ، فقد حكم بأنه جسم ، فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى (ولقد خلقناكم) يعنى الأرواح (ثم صورناكم) يعنى الأجساد .

وقال بعضهم : الروح لطيف قائم فى كثيف ، كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف .

وفى هذا القول نظر .

وقال بعضهم : الروح عبارة ، والقائم بالأشياء هو الحق .

وهذا فيه نظر أيضاً ، إلا أن يحمل على معنى الإحياء ، فقد قال بعضهم: الإحياء صفة المحيى ، كالتخليق صفة الخالق،وقال (قل الروح من أمر ربى) وأمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق ، أى صار الحى حياً بقوله كن حياً ، وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد .

فمن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه .

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله ﷺ عنه ، فقال قوم : هو جبرائيل .

ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، ويخلق من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن الروح خلق من خلق الله ، صورهم على صورة بنى آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح : الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس .

وقال مجاهد : الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة .

وقال سعيد بن جبير : لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يبلع السموات والأرضين السبع فى لقمة لفعل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة الآدميين ، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد ، وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور أحرق أهل السموات من نوره .

فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلا وسماعاً ، بلغهم عن رسول الله ﷺ ذلك .

وإذا كان الروح المسئول عنه شيئاً من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد . فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً .

وقال بعضهم : الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم : الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الذل .

قيل: فمن أى شىء خرج ؟

قال : من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه ، فهى معتقة من ذل كن .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هى ؟ قال : نعم ولولا ذلك ماأقرب بالربوبية حيث قالت : بلى. والروح هى التى قام بها البدن ، واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحجة ، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لاحجة عليه ولا له .

وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات ، وأصفى الجواهر وأنورها ، وبها تتراءى المغيبات ، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق . وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب ، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار ، وقابض ونازع .

وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء .

وقيل : الأرواح أقسام ، أرواح تجول فى البرزخ ، وتبصر أحوال الدنيا والملائكة ، وتسمع ماتتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح تحت العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدرها من السعى إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال : أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها إلى جسدها .

وقيل : إذا ورد على الأروح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء ، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهراً عنه، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

وقد ورد فى الخبر عن النبى ﷺ « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله ، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم »

وفى خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى ،

فإن كان حسناً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان فى الجسد، وليست بمعان وأعراض.

سئل الواسطى : لأى علة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق ؟ قال : لأنه خلق روحه أولا، فوقع له صحبة التمكن والاستقرار ، ألا تراه يقول « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » أى لم يكن روحاً ولا جسداً .

وقال بعضهم : الروح خلق من نور العزة ، وإبليس من نار العزة ، ولهذا قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ولم يدر أن النور خير من النار .

فقال بعضهم : قرن الله تعالى العلم بالروح ، فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء ، وهذا فى علم الله ، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك .

والمختار عند أكثر متكلمى الإسلام أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا فى الإنسان ، والموت بعدمهما ، وأن الروح هى الحياة بعينها ، صار البدن بوجودها حياً ، وبالإعادة إليه فى القيامة يصير حياً .

وذهب بعض متكلمى الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة ، لاشتباك الماء بالعود الأخضر ، وهو اختيار أبى المعالى الجوينى .

وكثير منهم مال إلى أنه عرض ، إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم ، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد فى البرزخ ، فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم ، لأن العرض لا يوصف بأوصاف ، إذ الوصف معنى ، والمعنى لا يقوم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل : أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان ؟ فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان ؟ قيل له : فأين تذهب الجسوم إذا بليت ؟ قال : فأين تذهب لحمها إذا مرضت ؟

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام : الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف .

وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات ، لأن تجردها من هيآت

البدن عند المفارقة غير ممكن ، وهى عند الموت شاعرة بالموت ، وبعد الموت متخلية بنفسها مقهورة ، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة ، وتحس بالثواب والعقاب فى القبر .

وقال بعضهم : أسلم المقالات أن يقال : الروح شىء مخلوق ، أجرى الله تعالى العادة أن يحيي البدن مادام متصلا به وأنه أشرف من الجسد ، يذوق الموت بمفارقة الجسد ، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت ، فإن الكيفية والماهية يتلاشى العقل فيهما كما يتلاشى البصر فى شعاع الشمس .

ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم : الموجودات محصورة : قديم وجسم وجوهر وعرض ، فالروح من أى هؤلاء ؟ فاختار قوم منهم أنه عرض ، وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا ، واختار قوم أنه قديم ، لأنه أمر ، والأمر كلام ، والكلام قديم ، فما أحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله .

وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد ، وهكذا النفوس ، لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ، ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك ، وتتحرك للشر ، ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول :

ما عندى فى ذلك على معنى ماذكرت من التأويل دون أن أقطع به ، إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك فأقول ، والله أعلم :

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر ، والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق ، والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده ، والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب ، أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل ، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد ، وينتشر فى تجاريف العروق الضوارب ، وهذه الروح لسائر الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس ، وهو الذى قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالباً ، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط . ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى ، وباين أرواح

الحيوانات ، واكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلا للنطق والإلهام . قال الله تعالى (ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها) فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات ، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى ، وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق ، وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدم وحواء ، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه . قال الله تعالى (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) فسكن آدم إلى حواء ، وسكن الروح الإنسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفساً ، وتكون من سكون الروح إلى نفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلهـــا المضغة اللحمية ، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق ، وهذه اللطيفة من عالم الأمر ، وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ماتكون القلب ، فمن القلوب قلب متطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه ، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال « القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها »

والقلب المنكوس ميال إلى الأم التى هى النفس الأمارة بالسوء . ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها ، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة . والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه ، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد المولد البار ، والزوج للزوجة الصالحة . وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة ، فمنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه إذ لا بد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل ، فمن قائل إن محله الدماغ ، ومن قائل إن محله القلب ، كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك . واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد ، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى . وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق ، فإذا رؤى فى تدبير العاقل قيل مسكنه الدماغ ، وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب . فالروح العلوى يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحنواً وتنزهاً عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس ، فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد ، وتحن النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها . وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض ، وازوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى ، وانطوى هواها ، وانحسمت مادته ، وزهدت فى الدنيا ، وتجافت عن دار الغرور ، وأنابت إلى دار الخلود .

وقد تخلد النفس التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى ، لتكونها من الروح الحيوانى لجنس ، ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى . قال الله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه)

فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض ، انجذب إليها القلب المنكوس ، انجذاب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة ، دون الوالد الكامل المستقيم ، وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب ، لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده ، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه ، وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة (ذلك تقدير العزيز العليم)

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ، لأنه قلب الروح ، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشى : الروح روحان ، روح الحياة وروح الممات ، فإذا اجتمعا عقل الجسم . وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتاً . وروح الحياة ما به مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما .

وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة ، والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ، ويقال : فلان حار الرأس .

وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبية بماهية النفس ، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى مايظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها ، وتبديلها ، والأفعال الرديئة تزال ، والأخلاق الرديئة تبدل .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى قال أنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى ، قال أنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى ، قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطينى ، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن زيد عن سعيد بن أبى هلال أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية (قد أفلح من زكاها) وقف ثم قال « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها أنت خير من زكاها » .

وقيل : النفس لطيفة مودعة فى القالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة فى القلب منها الأخلاق والصفات المحمودة ، كما أن العين محل الرؤية ، والأذن محل السمع ، والأنف محل الشم ، والفم محل الذوق ، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة ، والروح محل الأوصاف المحمودة ، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين ، أحدهما الطيش ، والثانى الشره ، وطيشها من جهلها ، وشرهها من حرصها ، وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها ، وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح ، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه . فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر ، والصبر جوهر العقل ، والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر ، إذ العقل يقمع الهوى ، ومن الشره يظهر الطمع والحرص ، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود ، فحرص على أكل الشجرة .

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسبه وصف .

وقيل : وصف الضعف فى الآدمى من التراب ، ووصف البخل فيه من الطين ، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ، ووصف الجهل فيه من الصلصال .

وقيل : قوله كالفخار ، فهذا الوصف فيه شىء من الشيطنة لدخول النار فى الفخار ، فمن ذلك الخداع والحيل والحسد .

فمن عرف أصول النفس وجبلاتها ، عرف أن لاقدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها ، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعاية طرفى الإفراط والتفريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ، ويدرك صفات الشيطنة فيه ، والأخلاق المذمومة وكمال إنسانيته ، ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ، ثم تنكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك ، فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية ، والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال (ياأيتها النفس المطمئنة) وسماها لوامة قال (لاأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) وسماها أمارة فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) وهى نفس واحدة ، ولها صفات متغايرة ، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع على النفس خلع الطمأنينة ، لأن السكينة مزيد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح ، لما منح من حظ اليقين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب ، وفى ذلك طمأنينتها ، وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهى لوامة ، لأنها تعود باللائمة على نفسها ، لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ، ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمارة بالسوء ، وإذا أقامت فى محلها لايغشاها نور العلم والمعرفة فهى على ظلمتها أمارة بالسوء .

فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة يملك القلب دواعى الروح ، وتارة يملكه دواعى النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه ، ووجدت فى كلام القوم أن منهم من

جعله بعد القلب وقبل الروح ، ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف ، وقالوا السر محل المشاهدة ، والروح محل المحبة ، والقلب محل المعرفة ، والسر الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله ، وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها ، والقلب والفؤاد والعقل .

وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف فى القول فيه ، وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه ألطف من الروح فنقول والله أعلم :

الذى سموه سراً ليس هو بشىء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس ، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب ، وانترح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعاً إلى الروح ، فاكتسب وصفاً زائداً على وصفه ، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سراً .

ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح ، اكتسب الروح وصفاً زائداً فى عروجه ، وانعجم على الواجدين فسموه سراً . والذى زعموا أنه ألطف من الروح ، روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه ، والذى سموه قبل الروح سراً هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه ، وفى مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب ، وتنخلع من وصفها ، فتصير نفساً مطمئنة تريد كثيراً من مرادات القلب من قبل،إذ صار القلب يريد مايريده مولاه ، متبرئاً عن الحول والقوة والإرادة والاختيار ، وعندها ذاق طعم صرف العبودية ، حيث صار حراً عن إرادته واختياراته. وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال «أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له أقعد فقعد ، ثم قال له انطق فنطق ، ثم قال له اصمت فصمت ، فقـال وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ماخلقت خلقاً أحب إلىّ منك ولا أكرم علىّ

منك ، بك أعرف ، وبك أحمد ، وبك أطاع ، وبك آخذ ، وبك أعطى ، وإياك أعاتب ، ولك الثواب ، وعليك العقاب ، وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر » .

وقال عليه السلام « لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقده عقله » .

وسألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ قالت : قلت يارسول الله بأى شيء يتفاضلون الناس ؟ قال : بالعقل فى الدنيا والآخرة . قالت : قلت : أليس يجزى الناس بأعمالهم ؟ قال : يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل ، فبقدر عقولهم يعملون ، وعلى قدر ما يعملون يجزون .

وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته لاتعدل جناح بعوضة ، وإن الرجل ليأتى للمسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا . قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال : أورعهما عن محارم الله ، وأحرصهما على أسباب الخير ، وإن كان دونه فى العمل والتطوع » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، فإن الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد » .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : إنى أجد فى سبعين كتاباً أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل ، والكلام فى ذلك يكثر ، ولا نؤثر نقل الأقاويل ، وليس ذلك من غرضنا .

فقال قوم : العقل من العلوم ، فإن الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل ، وليس العقل جميع العلوم ، فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل .

وقالوا : ليس من العلوم النظرية ، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل ، فهو إذاً من العلوم الضرورية وليس هو جميعها ، فإن صاحب الحواس المختلطة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم ، لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا، ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلا .

وقالوا : هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم .

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم .

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل أنه لسان الروح ، لأن الروح من أمر الله ، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها ، ومنها يفيض نور العقل ، وفى نور العقل تتشكل العلوم . فالعقل للعلوم بمثابة اللوح للمكتوب ، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ، ومنتصب مستقيم تارة ، فمن كان العقل فيه منكوساً إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون ، وعدم حسن الاعتدال بذلك ، وأخطأ طريق الاهتداء . ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب ، واهتدى إلى المكون ، ثم عرف الكون بالمكون مستوفياً أقسام المعرفة بالمكون والكون ، فيكون هذا العقل عقل الهداية ، فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله فى أمر دله على الإدبار عنه ، فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه ، وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى .

قال بعضهم : العقل على ضربين ، ضرب يبصر به أمر دنياه ، وضرب يبصر به أمر آخرته .

وذكر أن العقل الأول من نور الروح ، والعقل الثانى من نور الهداية . فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم ، والعقل الثانى موجود فى الموحدين، مفقود من المشركين .

وقيل : إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة ، فإذا غاب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالا للجهل .

وقيل : عقل الإيمان مسكنه فى القلب، ومتصله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ، ووضع الأشياء في مواضعها . وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع ، لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع ، لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل ، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ، ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته ، واستقامة عقله بتأييد البصيرة .

فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل،والتي يضيق عنها نطاق العقل، لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها . والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطراً كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه،ويستأثر ببعضه دون اللسان .

ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي من الملك ، والملك ظاهر الكائنات ، ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت ، والملكوت باطن الكائنات ، اختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول ، دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر .

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان ، عقل الهداية مسكنه في القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتصله في الصدر بين عيني الفؤاد ، والعقل الآخر مسكنه في الدماغ ومتصله في الصدر بين عيني الفؤاد ، فالأول يدبر أمر الآخرة ، والثاني يدبر أمر الدنيا ، والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين ، وإذا تفرد دبر أمراً واحداً وهو واضح وأبين .

وقد ذكرنا في أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والأمارة ما يتنبه الإنسان به على كونه عقلا واحداً مؤيداً بالبصيرة تارة ، ومنفرداً بوصفه تارة ، والله الملهم للصواب .

الباب السابع والخمسون

فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال أنا أبو نصر الترياقى ، قال أنا أبو محمد الجراحى ، قال أنا أبو العباس المحبوبى، قال أنا أبو عيسى الترمذى ، قال أنا أبو هناد ، قال أنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب ، عن مرة الهمدانى ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق،وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء).

وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء ، لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه ، وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبداً مراداً بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين . وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم ، ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو فى مقام عامة للمؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر .

ومن الخواطر ماهى رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم : لى قلب إن عصيته عصيت الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، واستقامة القلب لطمأنينة النفس ، وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه،لأن صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية ، وللتذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار .

وقد ورد فى الخبر « إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تولى وخنس ، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه » .

وقال الله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) .

وقال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) .

فبالتقوى وجود خالص الذكر ، وبها ينفتح بابه ، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ، ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه ، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ، ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ، ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ، ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس .

قال سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصى حديث النفس ، ويرى الإصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنباً فيتقيه ، ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء ، ويصير القلب سماء محفوظاً بزينة كواكب الذكر ، فإذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يندر فى حقه الخواطر الشيطانية ، ولما ويكون له خواطر النفس ، ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم ، لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها ، كمطالبات النفس بحاجاتها ، وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ ، ويتعين التمييز عند ذلك وانهام النفس بمطالبات الحظوظ . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أى فتثبتوا .

وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة ، حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق ، فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان ، حتى همّ رسول الله ﷺ بقتالهم ، ثم بعث خالداً إليهم ، فسمع أذان المغرب والعشاء ، ورأى مايدل على كذب الوليد بن عقبة ، فأنزل الله تعالى الآية فى ذلك . فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تنبيهاً من الله عباده على التثبت فى الأمور .

قال سهل : فى هذه الآية الفاسق الكذاب ، والكذب صفة النفس ، لأنها تملى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها ، فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها ، فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ، ولا يستفزه الطبع ،

ولا يستعجله الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها ، وإظهار الفقر والفاقة إليه ، والاعتراف بالجهل ، وطلب المعرفة والمعونة منه ، فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان ، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق ، فإن كان للحق أمضاه ، وإن كان للحظ نفاه ، وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم ، لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم . ثم من الناس من لا يسعه فى صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ ، وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله ، فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب . ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ، ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله ، وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة ، عالم بالإذن ، فيمضى خاطر الحظ ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره ، يحسن به ذلك ويليق به ، عالم بزيادته ونقصانه ، عالم بحاله ، محكم لعلم الحال وعلم القيام ، لا يقاس على حاله ، ولا يدخل فيه بالتقليد ، لأنه أمر خاص لعبد خاص .

وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلصه من لمات الشيطان ، تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك ، وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثاً ، ويسقط خاطر الشيطان إلا نادراً لضيق مكانه من النفس ، لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس ، واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض ، ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه ، وسقط محل الشيطان إلا نادراً لدخول الابتلاء عليه .

ثم من المرادين المتحققين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء مزيناً بزينة كوكب الذكر ، يصير قلبه سماوياً يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات ، وكلما يترقى تتضاءل النفس المطمئنة ، وتبعد عنه خواطرها ، حتى يجاوز السموات بعروج باطنه ، كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظاهره وقالبه ، فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس ، لتستره بأنوار القرب ، وبعد النفس عنه ، وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضاً ، لأن الخاطر رسول ، والرسالة إلى من بعد ، وهذا قريب ، وهذا الذى وصفناه

نازل ينزل به ولا يدوم ، بل يعود فى هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره ، فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك ، وذلك أن الخواطر تستدعى وجوداً ، وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه ، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب ، وخاطر النفس يعد عنه لبعد النفس ، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ حيث قال : لو دنوت أنملة لاحترقت .

قال محمد بن على الترمذى : المحدث والمكلم إذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس .

فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان ، كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء النفس وفتنتها ، ومحروس بالحق والسكينة ، لأن السكينة حجاب المكلم والمحدث مع نفسه .

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى بالبصرة يقول : الخواطر أربعة : خاطر من النفس ، وخاطر من الحق ، وخاطر من الشيطان ، وخاطر من الملك ، فأما الذى من النفس فيحس به من أرض القلب ، والذى من الحق من فوق القلب ، والذى من الملك عن يمين القلب ، والذى من الشيطان عن يسار القلب .

والذى ذكرناه إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد ، وتصفى وجوده واستقام ظاهره وباطنه ، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا يأتيه الشيطان من ناحية إلا ويبصره ، فإذا اسود القلب وعلاه الرين لايبصر الشيطان .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ « إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل ، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه » قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

سمعت بعض العارفين يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال : الحديث فى باطن الإنسان ، والخيال الذى تراءى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو من القلب وليس هو من النفس ، وهذا بخلاف ما تقرر ، فسألته عن ذلك ،

فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات، وتألفا وتودداً، وكلما انطلقت النفس فى شىء يهواهــا من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتــكدر ، فإذا عاد العبد من مواطن مطالباب النفس،وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى ، أقبل القلب بالمعاتبة للنفس ، وذكر النفس شيئاً شيئاً من فعلها وقولها ، كاللائم للنفس وللعاتب لها على ذلك ، فإذا كان الخاطر أول الفعــل ومفتتحه فمعرفته من أهم شأن العبد ، لأن الأفعال من الخواطر تنشأ ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم» هو علم الخواطر، قال : لأنها أول الفعل،وبفسادها فساد الفعل ، وهذا لعمرى لا يتوجه ، لأن رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم ، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك ، ولــكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها ، إما ضعف اليقين، أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها ، أو متابعة الهوى بخرم قواعــد التقوى ، أو محبة الدنيا جاهها ومالها ، وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس ، فمن عصم عن هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمـــة الشيطان ، ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يطلبها . وانــكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض . وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ، ومعرفتها صعبة المنال ، لا تــكاد تتيسر إلا بعــد الاستقصاء فى الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو على الدقاق: من كان قوته معلوماً لا يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيــد ، وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه فى الأخذ منه والتقوت به . ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر ، إنما ذلك يقال فى حق من دخــل

فى معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه ينحجب لموضع اختياره ، والذى أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم .

وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان، وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى ، إذ لا غرض له فى تخصيص بل مراده الإغواء كيفما أمكنه .

وتكلم الشيوخ فى الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع .

قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم .

وقال ابن عطاء : الثانى أقوى لأنه ازداد قوة بالأول .

وقال أبو عبد الله ابن خفيف : هما سواء ، لأنهما من الحق ، فلا مزية لأحدهما على الآخر .

قالوا : الواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة ، والواردات تكون تارة خواطر ، وتارة تكون . وارد سرور، ووارد حزن ، ووارد قبض ، ووارد بسط .

وقيل : بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى ، وبنور المعرفة يقبل من الملك ، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو .

ومن قصر عن درك حقائق الزهد ، وتطلع إلى تمييز الخواطر ، يزن الخاطر أولاً بميزان الشرع ، فما كان من ذلك نفلا أو فرضاً يمضيه ، وما كان من ذلك محرماً أو مكروهاً ينفيه ، فإن استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس ، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما ، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون .

وقد يلم الخاطر بنشاط النفس ، والعبد يظن أنه بنهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس .

يقول بعضهم : منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى ساعة .

فيظهر من سكون القلب إلى النفس خوطرا الحق على من يكون ضعيف

العلم ، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الرسخون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل ، وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب ، وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعاً أنه مهما بقي عليه أثر من الهوى وإن دق وقل ، يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر . ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ، ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة ، وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز ، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت .

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح ، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تنكت في القلب همة سوء فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة ، وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي ، أو دعوى حركة أو سكون ، وهي آفة العقل ومحنة القلب ، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة : بجهل ، أو غفلة ، أو طلب فضول . ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه ، فإنها ترد بخلاف مأمور ، أو على وفق منهي . ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات .

وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع ، يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة : إما بفرض أمر به ، أو بفضل ندب إليه ، وإما بمباح يعود صلاحه إليه .

وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الموجبتان للمتين .

وعندي والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس ، فحركة الروح من لمة الملك ، والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك ، وحركة النفس من لمة الشيطان ، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهي من شؤم لمة الشيطان ، فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبيل حكيم . وقد تكون هاتان اللمتان

متدار كتين وينمحى أثر أحدهما بالأخرى وللتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس، ويبقى أبداً متفقداً حاله مطالعاً آثار اللمتين.

وذكر خاطر خامس وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد ، ليدخل العبد فى الشيء بوجود عقل ، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب . وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختاراً ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس وهو خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومزيد العلم ، ولا يبعد أن يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق . وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك ، وتارة من خاطر النفس ، وليس من العقل خاطر على الاستقلال ، لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم ، ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعى النفس تارة ، وإلى دواعى الملك تارة ، وإلى دواعى الروح تارة ، وإلى دواعى الشيطان تارة ، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة . ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمتين ، وهاتان اللمتان هما الأصل ، والخاطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح ، واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق . وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل لموضع قربه ، فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ، ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطبع ، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها ، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان ، فأصلها لمتان وينتجان آخريين ، وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما والله أعلم.

الباب الثامن والخمسون

فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر اشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك ، ووجود الاشتباه لمكان تشابهما فى نفسهما وتداخلهما ، فتراءى للبعض الشىء حالا ، تراءى للبعض مقاماً ، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق ، فالحال سمى حالا لتحوله ، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره .

وقد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاماً ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة ، وتنقهر النفس ، وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة .

ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال .

ثم يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد ، إلى أن ينقشع ضباب السهو الغفلة ، ويتدارك الله عبده بالمعونة ، فتصير المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار ، ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاماً ، وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار .

ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفناء ، والتخلص إلى البقاء ، والترق من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب ، وذلك أعلى فروع المشاهدة .

وقد قال رسول الله ﷺ « اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى » .

قال سهل بن عبد الله: القلب تجويفان ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر

وهو قلب القلب وسويداؤه ، والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين ، وهو صقال لموضع مخصوص فيه ، بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات ، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الأجر من الثواب ، إذ يكون تراباً ثم طيناً ثم لبناً ثم آجراً .

فالمشاهدة هى الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ، ثم البقاء كاللبن ، ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع .

ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى أشرف الأحوال ، وهى محض موهبة لا تكتسب ، سميت كل للمواهب من النوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول ، وتداولت ألسنة الشيوخ أن للمقامات مكاسب ، والأحوال السموات ومتنزل البركات ، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى .

قال بعضهم : الحال هو الذكر الخفى . وهذا إشارة إلى شىء مما ذكرناه .

وسمعت المشايخ بالعراق يقولون: الحال ما من الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا ما من العبد ، فإذا لاح للمريد شىء من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله ، وسموه حالا ، إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان: الأحوال مواريث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبروق ، فإن بقى فحديث النفس .

وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق ، وإنما مواهب . وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب ، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب ، والمواهب محفوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب ، وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية ، والمقامات طرقها .

وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سلونى عن طرق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض ، إشارة إلى المقامات والأحوال فطرق السموات فإنى أعراف بها من طرق الأرض ، إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات ، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق يكون ذلك فى بعض الأحوال ، فإنها تطرق ثم تستلبها النفس ، فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء .

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لاتكون إلا إذا دامت ، فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر ، وهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلفت المشايخ فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكام حكم مقامه ؟

قال بعضهم: لاينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه.

وقال بعضهم : لايكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه ، فينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال والله أعلم : الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه ، فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ، ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولا يضاف الشىء إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى ، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات ، والأحوال مواهب يرقى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة . ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه ، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال ، فعلى ماذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام ، وفى الزهد حال ومقام ، وفى التوكل حال ومقام ، وفى الرضى حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيرى : منذ أربعين سنة ماأقامنى الله فى حال فكرهته . أشار إلى الرضى . ويكون منه حالا ثم يصير مقاماً ، والمحبة حال ومقام ، ولا يزال العبد يتتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب ، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا .

قال بعضهم : الزجر هيجان فى القلب لايسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة ، فإذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ .

وقال بعضهم : الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده

والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق العقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ، فلا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاماً ، وهكذا فى الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا ، وتقبح له الإقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة ، حتى تتداركه للمعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده ، ويصير الزهد مقامه . ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل ، وهكذا حال الرضى حتى يطمئن على الرضى ، ويصير ذلك مقامه .

وههنا لطيفة ، وذلك أن مقام الرضى والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ، ولا يحكم ببقاء حال الرضى مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع ، ولكن علمه بمقام الرضى يغمر حكم الطبع ، وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضى ، ولكن يفقد حال الرضى ، لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال كيف يكون صاحب مقام فى الرضى ولا يكون صاحب حال فيه ، والحال مقدمة المقام ، والمقام أثبت ؟

نقول : لأن المقام لما كان مشوباً بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه ، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع ، فحال الرضى أصلف ، ومقام الرضى أمكن ، ولابد للمقامات من زائد الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال ، فمنها ما يصير مقاماً ، ومنها ما لا يصير مقاماً ، والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب فى المقام ظهر ، والموهبة بطنت ، وفى الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن ، فلما كان فى الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها ، ولطف

سنى الأحوال أن يصير مقاماً ، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومواهبه غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى ، ومكالمة موسى ، وخلة إبراهيم عليه السلام ، لطلبت ماوراء ذلك ، لأن مواهب الله لاتنحصر ، وهذه أحوال الأنبياء ولاتعطى الأولياء ، ولـكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه ، وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى ، لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة ، وقرع باب الطلب ، واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزدد فيه علماً فلا بورك لى فى صبيحة ذلك اليوم » .

وفى دعائه ﷺ « اللهم ماقصر عنه رأيى ، وضعف فيه عملى ، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى ، من خير وعدته أحداً من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك ، فأنا أرغب إليك وأسألك إياه » .

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر ، والأحوال مواهب ، وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها ، وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها ، والله المنعم المعطى .

الباب التاسع والخمسون

فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال أنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى إجازة ، قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد ، قال أنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال أنا عبد الله بن المبارك ، قال أنا الهيثم ابن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائنى ، قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنــــه قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال يارسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى ، فقال له رسول الله ﷺ « أين أنت من الاستغفار ، فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر « فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة » .

وروى أبو بردة قال : قال رسول الله ﷺ « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

وقال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنين لعلكم تفلحون) .

وقال الله عز وجل (إن الله يحب التوابين) .

وقال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) .

التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهى أول المقامات ، وهى بمثابة الأرض للبناء ، فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له .

وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهــدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعــد صحة الإيمان وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة ، ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية . ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملــكوت السموات ، ويكاشف بالقدر

والآيات ، ويصير له ذوق وفهم لـكلمات الله تعالى المنزلات ، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات ، فـكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت.

فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح ، والثانى الزهد فى الدنيا ، والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهراً وباطناً من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور .

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها ، وهى قلة الـكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام ، والاعتزال عن الناس . واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات ، وتستقيم الأحوال ، وبها صار الأبدال أبدالاً ، بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه .

وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه ، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها .

أولها بعد الإيمان التوبة ، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال ، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولابد فى ابتدائها من وجود زاجر ، ووجدان الزاجر حال ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب ، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها .

قال رجل لبشر الحافى : مالى أراك مهموماً ؟ قال : لأنى ضال ومطلوب ضللت الطريق والمقصـد ، وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ، ولـكن سنة الغفلة أدركتنى ، وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر .

وقال الأصمعى : رأيت أعرابياً بالبصرة يشتـكى عينيه وهما يسيل منهما الماء ، فقلت له : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : لا لأن الطبيب زجرنى ، ولا خير فيمن لا ينزجر .

فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولا بد من وجودها للتائب . ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه .

قال بعضهم : من لزم مطالعة الطوارق انتبه .

وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر ، وإذا ذكر

ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى اقشعر .

وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ ، فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ، ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ .

قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار .

وقيل : التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة .

وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة .

وقيل :اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة. فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة .

فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة .

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة،ولاتستقيم التوبة إلابالمحاسبة.

نقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر على الله (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس ، وضبط الحواس ، ورعاية الأوقات ، وإيثار المهمات .

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده،واستيلاء الغفلة عليه ، كى لايستعبده الهوى ، وتسترقه الدنيا . فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى،ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ، ولايدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار ، لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء ، وتعقد عليه عقدة .

والمتفقد المحاسب يهيىء الباطن للصلاة بضبط الجوارح ، ويحقق مقام

المحاسبة ، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقتـه إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقتـه ، ووقته منوراً معموراً بنور صلاته .

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضاً ، وكلما ارتـكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطاً ، وكلما تـكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه ، لتضيق المحاسبة مجـارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء ، لموضع صدقه فى حسن الاقتداء ، وحرصه على تحقيق مقام العباد ، وهـذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته .

وسئل الواسطى : أى الأعمال أفضل ؟ قال : مراعاة السر ، والمحاسبة فى الظاهر ، وللمراقبة فى الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبة .

وللمراقبة والرعاية حالان شريفان ، ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقـام التوبة ، وتستقيم التوبة على الـكمال بهما ، فصارت المحاسبة وللمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف أبى بـكر الشيرازى ، قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسن الفارسى يقول : سمعت الجريرى يقول : أمرنا هذا مبنى على فصلين ، وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

قال المرتعش : المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة .

قال الله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) .

وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال .

ومعرفة الزيادة والنقصان هو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله ، وكل هذا ملازم لصحة التوبة ، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات العزائم ، والعزائم مقدمات الأعمـال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالإرادة ، وبالمراقبة

حسم مواد الخواطر الرديئة ، فصار من تمام المراقبة تمام التوبة ، لأن من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح ، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكاره من القلب ، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : أفضل ما يلزم الإنسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة ، وسياسة العمل بالعلم ، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة .

قال إبراهيم بن أدهم : إذا صدق العبد فى توبته صار منيباً . لأن الإنابة ثانى درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشى : المنيب الراجع عن كل شىء يشغله عن الله إلى الله .

وقال بعضهم : الإنابة الرجوع منه إليه لا من شىء غيره ، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفى الإنابة ، والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ، ثم يرجع من رجوع رجوعه ، فيبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدى الحق ، مستغرقاً فى عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال ، والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان : ما استحسنت من نفسى عملا فأحتسبه .

وقال أبو عبد الله السجزى : من استحسن شيئاً من أحواله فى حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانياً ، ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال . ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة ، وهو فى تحقيق مقام التوبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة ، ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المجاهد من جاهد نفسه » ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه ، وصدق المراقبة له بالقلب ، وحسم مواد الخواطر .

والصبر ينقسم إلى فرض وفضل ، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات ، والصبر عن المحرمات . ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر ، والصبر

عند الصدمة الأولى ، وكتمان المصائب والأوجاع ، وترك الشكوى ، والصبر على إخفاء الفقر ، والصبر على كتم المنح والكرامات ، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر فرضاً وفضلا كثيرة ، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر ، فإذاً حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة ، والصبر من أعز مقامات الموقنين ، وهو داخل فى حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء : أي شيء أفضل من الصبر ، وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعاً ، وما ذكر شيئاً بهذا العدد .

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر ومع شرفه .

ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى ، وهذا أيضاً داخل فى صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر .

ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضى والغضب ، والصبر عن محمدة الناس ، والصبر على الخمول والتواضع . والذل داخل فى الزهد وإن لم يكن داخلا فى التوبة . وكل مافات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد ، وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنينتها من تزكيتها ، وتزكيتها بالتوبة . فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها . والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين ، لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفىء نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى ، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضى ومقامه ، وتطمئن فى مجارى الأقدار .

قال أبو عبد الله النباجى : لله عبــاد يستحيون من الصبر ، ويتلقفون مواضع أقداره بالرضى تلقفاً .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت ومالى سرور إلا مواقــع القضاء .

قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين وصاه « اعمل لله باليقين فى الرضى، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيراً كثيراً » .

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ «من خير ما أعطى الرجل الرضى بما قسم الله تعالى له » .

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضى وشرفه أكثر من أن تحصى ، والرضى ثمرة التوبة النصوح ، وما تخلف عبد عن الرضى إلا بتخلفه عن التوبة النصوح ، فإذن تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر، وحال الرضى ومقــام الرضى ، والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهــل اليقين ، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح ، لأن خوفه حمله على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ، ولولا رجاؤه ماخاف ، فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن ، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

دخل رسول الله ﷺ على رجــل وهو فى سياق الموت فقال « كيف تجدك ؟ قال: أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى ، فقال: ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف » .

وجاء فى تفسير قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلــكة) هو العبــد يذنب الــكبائر ثم يقول قد هلــكت لا ينفعنى عمل .

فالتائب خاف فتــــاب ورجا المغفرة ، ولا يكون التائب تائباً إلا وهو راج خائف .

ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المــكاره ، واستعان بنعم الله على طاعة الله ، فقد شــكر النعم ، لأن كل جارحة من الجوارح نعمة ، وشكرها قيدها عن المعصية ، واستعمالها فى الطاعة . وأى شاكر للنعمــة أكبر من التائب المستقيم .

فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقـــد جمع مقام التوبة حال الزجر ، وحال الانتباه ، وحال التيقظ ومخالفة النفس ، والتقوى ، والمجاهدة ، ورؤية عيوب الأفعال ، والإنابة ، والصبر ، والرضى ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والشكر ، والخوف ، والرجاء .

وإذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس ، انجلت مرآة القلب ، وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد ، والزاهد يتحقق فيه التوكل ، لأنه لا يزهد فى الموجود إلا لاعتماده على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ، وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده فى الدنيا ، وهو ثالث الأربعة .

أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله ﷺ من سفر فبدأ بفاطمة رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت ستراً وزوائد فى يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس ، فجعل ينكت فى الأرض ويقول : مالى وللدنيا ، مالى وللدنيا ، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر ، فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب إلى النبى ﷺ فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبى ﷺ فقال قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت ، فقال النبى ﷺ بأبى وأمى قد فعلت بأبى وأمى قد فعلت اذهب فبعه .

وقيل فى قوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) قيل الزهد فى الدنيا .

سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد فقال : هو أن لا تبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : ويلكم أى مقدار لجناح بعوضة أن يزهد فيها .

وقال أبو بكر الواسطى : إلى متى تصول بترك كنيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة .

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضاً ، لأن صدق توكله مكنه من زهده فى الموجود ، فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق هذين المقامين ، استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها .

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداها بالأخرى أن يتوب العبد ثم يستقيم فى التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً، ثم يرتق من تطهير الجوارح عن المعاصى إلى تطهير الجوارح عما لا يعنى، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول ، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن ، وتستولى المراقبة على الباطن ، وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول ، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراً له ولأتباعه وأمته .

وقيل : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة . ولا يلزم من هذا وجود العصمة ، ولكن الصادق التائب فى النادر إذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك ، والندم توبة ، فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً ، فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غدائه لعشائه ، ولا فى عشائه لغدائه ، ولا يرى الادخار ، ولا يكون له تعلق هم بغد ، فقد جمع فى هذا الزهد والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزيادة ، لأن الفقير عادم للشىء اضطراراً ، والزاهد تارك للشىء اختياراً ، وزهده يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس وصدق

المجاهـدة ، وحبس النفس لله يحقق خوفه ، وخوفه يحقق رجاءه ، ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها ، وهو دوام العمل ، لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل .

وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين فى التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هـذا الرابع ، ولا يراد الزهد فى الدنيا إلا لـكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى ، والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذاكراً أو تالياً أو مصلياً أو مراقباً لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى ، أو مهم لابد منه طبيعى ، فإذا استولى العمل على القلب مع وجود الشغل الذى أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل ، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهداً فى العبودية .

قال أبو بكر الوراق : من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق

وسئل سهل بن عبد الله التسترى : أى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار .

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ، ووفور علمه ، وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازى : مادام العبد يتعرف يقال له لاتختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لاتختر ، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ، فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار .

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه

هـذه الأربعة التى ذكرناها ، لأن ترك التدبير فناء ، وتعليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ، ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ، وهو مقام البقاء ، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق ، وهذا العبد مابقى عليه من الاعوجاج ذرة ، واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية ، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه ، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عزوجل ، متمسكة بالاستكانة والافتقار ، متحققة بقول رسول الله ﷺ « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلأنى كلاءة الوليد ولا تخل عنى » .

الباب الستون

فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب

قولهم فى التوبة :

قال رويم : معنى التوبة أن يتوب من التوبة .

قيل معناه قول رابعة : أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى : أستغفر الله .

وسئل الحسن المغازلى عن التوبة ؟ فقال : تسألنى عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ فقال: أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحى من الله لقربه منك .

وهـذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه . وهـذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل :

وجودك ذنب لايقاس به ذنب

قال ذوالنون : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ مانال غيرهم .

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشىء ويتركه ، ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته ، فقال : الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار ولايفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته . قال : وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لايسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ، ولـكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره .

وهذا الذى قاله سهل كاف بالغ لـكل طالب صادق يريد صحة توبته .

والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ، ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف . ومن تمكن من قلبه حلاوة حب

الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه ، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله .

وسئل السوسى عن التوبة فقال : التوبة من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم .

وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم ، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس . وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام . وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها .

وقال أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب عن كل شىء سوى الله تعالى

قولهم فى الورع :

قال رسول الله ﷺ « ملاك دينكم الورع » .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة قال أنا أبو سعيد الخلال قال حدثنى ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن حبيب بن عبيد عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر ، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوماً ينفعهم .

قال عمر بن الخطاب : لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا .

قال معروف الكرخى : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبى أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الشبلى عن الورع ، فقال : الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك من الله طرفة عين .

وقال أبو سليمان الدارانى : الورع أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضى .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن الورع ، فقال : أن لايتكلم العبد إلا بالحق ، غضب أو رضى ، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال : سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينورى يقول سمعت ابن الجلاء يقول : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ، ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً .

وقال الخواص : الورع دليل الخوف ، والخوف دليل للمعرفة ، والمعرفة دليل القربة .

قولهم فى الزهد :

قال الجنيد : الزهد خلو الأيدى من الأملاك ، والقلوب من التتبع .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : لازهد فى الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد ، أو يزهد فيما هوله فكيف زهد فيه وهو معه وعنده ، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة . يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام ، وهذا لواطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ، ولكن مقصود الشبلى أن يقلل الزهد فى عين للمعتد بالزهد لئلا يغتر به .

قال رسول الله ﷺ « إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهداً فى الدنيا ومنطقاً فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة » .

وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون ، فقال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير) قيل : هم الزاهدون .

وقال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا .

وقيل فى قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قيل : عن الدنيا .

وفى الخبر : العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا ، فإذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم .

وجاء فى الأثر : لا تزال لاإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا

ما نقص من صيامهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا لا إله إلا الله، قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سهل : أعمال البر كلها فى موازين الزهاد، وثواب زهدهم زيادة لهم .

وقيل : من سمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود، ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم .

قال السرى : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافى الدنيا . ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية، وحب المنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : الزهد غفلة لأن الدنيا لاشىء، والزهد فى لاشىء غفلة .

وقال بعضهم: لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم.

وعندى أن الزهد فى الزهد غير هذا، وإنما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد، لأن الزاهد اختار الزهد وأراده وإرادته تستند إلى علمه، وعلمه قاصر، فإذا أقيم فى مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه، فيكون زهده بالله تعالى حينئذ، أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشىء من الدنيا، فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لاينقص عليه زهده، فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله وبإذن منه زهداً فى الزهد. والزاهد فى الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها، إن تركها تركها بالله ، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد فى الزهد . وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام .

وفوق هذا مقام آخر فى الزهد، وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء، فيزهد زهداً ثالثاً، ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها، وأعيدت عليه موهوبة، ويكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق، فقد يختار تركها حيناً تأسياً بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقاً بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم .

وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين ، زهدوا ثالثاً بالله كما رغبوا ثانياً بالله ، كما زهدوا أولا لله .

قولهم فى الصبر :

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله ، وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

وقال بعضهم : الصبر أن تصبر فى الصبر ، أى لاتطالع فيه الفرج .

قال الله تعالى (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وقيل : لكل شىء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر ، فالصبر عرك النفس ، وبالعرك تلين ، والصبر جار فى الصابر مجرى الأنفاس ، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهراً وباطناً ، والعلم يدل والصبر يقبل ، ولاتنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر . ومن كان العلم سائسه فى الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه . والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ، ومصدرهما الغريزة العقلية ، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما ، وبالصبر يتحامل على النفس ، وبالعلم يترقى الروح ، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ، ليستقر كل واحد منهما فى مستقره ، وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال ، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر ، أعنى النفس والروح ، وبيان ذلك يدق .

وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) كل أجير أجره بحساب ، وأجر الصابرين بغير حساب .

وقال الله تعالى لنبيه (واصبر وما صبرك إلا بالله) أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به .

قيل : وقف رجل على الشبلى ، فقال : أى صبر أشد على الصابرين؟ فقال : الصبر فى الله ، فقال: لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا ، فغضب الشبلى وقال : ويحك أى شىء هو ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله . قال : فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه .

وعندى فى معنى الصبر عن الله وجه ، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه ، وذاك أن الصبر عن الله يكون فى أخص مقدمات للشاهدة ، يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا ، وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ، ويتغيب فى مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلى ، وهذا من أشد الصبر ، لأنه يود استدامة هذه الحال ، تأدية لحق الجلال . والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستطلاع نور الجمال . وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر ، فالروح فى هذا الصبر منازعة ، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك .

وقال أبو الحسن بن سالم : هم ثلاثة ، متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر فى الله ، فمرة يصبر ، ومرة يجزع . والصابر من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ، ولكن يتوقع منه الشكوى ، وقد يمكن منه الجزع . وأما الصبار فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة ، وإشارته فى هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة .

وكان الشبلى يتمثل بهذين البيتين :

إن صوت المحب من ألم الشو ق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله : أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر ، وجعل الحظ الأعلى للرسول ﷺ ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه ، فقال (وما صبرك إلا بالله) .

وسئل السرى عن الصبر ، فتكلم فيه ، فدب على رجله عقرب فجعل يضرب بإبرته ، فقيل له : لم لا تدفعه ؟ قال : أستحى من الله تعالى أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أتكلم فيه .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن أبى عبد الرحمن قال : سمعت محمد بن خالد يقول : سمعت الفرغانى يقول : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان ، وأكرم الإيمان بالعقل ، وأكرم العقل بالصبر ، فالإيمان زين المؤمن ، والعقل زين الإيمان ، والصبر زين

العقل . وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسى لنفسى فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت ولو لم أجرعها إذاً لاشمأزت
ألا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عــزت
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنياى وإن هى قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ماأنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منــه الصبر إلا كان ماعاضه خيراً مما انتزعه منه . وأنشد لسمنون :

تجرعت من حاليــه نعمى وأبؤسا زماناً إذا أجرى عز إليــه أحتسى
فكم غمرة قد جرعتنى كؤسها فجرعتها من بحر صبرى أكؤسا
تدرعت صبرى والتحفت صروفه وقلت لنفسى الصبر أوفاهلكىأمسى
خطوب لو ان الشم زاحمن خطبها لساخت ولم تدرك لها الــكف ملمسا

قولهم فى الفقر :

قال ابن الجلاء : الفقر أن لا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر .

وقال الــكتانى : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لايتم أحدهما إلا بالآخر .

وقال النورى : نعت الفقراء السكون عند العدم ، والبذل عند الوجود .

وقال غيره : والاضطراب عند الموجود .

وقال الدراج : فتشت كنف أستاذى أريد مكحلة ، فوجدت فيها قطعة ، فتحيرت ، فلما جاء قلت له : إنى وجدت فى كنفك هذه القطعة ، قال : قد رأيتها ردها ، ثم قال : خذها واشتر بها شيئاً ، فقلت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك ؟ فقال : مارزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أوصى أن تشد فى كنفى فأردها إلى الله .

وقال إبراهيم الخواص: الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين .

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق ، فقال : لايسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله : سألنى الزقاق فقال : ياأبا على لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة ؟ قال : قلت : لأنهم مستغنون بالمعطى عن العطايا ، قال : نعم ولكن وقع لى شىء آخر ، فقلت: هات أفدنى ماوقع لك ، قال : لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود ، إذ لله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة ، إذ لله وجودهم .

قال بعضهم : الفقر وقوف الحاجة على القلب ، ومحوها عما سوى الرب .

وقال المسوحى : الفقير الذى لاتغنيه النعم ، ولا تفقره المحن .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة الفقر أن لايستغنى إلا بالله ، ورسمه عدم الأسباب كلها .

وقال أبو بكر الطوسى : بقيت مدة أسأل من معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء ، فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى ، حتى سألت نصر ابن الحامى فقال لى : لأنه أول منزل من منازل التوحيد ، فقنعت بذلك .

وسئل ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى ، ثم ذهب ورجع ثم قال : إنى لم أسكت إلا لدرهم كان عندى فذهبت فأخرجته واستحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ، ثم جلس وتكلم .

قال أبو بكر بن طاهر : من حكم الفقير أن لايكون له رغبة ، فإن كان ولابد لاتجاوز رغبته كفايته .

قال فارس : قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر : لم لاتسأل فيطعموك ؟ فقال : إنى أخاف أن أسألهم فيمنعونى ، فلا يفلحون . وأنشد لبعضهم :

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى ربه الأعياد والجمعا

أحرى للابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر :

قال بعضهم : الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : لست بشاكر ما دمت تشكر ، وغاية الشكر التحير ، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها .

وفى أخبار دواد عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ، فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتنى .

ومعنى الشكر فى اللغة هو الكشف والإظهار ، يقال شكر وكشر إذا كشف عن ثغره وأظهره .

فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر ، وباطن الشكر أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية ، فهو شكر النعمة .

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :

أوليتنى نعماً أبوح بشكرها ... وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله ﷺ « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » .

وقال رسول الله ﷺ « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظُلم فغفر ، وظَلم فاستغفر ، قيل فما باله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

قال الجنيد : فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفى الحديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » .

وقال بعضهم فى قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال : الظاهرة العوافى والغنى ، والباطنة البلاوى والفقر ، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء .

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعماً غير ما يضره في دينه ، لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئاً إلا وهو نعمة في حقه ، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها ، وإما آجلة بما يقضى له من المكاره ، فإما أن تكون درجة له أو تمحيصاً أو تكفيراً . فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه ، وأعلم بمصالحه ، وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

قولهم في الخوف :

قال رسول الله ﷺ « رأس الحكمة مخافة الله » .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « كان داود النبي عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضاً وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه » .

قال أبو عمر الدمشقي : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه .

وقيل : الخائف الذي لا يخاف غير الله . قيل : أي لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له ، والخوف للنفس خوف العقوبة .

وقال سهل : الخوف ذكر والرجاء أنثى ، أي منهما تتولد حقائق الإيمان .

قال الله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) .

قيل : هذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .

وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين ، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، فقال تعالى (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) .

وقال سهل : كمال الإيمان بالعلم ، وكمال العلم بالخوف .

وقال أيضاً : العلم كسب الإيمان ، والخوف كسب المعرفة .

وقال ذو النون : لايسقى المحب كأس المحبة إلا من بعـــد أن ينضج الخوف قلبه .

وقال فضيل بن عياض : إذا قيـل لك تخاف الله اسكت فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم كذبت ، فليس وصفك وصف من يخاف .

قولهم فى الرجاء :

قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى فى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى » .

قيل : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقـال من يلى حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك وتعالى . قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم . فتبسم الأعرابى . فقال النبى ﷺ مم ضحكت يا أعرابى ؟ فقال : إن الـكريم إذا قـدر عفا ، وإذا حاسب سامح » .

وقال شاه الـكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة .

وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال .

وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب .

قال أبو على الروذبارى : الخوف والرجاء كجناحى الطـائر ، إذا استويا استوى الطائر وتم فى طيرانه .

قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو .

قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا .

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين ، ولا يكون خائفاً إلا وهو راج ، ولا راجياً إلا وهو خائف ، لأن موجب الخوف الإيمان ، وبالإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان ، ومن الإيمان خوف ، ولهـذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه : خف الله تعـالى خوفاً لا تأمن فيه مكره ، وارجه أشـد من خوفك . قال : فـكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد ؟ قال : أما علمت أن المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان

قولهم فى التوكل :

قال السرى : التوكل الانخلاع من الحول والقوة .

وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كما لم تكن ، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا .

قال بعضهم : يريد توكل العناية لا توكل الكفاية .

والله تعالى جعل التوكل مقروناً بالإيمان فقال (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال لنبيه (وتوكل على الحى الذى لا يموت) .

وقال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال أبو بكر الدقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .

وقال أبو بكر الواسطى : أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار ، وأن لا يفارق التوكل فى أمانيه ، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة فى عمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً يدفنها فيه ، وينس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله .

وقال سهل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد ، ولا يكون له حركة ولا تدبير .

وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله .

وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل .

وقال : التقوى واليقين مثل كفتى الميزان ، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ، ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله .

ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة ، وإن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلا وموازنة ، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل

فى النفس ، وكل ما أحس بشىء يقدح فى توكله يراه من منبع النفس ، فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس ، وكماله يثبت بغيبة النفس ، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم ، وإنما شغلهم فى تغييب النفس بتقوية مواد القلب ، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل ، فصح التوكل ، والعبد غير ناظر إليه ، وكلما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء) فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان ، ويرى السكون بالله من غير استقلال السكون فى نفسه ، ويصير التوكل حينئذ اضطراراً ، ولا يقدح فى توكل مثل هذا للتوكل ما يقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لأنه يرى الأسباب مواتاً لا حياة لها إلا بالتوكل ، وهذا توكل خواص أهل المعرفة .

قولهم فى الرضى :

قال الحارث : الرضى سكون القلب تحت جريان الحكم .

وقال ذو النون : الرضى سرور القلب بمر القضاء .

وقال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت له : أما تستحى أن تطلب رضى من لست عنه براض ؟ فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

وقال سهل : إذا اتصل الرضى بالرضوان اتصلت الطمأنينة ، فطوبى لهم وحسن مآب .

وقال رسول الله ﷺ « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً » .

وقال عليه السلام « إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

وقال الجنيد : الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلوب .

فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضى ، وليس الرضى والمحبة كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة ، لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضى والمحبة .

وقال ابن عطاء : الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لأنه اختار له الأفضل فيرضى له ، وهو ترك السخط .

وقال أبو تراب : ليس ينال الرضى من الله من للدنيا فى قلبه مقدار .

وقال السرى : خمس من أخلاق المقربين : الرضى عن الله فيما تحب النفس وتكره ، والحب له بالتحبب إليه ، والحياء من الله ، والأنس به ، والوحشة مما سواه .

وقال الفضيل : الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئاً .

وقال ابن شمعون : الرضى بالحق ، والرضى له ، والرضى عنه ، فالرضى به مدبراً ومختاراً ، والرضى عنه قاسماً ومعطياً ، والرضى له إلهاً ورباً .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضياً ساخطاً ؟ قال : نعم يجوز أن يكون راضياً عن ربه ، ساخطاً على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله .

وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلىّ من الغنى ، والسقم أحب إلىّ من الصحة ، قال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنّ أنه فى غير الحالة التى اختار الله له .

وقال على رضى الله عنه : من جلس على بساط الرضى ، لم ينله من الله مكروه أبداً ، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال .

وقال يحيى : يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل ، وتخلص فيما تعمل .

وقال بعضهم : الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ، ولم يتأسف عليها .

وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ، يقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت .

قال الشبلى رحمه الله بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر . فقال : صدقت . قال : فضيق الصدر ترك

الرضى بالقضاء . وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيهاً منه على أصل الرضى ، وذلك أن الرضى يحصل لانشراح القلب وانفساحه ، وانشراح القلب من نور اليقين . قال الله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر ، وانفتحت عين البصيرة ، وعاين حسن تدبير الله تعالى ، فينتزع السخط والتضجر ، لأن اتساع القلب يتضمن حلاوة الحب ، وفعل المحبوب بموقع الرضى عن المحب الصادق ، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل : وكل ما يفعل المحبوب محبوب .

الباب الحادى والستون

فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينى قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى ، قال أنا أبو عبد الله الفربرى ، قال أنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنا سليمان بن حرب ، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وأخبرنا شيخنا أبوزرعة طاهر بن أبى الفضل ، قال أنا أبو بكر بن خلف ، قال أنا أبو عبد الرحمن ، قال أنا أبو عمر بن حيوة ، قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه ، قال حدثنى بشر بن محمد ، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن عبلة عن العرباض بن سارية قال : كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى وسمعى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد » .

فكأن رسول الله ﷺ طلب خالص الحب ، وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى ، بكليته ، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائماً بشروط حاله بحكم العلم ، والجبلة تتقاضاه بضد العلم ، مثل أن يكون راضياً ، والجبلة قد تكره ، ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم لا إلى الاستعصاء بالجبلة ، فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع .

وللمحبة وجوه وبواعث ، المحبة فى الإنسان متنوعة .

فمنها محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة العقل .

فقول رسول الله ﷺ وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد ، معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى ، حتى يكون حب الله تعالى غالباً ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب

فى الطبع أيضاً والجبلة من حب الماء البارد ، وهذا يكون حباً صافياً لخواص تنفمر به وبنوره نار الطبع والجبلة ، وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب .

قال الواسطى فى قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات .

وقال بعضهم : المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة .

فإذاً الحب حبان : حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء ، وهذا الحب مخرجه من الصفات . وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات ، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح ، وهو الحب الذى فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه ، وهذا الحب يكون من الأحوال ، لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل ، وهو مفهوم من قول النبى ﷺ « أحب إلىّ من الماء البارد » لأنه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات .

وهذا الحب روح ، والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح . ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله (أذلة على المؤمنين) لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه ، وينشد :

لعين تفدى ألف عين وتتقى ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات ، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات ، من الزهد والرضى والتوكل على ما شرحناه أولا ، ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك . والتوبة لهذا الحب أيضاً بمثابة الجثمان لأنها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ، ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق

المحبة يكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح ، وعند ذلك لا ينقلب فى أطوار المقامات ، لأن التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها إلى شىء طريق المحبين ، ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ومن قوله تعالى (ويهدى إليه من ينيب) أثبت كون الإنابة سبباً للهداية فى حق المحب ، وفى حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب ، فقال تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء) .

فمن أخذ فى طريق المحبوبين ، يطوى بساط أطوار المقامات ، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها ، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها ، لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها ، والمقامات كلها مصفية النعوت والصفات النفسانية ، فالزهد يصفيه عن الرغبة ، والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس ، والرضى يصفيه عن ضربان ، عرق المنازعة ، والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة ، فبقى ظلمتها وجمودها . فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها ، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبة ، ورغبة الحب أحرقت رغبته ، وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته ، وماذا يسكن فيه الرضى من عروق المنازعة ، والمنازعة ممن لم تسلم كلية .

قال الروذبارى : مالم تخرج من كليتك لا تدخل فى حد المحبة .

وقال أبو يزيد : من قتلته محبتـه فـديته رؤيته ، ومن قتله عشقه فديته منادمته .

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أحمد ابن على بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علوية يقول قال أبو يزيد ذلك ، فإذاً التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون ، تخلفت عن هممهم المقامات ، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات ، وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بقاياه .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف ؟ قال : إلى التوكل . فقال: تسعى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل .

فالنفس إذا تحركت بصفتها متلفتة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهده ، فالمتوكل إذا تحركت نفسه يردها بتوكله ، والراضى يردها برضاه ، وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم ، وفى ذلك تنسم روح القرب من بعيد ، وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم ، وبحسبه الاجتهاد والكسب .

ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ، ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة المكوف محمية عن الطوارق والصروف ، لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب ، فالزهد والتوكل والرضى كائن فيه وهو غير كائن فيها ، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهداً وإن رغب ، لأنه بالحق لا بنفسه ، وإن رؤى منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل ، وإن وجد منه الكراهة فهو راض ، لأن كراهته لنفسه ، ونفسه للحق ، وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها ، صار عين الداء دواءه ، وصار الإعلال شفاءه ، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضى ، أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضى .

قالت رابعة : محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه .

وقال أبو عبد الله القرشى : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ، ولا يبقى لك منك شىء .

وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له ، والمحبة فى القلب نار تحرق كل دنس .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجباً كيف يصبر الإنسان عن حبيبه .

وقال بعضهم : من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب ، ومن ادعى حب

رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب . وكانت رابعة تنشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هـذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات ، فمن ادعى حالا يعتبر حبه ، ومن ادعى محبة تعتبر توبته ، فإن التوبة قالب روح الحب ، وهـذا الروح قيامه بهذا القلب ، والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى ﷺ قال « المرء مع من أحب » فهو مع الله تعالى .

وقال أبو يعقوب السوسى : لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب ، بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً من غير محبة .

سئل الجنيد عن المحبة قال : دخـول صفات المحبوب على البـدل من صفات المحب .

قيل: هذا على معنى قوله تعالى « فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً » وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها ، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت ، والرابطة متأصلة متأكدة ، وكمال وصف المحبة أزال للموانع من المحب ، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفاً على المحب المخلص من موانع قادحة فى صدق الحب ، ونظراً إلى قصوره بعد استنفاد جهده ، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب ، فيقول عند ذلك :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ « تخلقوا بأخلاق الله » لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة ، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ، ولكن سنة الله جارية أن يزكى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده ، وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة

خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ، ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول ، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ماوراء ذلك ، لكون عطايا الله غير متناهية ، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه ، وبباعث الشوق تستقر الصفات للموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى ، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه . ومن ظن من الوصول غير ماذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت .

وإشارات الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة ، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب ، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا ، وأمنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس ، وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها .

سئل الشبلى عن المحبة فقال : كأس لها وهج إذا استقر فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت .

وقيل : للمحبة ظاهر وباطن ، ظاهرها اتباع رضى المحبوب ، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شىء ، ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه .

فمن الأحوال السنية فى المحبة الشوق ، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا ، لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له ، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم .

حزنى كحسنك لا لذا أمد ينهى إليه ولا لذا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين .

قال أحمد بن أبى الحوارى : دخلت على أبى سليمان الدارانى فرأيته يبكى ، فقلت ما يبكيك رحمك الله ؟ قال : ويحك يا أحمد ، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول : بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى مناجاتى ، وإنى مطلع عليهم فى خلواتهم ، أسمع أنينهم ، وأرى بكاءهم ، ياجبريل ناد فيهم ما هذا البكاء

الذى أراه فيكم ، هل أخبركم مخـــبر أن حبيباً يعذب أحبابه بالنار ، كيف يجمل بى أن أعـذب قوماً إذا جن عليهم الليل تملقـوا إلىّ ، فبى حلفت إذا وردوا القيامة علىّ أن أسفر لهم عن وجهى وأبيحهم رياض قدسى .

وهـذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق ، والشوق فى المحبة كالزهـد من التوبة ، إذا استقرت التوبة ظهر الزهـد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواسطى فى قوله تعـالى (وعجلت إليك رب لترضى) قال شوقاً واستهانة بمن وراءه (قال هم أولاء على أثرى) من شوقه إلى مكالمة الله ، ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

وقال أبو عثمان : الشوق ثمرة المحبة ، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه .

وقال أيضاً فى قوله تعالى (فإن أجل الله لآت) تعزية للمشتاقين معنـاه إنى أعلم أن شوقـكم إلىّ غالب ، وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولـكم إلى من تشتاقون إليه .

وقال ذو النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقـامات ، فإذا بلغهـا الإنسان استبطأ الموت شوقاً إلى ربه ، ورجاء للقائه والنظر إليه .

وعندى أن الشوق الكائن فى المحبين إلى رتب يتوقعونها فى الدنيا غـير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت ، والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علماً ، ويطلبونها ذوقاً ، فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقاً ، وليس من ضرورة مقـام الشوق استبطاء المـوت ، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة ، فتمتلىء عينه من النقد ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال إنمـا يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟

ولهذا سئل الأنطاكي عن الشوق فقال : إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته .

وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجهاً ، لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية . كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقاً إلى مالم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا .

ووجه آخر ، أن الإنسان لابد له من من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته ، وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نعنى بالشوق إلى مطالبة تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب ، وهذه المطالبة كائنة فى المحبين ، فالشوق إذاً كائن لا وجه لإنكاره ، وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة ، فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقاً إلى اللقاء ، ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقاً إلى زوائد ومبار من الحبيب وأفضاله ، وهذا هو الذى أراه وأختاره .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقاً أضاء النور ما بين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلىّ أشهدكم أنى إليهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

سئل ابن عطاء عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا ، وتلهب القلوب ، وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب .

سئل بعضهم: هل الشوق أعلى أم المحبة، فقال : المحبة ، لأن الشوق يتولد منها ، فلا مشتاق إلا من غلبه الحب ، فالحب أصل ، والشوق فرع .

وقال النصراباذى : الخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس ، وقد سئل الجنيد عن الأنس فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

قيل : معنـــاه قول الخليل (أرنى كيف تحيي الموتى) وقول موسى (أرنى أنظر إليك) وأنشد لرويم :

شغلت قلبي بمـــا لديك فلا   ينفك طول الحيـاة عن فكر
آنستني منـك بالوداد فقـد   أوحشتني من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضني   يوعدني عنك منـك بالظفر
وحيثما كنت يا مـدى هممى   فأنت مـنى بموضـع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله ، وانقطاعك إليه ، فإن لله عباداً استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس مايكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون .

قال الواسطى : لايصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها .

وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فإنك لا تتزايد به أنساً إلا ازددت منه هيبة وتعظيما .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس ، وأنشدت :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم مـنى للجليس مؤانس   وحبيب قلبي فى الفـؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قلّ علمه ، وعمى قلبه ، وضيع عمره .

قيل لبعضهم : من معك فى الدار ؟ قال : الله تعالى معى ، ولا يستوحش من أنس بربه .

وقال الخراز : الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب فى مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال : جدد لهم الود

فى كل طرفة بدوام الاتصال ، وآوام فى كنفه بحقائق السكون إليـه ، حتى أنت قلوبهم ، وحنت أرواحهم شوقاً ، وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت منامهم، وانقطعت آمالهم عنده لما بان منـه لهم . ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه ببعض ما أعـد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته ، وسابق علمه ، وكان نصيبهم معرفتهم به ، وفراغ همهم عليه ، واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحسدهم من عبيدهم الهموم أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم .

وأنشد فى معناه :

كانت لقلبى أهــواء مفـرقة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائى

فصـار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تركت للناس دنيــاهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيــائى

وقد يكون من الأنس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه ، وسائر أبواب القربات ، وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منـه ، ولـكن ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين .

والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن ، وكنسه بصدق الزهد ، وكمال التقوى ، وقطع الأسباب والعلائق ، ومحو الخواطر والهواجس ، وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لأنم العظمة ، وانتشار الروح فى ميادين الفتوح ، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب ، فيجمعه به عن الهيبـة ، وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس .

وهذا الذى وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء ، وهما غير الأنس والهيبـة اللذين يذهبان بوجود الفناء ، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجـلال والجمال ، وذلك مقام التلوين ، وما ذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات . ومن الأنس خضوع النفس للطمئنة ، ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح .

ومنها القرب . قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (واسجد واقترب)

وقد ورد « أقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده » فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب ، لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب .

قال بعضهم : إنى لا أجد الحضور فأقول يا ألله أو يا رب فأجد ذلك علىّ أثقل من الجبال . قيل : ولم ؟ قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادى جليسه ، وإنما هى إشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات .

وهذا الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ، ولكنه مشعر بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه ، لغلبة سكره ، وقوة محوه ، فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس ، والنفس من الروح ، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه ، فيقول يا ألله ويارب بلسان النفس المطمئنة ، العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها . والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال ، وهذا أتم وأقرب من الأول ، لأنه وفى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار ، وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك .

وقال أبو يعقوب السوسى : مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريباً حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب ، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذاك قرب . وقد قال قائلهم :

قد تحققتك فى السر ... فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان ... وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعـ ... ـظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد ... من الأحشاء دانى

قال ذو النون : ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة .

وقال سهل : أدنى مقام من مقامات القرب الحياء .

وقال النصراباذى : باتباع السنة تنــال المعرفة ، وبأداء الفرائض تنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة .

ومنها الحياء ، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص ، فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله ﷺ فى قوله « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا إنا نستحيي يارسول الله ، قال : ليس ذلك ، ولـكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال ، وهو مانقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت أحمد السقطى بن صالح يقول سمعت محمد بن عبدون يقـول سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لى سرى : احفظ عنى ما أقول لك : إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا ، وإلا رحلا .

والحياء إطراق الروح إجلالا لعظيم الجلال ، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال ، فإذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء .

وأنشد شيخ الإسلام :

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله   لا خيفـة بل هيبـة وصيانة لجماله

الموت فى إدباره ، والعيش فى إقباله   وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله

قال بعض الحـكماء : من تـكلم فى الحياء ولا يستحى من الله فيما يتـكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك .

وقال ابن عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه .

وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء ، وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء ، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله إليهم .

ومنها الاتصال .

قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ، ومشاهدات الأسرار .

وقال بعضهم : الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول .

وقال بعضهم : الاتصال أن لايشهد العبد غير خالقه ، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه .

وقال سهل بن عبد الله : حركوا بالبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : العمال أربعة : تائب ، وزاهد ، ومشتاق ، وواصل ، فالتائب محجوب بتوبته ، والزاهد محجوب بزهده ، والمشتاق محجوب بحاله ، والواصل لايحجبه عن الحق شيء .

وقال أبو سعيد القرشي : الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبداً ، والمتصل الذى بجهده يتصل ، وكلما دنا انقطع . وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد ، لكون أحدهما مباداً بالكشوف ، وكون الآخر مردود إلى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد : الواصلون فى ثلاثة أحرف : همهم لله ، وشغلهم فى الله ، ورجوعهم إلى الله .

وقال السيارى : الوصول مقام جليل ، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق ، وقرب إليه البعيد .

وقال الجنيد : الواصل هو الحاصل عند ربه .

وقال رويم : أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبداً .

وقال ذو النون : مارجع من رجع إلا من الطريق ، وما وصل إليه أحد فرجع عنه .

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ . وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهو رتبة فى التجلى ، فيفنى فعله وفعل غيره ، لوقوفه مع فعل الله ، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة فى الوصول .

ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال ، وهذا تجلى طريق الصفات ، وهو رتبة فى الوصول .

ومنهم من ترق لمقام الفناء ، مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة ، مغيباً فى شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين ، وهذا المقام رتبة فى الوصول .

وفوق هذا حق اليقين ، ويكون ذلك فى الدنيا للخواص لمح ، وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد ، حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل ، فأين الوصول ، هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبداً الآباد فى عمر الآخرة الأبدى ، فكيف فى العمر القصير الدنيوى .

ومنها القبض والبسط ، وهما حالان شريفان . قال الله تعالى (والله يقبض ويبسط) وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هى علامات القبض والبسط ، ولم أجد كشفاً عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة ، والإشارة تقنع الأهل . وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم ، لا يكونان

قبله ولا يكونان بعده ، ووقتهما وموضعهما فى أوائل حال المحبة الخاصة لا فى نهايتها ، ولا قبل حال المحبة الخاصة . فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضاً وبسطاً وليس هو ذلك ، وإنما هو همّ يعتريه فيظنه قبضاً ، واهتزاز نفسانى ونشاط طبيعى يظنه بسطاً . والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ، ومادامت صفة الإمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز ، والنشاط والهم وهيج ساجور النفس ، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع ، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة،ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك ، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة ، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى .

قال الواسطى : يقبضك عمالك ويبسطك فيما له .

وقال النورى : يقبضك بإياك ويبسطك لإياه .

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته ، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منهما ، وصاحب القلب تحت حجاب نورانى لوجود قلبه ، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه ، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولايتصرف فيه ، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصاً من الوجود النورانى الذى هو القلب ، ومتحققاً بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب ، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبض ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط يقع فى الوجود ، فأما مع الفناء والبقاء فلا .

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط فى البسط ، وذلك أن الوارد من الله تعالى ، يرد على القلب فيمتلىء القلب منه روحاً وفرحاً واستبشاراً ، فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها ، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطبعها ، وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطاً ، فتقابل بالقبض عقوبة ، وكل القبض إذا فتش لايكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ، ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ، ماوجد صاحب القلب القبض ، ومادام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض ملتقى من قوله تعالى (لـكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) .

فوارد الفرح مادام موقوفاً على الروح والقلب لا يكثف ولايستوجب صاحبه القبض ، سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله ، وإذا لم يلتج بالإيواء إلى الله تعالى ، تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح ، وهو الفرح بما أتى المنوع منه ، فمن ذلك القبض فى بعض الأحايين ، وهذا من ألطف الذنوب الموجبـة للقبض ، وفى النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبـة للقبض ، ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ، ولا صاحب الأنس والهيبة ، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان . وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمـان لنقصان الحظ من القلب ، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب . وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف سببهما ، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام .

ومن أحكم علم الحال والمقام لايخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط ، كما يشتبه عليـه الهم بالقبض والنشاط بالبسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة ، لا تنقدح من جوهرها نار توجب القبض ، ولايتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط ، وربما صار لمثل هـذا القبض والبسط فى نفسه لا من نفسه ، فتـكون نفسه المطمئنة بطبـع القلب

فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط ، لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح ، مستقر فى دعة القرب ، فلا قبض ولا بسط .

ومنها الفناء والبقاء .

قد قيل : الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه .

وقد قال عامر بن عبد الله : لا أبالى امرأة رأيت أم حائطاً .

ويكون محفوظاً فيما لله عليه ، مصروفاً عن جميع المخالفات ، والبقاء يعقبه ، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى .

وقيل : الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته ، فكان فانياً عن المخالفات ، باقياً فى الموافقات .

وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح ، وليس من الفناء والبقاء فى شىء .

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه ، فشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له : كنا نتراءى الله فى ذلك المكان .

وقيل : الفناء وهو الغيبة عن الأشياء ، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل .

وقال الخراز : الفناء هو التلاشى بالحق ، والبقاء هو الحضور مع الحق .

وقال الجنيد : الفناء استعجام الكل عن أوصافك ، واشتغال الكل منك بكليته .

وقال إبراهيم بن شيبان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة .

وسئل الخراز : ما علامة الفانى ؟ قال : علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى .

وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء فى الفناء محنتهم أن يصحبهم علم البقاء ،

وأهل البقاء فى البقاء محنتهم أن يصحبهم علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات ، وهذا تقتضيه التوبة النصوح ، فهو ثابت بوصف التوبة ، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل ، وهـذا يقتضيه الزهـد ، وبعضها إشارة إلى فنـاء الأوصاف المذمومة وبقـاء الأوصاف المحمودة ، وهـذا يقتضيه تزكية النفس ، وبعضها إشارة إلى حقيقة الفنـاء المطلق ، وكل هـذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ، ولـكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبـد ، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن .

فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ، ويسلب عن العبـد اختياره وإرادته ، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعـلا إلا بالحق ، ثم يأخـذ فى المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هـذا المقام من الفناء كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ، ويقيض الله تعالى له من يطعمه ومن يسقيه كيف شاء وأحب ، ولهذا لعمرى فناء ، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير ، نظراً إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله .

والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات ، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، فيستولى على باطنه أمر الحق ، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس . وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه ، وقـد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى وقلت له : هـل يكون بقاء للتخيلات فى السر ووجود الوسواس من الشرك الخفى ؟ وكان عنـدى أن ذلك من الشرك الخفى ، فقال لى : هذا يكون فى مقام الفناء ، ولم يذكر أنه هل هـو من الشرك الخفى أم لا . ثم ذكر حـكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت اسطوانة فى الجامع فانزعج لهدتها أهـل السوق ، فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقوعها ، فهذا هو الاستغراق

والفناء باطناً . ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققاً بالفناء ومعناه روحاً وقلباً ، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه . فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان ، وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان ، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظراً للفعل ولا منتظراً للإذن ، هو باق ، والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ، ولا الخلق عن الحق ، والفانى محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال ، وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه .

الباب الثانى والستون

فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان إجازة قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى قال حدثنا محمد ابن إبراهيم قال حدثنا أبو مسلم الكشى قال حدثنا مسور بن عيسى قال حدثنا القاسم بن يحيى قال حدثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ماقد علمت علم مالم تعلم ، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه » .

وإنما يزهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم . فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى ، وتعلموا العلم لله تعالى ، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم ، فعلمهم الله تعالى مالم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات ، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار ، وترسخ قدمهم فى العلم .

قال أبو سعيد الخراز : أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط ، وأول الفهم إلقاء السمع وللشاهدة لقوله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

وقال أبو بكر الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب ، وفى سر السر ، فعرّفهم ماعرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم ، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ، فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدرر والجواهر ، ونطقوا بالحكمة .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أنه قال : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله .

أخبرنا أبو زرعة قال أنا أبو بكر بن خلف قال حدثنا أبو عبد الرحمن

قال سمعت النصراباذى يقــول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول : هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمنــاء أوليائه وسادات النبلاء من غــير سماع ولا دراسة ، وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخراز : للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة وأنبــاء عجيبة ، يتــكلمون فيها بلسان الأبدية ، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية ، وهى من العلم المجهول .

فقوله بلسان الأبدية وعبــارة الأزلية ، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون . وقد قال تعالى على لسان نبيه ﷺ « بى ينطق » وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

فما تداولتــه ألسنتهم من الــكلمات تفهيما من بعضهم للبعض ، وإشارة منهم أحوال يجدونها ، ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم : الجمع والتفرقة .

قيل : أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو) فهذا جمع ، ثم فرق فقال (والملائــكة وأولو العلم) .

وقوله تعالى (آمنا بالله) جمع ، ثم فرق بقوله (وما أنزل إلينا) والجمع أصل والتفرقة فرع ، فــكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد : القرب بالوجد جمع ، وغيبته فى البشرية تفرقة .

وقيل : جمعهم فى المعرفة وفرقهم فى الأحوال . والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق ، فمتى شاهد غيره فما جمع ، والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة . وعباراتهم فى ذلك كثيرة .

والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد ، وأشاروا بالتفرقة إلى الا كتــاب ، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة .

ويقولون : فلان فى عين الجمع ، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ، فإذا عاد إلى شىء من أعماله عاد إلى التفرقة ، فصحة الجــمع بالتفرقة ، وصحة التفرقة بالجمع . فهــذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله ، والتفرقة من العلم بأمر الله ولا بد منهما جميعاً .

قال المزين: الجمع عين الفناء بالله ، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض.

وقد غلط قوم وادعوا أنهم فى عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التوحيد، وعطلوا الاكتساب، فتزندقوا، وإنما الجمع حكم الروح، والتفرقة حكم القالب، وما دام هذا التركيب باقياً فلا بد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطى: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كنت قائماً بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة.

وقيل: جمعهم بذاته، وفرقهم فى صفاته.

وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه كسباً ونظر إلى أعماله فهو فى التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو فى الجمع.

ومجموع الإشارات ينبىء أن المكون يفرق، والمكون يجمع، فمن أفرد المكون جمع، ومن نظر إلى المكون فرق، فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد، فإذا أثبت طاعته نظراً إلى كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال: رؤية الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع، ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى، فلم يكن لموسى خبر من موسى، ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا يإياه سمع. ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ماقدر على السمع. ثم أنشد القائل متمثلا:

وبداله من بعدما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظراً إليه ورده أشجانه
فالنار مااشتملت عليه ضلوعه ... والماء ماسمحت به أجفانه

ومنها قولهم: التجلى والاستتار.

قال الجنيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلى، والتذويب للأولياء وهو للمشاهدة. وحاصل الإشارات فى الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس.

ومنها الاستتار ، وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب .

ومنها التجلي ، ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال ، وقد يكون بطريق الصفات ، وقد يكون بطريق الذات ، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم ، فأما لهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس ، وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقه في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار .

قال بعضهم : علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم،فمن عبر أوفهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال .

وقال بعضهم : التجلي رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل ، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومنها التجريد والتفريد . الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله ، لا يأتي بما يأتي به نظراً إلى الأغراض في الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقياداً ، والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به ، بل يرى منة الله عليه . فالتجريد بنفي الأغيار ، والتفريد بنفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه .

ومنها الوجد والتواجد والوجود . فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحاً أو حزناً ، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى ، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ، ينظر منها إلى الله تعالى . والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر . والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان ، فلا وجد مع الوجدان ، ولا خبر مع العيان ، فالوجد بعرضية الزوال ، والوجود ثابت بثبوت الجبال . وقد قيل :

قد كان يطربني وجدي فأقعدني عن رؤية الوجد من في الوجد موجود
والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ومنها الغلبة . الغلبة وجد متلاحق ، فالوجد كالبرق يبدو ، والغلبة

كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز ، فالوجد ينطفىء سريعاً ، والغلبة تبقى للأسرار حرازاً منيعاً .

ومنها المسامرة ، وهى تفرد الأرواح بخفى مناجاتها ولطيف مناغاتها فى سر السر بلطيف إدراكها القلب لتفرد الروح بها ، فتلتذ بها دون القلب .

ومنها السكر والصحو ، فالسكر استيلاء سلطان الحال ، والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال .

قال محمد بن خفيف : السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب .

وقال الواسطى : مقامات الوجد أربعة : الذهول ، ثم الحيرة ، ثم السكر ، ثم الصحو ، كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ، ثم دخل فيه ، ثم أخذته الأمواج ، فعلى هـذا من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شىء منه إلى مستقره فهو صاح ، فالسكر لأرباب القلوب ، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب .

ومنها المحو والإثبات . المحو بإزالة أوصاف النفوس ، والإثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس . أو المحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه ، والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به ، فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفاً بعد أن محاه عن أوصافه .

قال ابن عطاء : يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم .

ومنها علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال ، وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال ، وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال .

قال فارس : علم اليقين لا اضطراب فيه ، وعين اليقين هو العلم الذى أودعه الله الأسرار ، والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علماً بشبهة ، فإذا انضم إليه اليقين كان علماً بلا شبهة ، وحق اليقين هو حقيقة ما أشار إليـه علم اليقين ، وعين اليقين .

وقال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ، وهو أن يشاهد الغيوب

كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله ﷺ « ماذا أبقيت لعيالك » قال : الله ورسوله .

وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة ، وعين اليقين حال الجمع ، وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد .

وقيل اليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق ، فالاسم والرسم للعوام ، وعلم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ .

ومنها الوقت ، والمراد بالوقت ماهو غالب على العبد ، وأغلب ماعلى العبد وقته ، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع ، وقد يراد بالوقت مايهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه ، يقال فلان بحكم الوقت يعنى مأخوذاً عما منه بما للحق .

ومنها الغيبة والشهود . فالشهود هو الحضور وقتاً بنعت المراقبة ، ووقتاً بوصف المشاهدة ، فادام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاضر ، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب ، وقد يعنون بالغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام الفناء .

ومنها الذوق والشرب والرى . فالذوق إيمان ، والشرب علم ، والرى حال . فالذوق لأرباب البوادر ، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع ، والرى لأرباب الأحوال ، وذلك أن الأحوال هى التى تستقر ، فما لم يستقر فليس بحال ، وإنما هى لوامع وطوالع . وقيل الحال لا تستقر لأنها تحول ، فإذا استقرت تكون مقاماً .

ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة . فالمحاضرة لأرباب التلوين ، والمشاهدة لأرباب التمكين ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر . فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العين ، والمشاهدة لأهل الحق أى حق اليقين .

ومنها الطوارق والبوادى والبـاده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى،ويمكن بسط القول فيها، ويكون حاصل ذلك راجعاً إلى معنى واحديكثر بالعبارة فلا فائدة فيه . والمقصودأن هذه الأسماء كلها مبادى الحال ومقدماته ، وإذا صح الحال استوعب هـذه الأسماء كلها ومعانيها .

ومنهـا التلوين والتمـكين . فالتلوين لأرباب القلوب ، لأنهم تحت حجب القلوب ، وللقلوب تخلص إلى الصفات ، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات . وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال ،وخرقوا حجب القلوب ، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعـدم التغير فى الذات ، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات ، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين. فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم ، لأنها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها . والتلوين الواقـع فى النفوس لايخرج صاحبه عن حال التمكن ، لأن جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الإنسانية ، وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر ، وإنما المعنى فيه أن ما كوشف من الحقيقة لا يتوارى عنه أبداً ولا يتناقص بل يزيد ، وصاحب التلوين قد يتناقص الشىء فى حقه عند ظهور صفات نفسه ، وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الأحوال ، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان ، وتلوينه فى زوائد الأحوال .

ومنها النفس . ويقال النفس للمنتهى ، والوقت للمبتدى ، والحـال للمتوسط ، فـكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدىء يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر ، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه ، والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال ، لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تـكون المواجيد مقرونة بأنفاسه ، مقيمة لا تتناوب عليه ، وهذه كلها أحوال لأربابها ، ولهم منها ذوق وشرب ، والله ينفع ببركتهم آمين .

الباب الثالث والستون

فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال أخبرنى محمد بن إبراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

النية أول العمل ، وبحسبها يكون العمل ، وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ، ويتزيا بزيهم ، ويجالس طائفتهم لله تعالى ، فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته .

وقد ورد « المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه » .

وقد قال الله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) .

فالمريد ينبغى أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن عن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال سمعت الجنيد يقول : أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء .

فالمريد فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية ، وإحكام النية تنزيهها من دواعى الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم ياعمر أن عون الله للعبد بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه : أخلص النية فى أعمالك يكفك قليل من العمل .

ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية .

قال سهل بن عبد الله التسترى : أول مايؤمر به المريد المبتدىء التبرى من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة ، وهذا مقام حملة العرش ، وليس بعده مقام.

هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية .

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع ، وقطع النظر عن الخلق . فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق .

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر » إشارة إلى قطع النظر عن الخلق ، والخروج منهم ، وترك التقيد بعاداتهم .

قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ « الصدق يهدى إلى البر » .

ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه ، والخروج عن الخلق بقطع

النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه ، فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس .
وأنفع شيء للمريد معرفة النفس ، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات ، أو عليه من الهوى بقية .

قال زيد بن أسلم : خصلتان هما كمال أمرك : تصبح لا تهم لله بمعصية ، وتمسى ولا تهم لله بمعصية . فإذا أحكم الزهد والتقوى ، انكشفت له النفس ، وخرجت من حجبها ، وعلم طريق حركتها ، وخفى شهواتها ، ودسائسها وتلبيساتها . ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى .

قال ذو النون : لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصدق .

ونقل فى معنى الصدق أن عابداً من بنى إسرائيل راودته ملكة عن نفسه ، فقال اجعلوا لى ماء فى الخلاء أتنظف به ، ثم صعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه ، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى ، قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعاً رفيقاً ، فقيل لإبليس : ألا أغويته ؟ فقال : ليس لى سلطان على من خالف هواه ، وبذل نفسه لله تعالى .

وينبغى للمريد أن تكون له فى كل شيء نية لله تعالى ، حتى فى أكله وشربه وملبوسه ، فلا يلبس إلا لله ، ولا يأكل إلا لله ، ولا يشرب إلا لله ، ولا ينام إلا لله ، لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس كانت لله لا تستعصى النفس ، وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص ، وإذا دخل فى شيء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه .

وقد ورد فى الخبر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الإذفر ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفى بمسك فإن ثابتاً يصافحنى ويقبل يدى .

وقد كانوا يحسنون الباس الصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم .

فالمريد ينبغى أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ، ولا يسامح نفسه

أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى . وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى عنـــد كل لقمة ويقول بلسانه أيضاً آكل هـذه اللقمة لله تعالى . ولا ينفع القول إذا لم تكن النية فى القلب ، لأن النية عمل القلب ، وإنما اللسان ترجمان ، فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لاتـكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال : هات للمدرى ، أراد الميل ليفرق شعره ، فقالت له امرأته : أجىء بالمـدرى والمرآة ؟ فسكت ثم قال : نعم ، فقال له من سمعـه : سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم ، فقال : إنى قلت لها هات المدرى بنية ، فلما قالت والمرآة لم يكن لى فى المرآة نية فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لى نية فقلت نعم .

وكل مبتــدىء لايحكم أساس بدايته ، بمهاجرة الإلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحـدة لاتستقر بدايته . وقد قيل : من قلة الصدق كثرة الخلطاء ، وأنفع ماله لزوم الصمت ، وأن لا يطرق سمعه كلام الناس ، فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة . وكل من لا يعلم كمال زهـــده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لايعرفه أبداً ، فإن عـدم معرفته لايفتح عليه خيراً . وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش . وربما استضر المبتدى بمجرد النظر إلى الناس ، ويستضر بفضول النظر أيضاً وفضول المشى ، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ، ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز ، فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله . ولا يستحقر فضول المشى ، فإن كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ، ثم يجر إلى تضييع الأصول .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول .

فـكل من لايتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه ، وانحلت شيئاً بعد شىء .

قال سهل بن عبد الله : من لم يعبد الله اختياراً يعبـد الخلق اضطراراً ،

وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ، ويهلك مع الهالكين .

ولا ينبغي للمبتدىء أن يعرف أحداً من أرباب الدنيا ، فإن معرفته لهم سم قاتل. وقد ورد « الدنيا مبغوضة الله فن تمسك بحبل منها قادته إلى النار» وما حبل من حبالها إلا كأبنائها والطالبين لها والمحبين ، فن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى .

ويحترز للمبتدىء عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار ، فإنه يدخل عليه منهم أشر مايدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا ، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل للتعبدين،وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك.

وينبغي الفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب ، ولاينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأساً،فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ، ورأينا الذين يقولون هذا القول ، ويرون الفرائض دون الزيادات ، والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء فى أحوالهم . فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه فى بدايته .

ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصاً لايمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها ، ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة ، وإن اغتسل قريباً من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن . قال رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ، ولو اشتريت الماء بعشائك » .

وما من نبى إلا وقد أمره الله أن يغتسل للجمعة، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب مابين الجمعتين ، ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة ، ويجلس معتكفاً فى الجامع إلى أن يصلى فرض العصر ، وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبى ﷺ ، فإنه يرى بركة ذلك فى جميع الأسبوع ، حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة .

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ، ويكون مايجده يوم الجمعة معياراً يعتبر به سائر الأسبوع الذى مضى ، فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة

فيه مزيد الأنوار والبركات ، وما يجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع فى الأسبوع ، يعرف ذلك ويعتبره .

ويتقى جداً أن يلبس للناس المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ، ففى لبس المرتفع للناس هوى ، وفى لبس الخشن رياء ، فلا يلبس إلا لله .

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوباً ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس ، فهمّ أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره فألبسه بنية للناس .

فليعلم العبد ذلك وليعتبره .

ولا بد للمبتدىء أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ، ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن ، فإنه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى .

وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكراً واحداً ليجتمع الهم فيه . ومن لازم التلاوة فى الخلوة ، وتمسك بالوحدة ، تفيده التلاوة والصلاة أوفى ما يفيده الذكر الواحد ، فإذا سئم فى بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة ، وينزل من التلاوة إلى الذكر ، فإنه أخف على النفس .

وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لايعتد به كل الاعتداد ، فإنه عمل ناقص ، ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال ، فيطالب نفسه أن تصير فى تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه ، فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن فى القلب لايمزجه بحديث النفس . وإن كان أعجمياً لايعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه ، فيشتغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس ، فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة .

قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة .

فليتمسك المريد بهذه الأصول ، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله ، فبذلك ثبات قدمه .

قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله .

فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ، ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم ، وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة ، ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها ، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيراً قطعاً ، علمنا ذلك وتحققناه .

وقال سهل : من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله ، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه الدار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مالى وهذا السؤال ، وهل هذه إلا كلمة لا تعنينى ، وهل هذا إلا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها ، وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة .

فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة العزائم ، عزائم الرجال ، بلغوا مابلغوا .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصور يقول سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول سمعت الجنيد يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله .

وهذه الجملة يحتاج للبتدىء أن يحكمها ، وللنتهى عالم بها عامل بحقائقها. فالمبتدىء صادق وللنتهى صديق .

قال أبو سعيد القرشى : الصادق الذى ظاهره مستقيم ، وباطنه يميل أحياناً إلى حظ النفس ، وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح ، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار .

والصديق الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال لايحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام . والصديق يريد نفسه لله ، وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية .

وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجات الأنبياء .

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ، ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقادة مطاوعة صالحة مع القلب ، مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى ، انطفأت فيهم نيران الهوى ، وتخمر فى بواطنهم صريح العلم ، وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله ﷺ فى حق أبى بكر رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

فأرباب النهايات ماتت أهويتهم ، وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ ، وقد سئل عن وصف العارف فقال : رجل معهم بائن منهم . وقال مرة : عبد كان فبان .

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم ، معوقين بتوقيت الأجل ، جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه ، بهم يهدى ، وبهم يرشد ، وبهم يجذب أهل الإرادة ، كلامهم دواء ، ونظرهم دواء ، ظاهرهم محفوظ بالحكم ، وباطنهم معمور بالعلم .

قال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله .

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية ، وكلما ازدادوا ديناً ازدادوا قرباً ، وكلما ازدادوا جاهاً ورفعة ازدادوا تواضعاً وذلة (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) .

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكراً صافياً يتناولون الشهوات تارة رفقاً بالنفوس ، لأنها معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ، ويهدى له شيء ، لأنه مقهور تحت السياسة ، مرحوم ملطوف به . وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسياً بالأنبياء ، واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف بالله مشتغل بسيده ، ولا يلتفت إليها .

واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضاً عن سياسة النفس ومنعها الشهوات ، وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر .

وقد غلط فى هذا خلق ، وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذ والشهوات ، وهذا خطأ لا من حيث أنه يحجب العارف عن معرفته ، ولكن يوقف عن مقام المزيد .

وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا إليها واسترسلوا فيها ، وقنعوا بأداء الفرائض ، واتسعوا فى المأكل والمشرب ، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال ، وتقيد بنور الحال ، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق . ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ، ويوقف نفسه مقام العبيد ، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق ، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود فى صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتاً ، رفقاً بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لأنها أسيرته ، ويمنعها الشهوات وقتاً ، لأن فى ذلك صلاحها . واعبر هذا سواه بحال الصبي ، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتاً ومنعه وقتاً ، انفسد طبعه ، لأن الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم ، وما دامت الجبلة باقية لابد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض

دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ، ووقع الركون ، وانسد به باب المزيد . فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك ، ولا بد له من أخذ وترك فى الأعمال والحظوظ . ففى الأعمال لابد له من أخذ وترك، فتارة يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين ، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقاً بالنفس ، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقاً بالنفس ، وتارة يتركها افتقاداً للنفس بحسن السياسة ، فيكون فى ذلك كله مختاراً .

فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية، ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية.والمنتهى شمل الطرفين، فإنه على غاية الاعتدال، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط .

فمن ردت إليه الأقسام فى النهاية فأخذها زاهداً فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار ، وتارك الاختيار ، الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال .

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار ، فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ما سبق إليه لرؤيته فعل الله مقيداً بالأخذ ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتاً ، واختياره من اختيار الله ويأخذ وقتاً ، واختياره من اختيار الله ، وهكذا صومه النافلة ، وصلاته النافلة ، يأتى بها وقتاً ويسمح للنفس وقتاً ، لأنه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين ، وهذا هو الصحيح . ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ .

وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ، ويصوم من الشهر ولايصوم الشهر كله غير رمضان ، ويتناول الشهوات . ولما قال الرجل إنى عزمت أن لا آكل اللحم قال « فإنى آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربى أن يطعمنى كل يوم لأطعمنى » وذلك يدلك على أن رسول الله ﷺ كان مختاراً فى ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختياراً .

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله ﷺ فعل كذا

يقولون كان رسول الله ﷺ مشرعاً ، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض ، فإن الرخصة الوقوف على حد قوله ، والعزيمة التأسي بفعله ، وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص ، وفعله لأرباب العزائم .

ثم إن المنتهي يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق ، فكل ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغي أن يعتمده ، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقتدى به ، وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك ، فإن كان ليقتدى به فالمنتهي أيضاً مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك ، والصحيح الحق أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء ، بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة . قال الله تعالى خطاباً له (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) لأنه بذلك ازداد استمداداً من الحضرة الإلهية ، وقرع باب الكرم .

والنبي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى ، غير مستغن عن ذلك .

ثم في ذلك سر غريب ، وذلك أن رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به . وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ، أن النفوس ألفت آنفاً كما أن الأرواح ألفت أولا ، ولكل روح مع نفسه تأليف خاص ، والسكون والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس .

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل لتصفية نفسه ونفس الأتباع ، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله ، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة . وهكذا المنتهي مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى ، فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ، ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس ، ولا يعطي الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة . وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق ، حتى تكون جلوته في حماية خلوته . ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة ، وأنه لا يحجبه

شىء ، وأن أوقاته بالله ولله ، ولا يرى نقصاناً ، لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد . فهو صحيح فى حاله غير أنه تحت قصور ، لأنه مانبه لسياسة الجبلة ، وما عرف سر تمليك الاختيار ، وما وقف من البيان على البيضاء النقية .

وقد نقلت عن للمشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه ، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها ، والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها ، حتى يسمعه الله من ذلك الصواب .

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت المتفرقات ، واستوت الأحوال والأماكن ، وسقطت رؤية التمييز .

ومثل هذا القول يوهم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة ، وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ، ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصاً ، يعنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال ، وهـذا صحيح ، لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز ، وتستوى الأحوال فيه ، ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز ، وليس فى هـذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه .

قيل لمحمد بن الفضل : حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها ألا وهى الاستقامة .

وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة ، فاستقامة أرباب النهاية على التمام . والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محجوب بها عن الأحوال ، وفى التوسط محفوظ بالأحوال ، فقد يحجب عن الأعمال . وفى الانتهاء لا تحجبه الأعمال عن الأحوال ، ولا الأحوال عن الأعمال ، وذلك هو الفضل العظيم .

سئل الجنيد عن النهاية فقال : هى الرجوع إلى البداية .

وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال : معناه أنه كان فى ابتداء أمره فى جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ، ثم رد إلى التحير والجهل ، وهو كالطفولية يكون جهل ، ثم علم ، ثم جهل . قال الله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) .

وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحيراً فيه .

ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادىء الأعمال ثم يرقى إلى

الأحوال ، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال ، وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين ، تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية ، وتستتبع القلب ، والقلب يستتبع النفس ، والنفس تستتبع القالب ، فيكون بكليته قائماً بالله ، ساجداً بين يدى الله تعالى ، كما قال رسول الله ﷺ « سجد لك سوادى وخيالى » .

وقال الله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) والظلال والقوالب تسجد بسجود الأرواح ، وعند ذلك تسرى روح المحبة فى جميع أجزائهم وأبعاضهم ، فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودّاً ، فيحبهم الله تعالى ، ويحببهم إلى خلقه ، نعمة منه عليهم وفضلاً على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أنا عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال حدثنى إسحاق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى الأرض » .

وبالله العون والعصمة والتوفيق .

تم بحمد الله المعيد المبدى ، كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردى ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

صححه وراجع أصوله

محمود غانم غيث

فهرست

كتاب عوارف المعارف

صفحة

صفحة

لصاحبها / على يوسف سليمان وأولاده
١٢ ش الصنادقية ـ الأزهر
١١ درب الاتراك ـ الأزهر
ص.ب ٩٤٦ ـ القاهرة ـ الأزهر
٥١٤٧٥٨٠ ـ ٥٩٠٥٩٠٩
جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع للطبعة الرابعة ٥١٠١٥ / ١٩٧٣
رقم الإيداع للطبعة الخامسة ١٠٠١١ / ٢٠٠٤



Bibliotheca Alexandrina
0680461